نظرة على
الإغريق وعبادة الغرقى
فى مصر فى العصرين اليونانى والرومانى

بقـلم

الدكتور سيد أحمد على الناصرى

لايزال حقل دراسة الحضارة اليونانية الرومانية ، فى مصر فى حاجة ماسة إلى المزيد من البحث والتعمق . فبالرغم من الدراسات العديدة التى قام بها العلماء الأوروبيون فى هذا المجال منذ القرن التاسع عشر إلا أن هذا الميدان من الدراسة لايزال حقـلا بكراً مليئا بالغموض والملابسات، وفى حاجة ماسة إلى الإيضاح والشرح ، ذلك لأن رمال مصر الدافئة لاتزال تخفى تحت طياتها الكثير من الدلائل المـادية للحضارة اليونانية والرومانية والتى هى أساس هام لكتابة تاريخ مصر وسبر أغوار الحياة فيها إبان هذه الفترة .

ومما يجعل مجال الدراسة فى هذا الميدان صعباً ، ظروف الدراسة الخاصة ومشاكلها المعقدة ـ لقد كان للأوروبيين مجال السبق فى دراسة الحضارة اليونانية الرومانية وكان معظمهم متخصص فى الحضارة اليونانية والرومانية فى أوروبا، ثم جاء معظمهم إلى مصر بحثا وراء المادة والشهرة العلمية . ولم يمكث فى مصر منهم سوى القليـل ليقضى وقتاً كافيا لدرجة تجعله يتفهم طبيعة الحياة المصرية الخاصة ـ ولذا نظروا إلى الحضارة اليونانيـة فى مصر على أنها امتداد طبيعى لحضارة أوروبا القديمة ولم يمر ببال الكثيرين منهم أن ظروف حياة الإغريق فى مصر كانت تختلف عن ظروف حياتهم فى أوروبا فاختلفت

(١) أشكر أستاذى الدكتور عبد اللطيف أحمد على لتشجيعه لى على كتابة هـذا البحث ، كما أشكر الأستاذ الدكتور أحمد فخرى على إشارته على ببعض المراجع .

بالتالى عقلية كل منهم ولو قليلا ولم تعد حضارة اليونان المصرية مطابقة تماما لمفهوم حضارة اليونان الأوروبيين. ولا أريد أن أقول أن قوة شخصية مصر هى التى استوعبت الأغريق وأثرت فيهم وجعلت تفكيرهم يختلف بعض الشىء عن تفكيرهم فى بلادهم الأصلية . وفى ذلك تكمن الأسباب التى كثيرا ما أوقعت المتخصصين فى الحضارة اليونانية فى مصر فى أخطاء جسيمة لأنهم يطبقون مفاهيم اوروبية خالصة لتفسير بعض جوانب الحياة والظواهر الاجتماعية الأغريقية فى مصر . وهناك أمثلة كثيرة يقابلها الباحث عرضاً وقصدا أثناء دراسته فى هذا المجال .

لم تكن مصر كغيرها من البلدان التى قصدها المهاجرون الأغريق بحثاً عن المال والكسب التجارى لذات هذا الغرض أو ساروا إليها فى أعقاب جيوش الإسكندر المقدونى الفاتحة — بل كانت بلداً متحضرا ، طالما سمعوا عن عجائبها منذ حضارة أجدادهم الموكينيين[1] ، وبلغ أعجاب كتابهم بالحضارة المصرية درجة جعلتهم يعتقدون أن الأغريق قد أخذوا دينهم وآلهتهم مثلا عن المصريين[2] وليس مكان هذا البحث مناقشة أصول الحضارة اليونانية، أهى مصرية أم غير مصرية؟ ولكن من الواضح أنه كانت لمصر مكانة خاصة فى نفوس الأغريق والمثقفين الرومان . حقا كان ذلك صحيحا ، ولكن يجب ألا تفوتنا حقيقة هامة وهى أن بعض الأغريق الذين أقاموا فى مصر لم يتخلصوا من الإحساس العنصرى الذى جعله يتمسك بغيرة شديدة بثقافته وعنصره ويرفض أن يتقبل أى شىء سواها ولذا كان رد الفعل هى وجود طبقة محافظة لدرجة كبيرة بين أغريق مصر حتى ولو فى الريف المصرى . على أى حال أستطيع أن أقول كانت مصر مزدوجة الشخصية فى أوائل حكم الأغريق لمصر... شخصية هللينية تمثل الجنس الحاكم والأقلية المسيطرة التى آثرت سكنى المدن، وشخصية مصرية وطنية تمثل الغالبية المحكومة التى تتمركز فى الريف وتعمل بالزراعة لقد كانت مصر فى أعقاب فتح الإسكندر لمصر وحكم البطالمة الأول كلوحة مزخرفة بلونين متباينين تماما بالرغم من تجاورهما أو إن شئت فقل كالتقاء مياه النيل بالبحر المتوسط . وقد عبر «فان جرونجن» Van Gronigen عن هذا التناقض بقوله «إنه لمن الصعب أن نجد

---

(١) انظر بحثى « حضارة كريت وموكيناى » كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧١ .

فى العالم القديم تباينا بين شعبين — وإن شئت قل — بين بلدين — أشد مما نجد بين بلاد الأغريق ومصر وبين سكانهما . وقد سبق لهيرودوت أن لاحظ قوة هــذا التباين(١).

وكثيرا ما أدى تجاور الحضارتين المختلفتين إلى العداء إلى حد الاشتباك الدموى بالرغم من سياسة التسامح الدينى التى انتهجها القصر الملكى البطلمى . فمثلا تخبرنا إحدى الوثائق البردية بحادثة طريفة، وهى أن مقدونيا اسمه بطليموس (!) كان يتعبد داخل السيرابيوم فى ممفيس عندما هاجمته الغوغاء المصرية واعتدت عليه بالضرب(٢) كان المثقفون من الجانبين يقفون وراء هذا الخلاف . فمن الجانب الأغريقى لم يخل الحال من الأغريق الذين كانوا يتعالون ويتفاخرون بقوميتهم وبحضارتهم التى حملوها معهم إلى ضفاف النيل من أدب وفلسفــة وفنون وعلوم إلى جانب إحساسهم بمنطق الشعب الغازى بأنهم فتحوا مصر بقوة الحراب ولذا فهى لهم بهذا الحق . أما الجانب المصرى فكان يتمركز فى «المعبد» الذى أصبح بمرور الزمن مؤسسة دينية واجتماعية وسياسية وكثيراً ما كان مصدر الثورة والتمرد، وغنى عن الذكر مدينة طيبة المصرية وما سببته من متاعب للحكام المقدونيين وكان يدير المعبد المصرى الـكهنة وهم أيضاً طبقة مثقفة على الأقل من الناحية القومية والـكهنوتية . كان العداء بين الحضارتين يقل ويشتد حسب الأحوال السياسية وحسب قوة القصر الملـكى . وإذ سمح لى باستعاره نموذجاً معاصراً لقلت — إن مصر بدت وكأنها ذات حزبين سياسين متعاديين فى بداية الأمر كان القصر الملـكى هــو رمز الوجود الأغريقى فى مصر وكان الأغريق ومعظمهم كانوا جنودا مسرحين — رجال الملك وخدمته وكان من الطبيعى أن تنضم الأسرة المالـكة فى أول الأمر إلى جانب الأغريق بالرغم من تملقها الظاهرى للمصريين ولـكن تغيراً يطرأ على سياسة الأسرة المالـكة فيما بعد عندما وهت بفعل الصراعات الدموية الأسرية وهى محاولة استمالة المعبد المصرى وإرضائه بالإنعام عليه بالامتيازات وكان هناك بعض الـكهنة من هم على استعداد لخدمة المـلوك البطالسة ومن بعدهم الرومان باختراع التفسيرات الدينية اللازمة لخدمة أهداف سادتهم السياسية .

---

(١) Bernhardt Van Gronigen, Le gymnasiarque des metropoles de l' Egypte romaine, Paris. Groningen. 1924 P. 4 ff.

(٢) U. P. Z. I. 1, 7 13; 8, 14.

وبمرور الزمن وبحكم الاحتكاك المادى والمعنوى بين الجنسين نشأت طبقة ثالثة خاصة فى الريف المصرى البعيد عن المدن وهى طبقة أنصاف الأغريق أو أنصاف المصريين أو من الأغريق المتمصرين أو المصريين المتأغرقين والتى وصفها العلامة بكرمان Bickermann « بأنها الجسر الذى كان يربط بين الحضارتين »

ولا يستطيع الأثرى إلا أن يكون عنها صورة من واقع آثارها ومخلفاتها تظهرها بأنها كانت طبقة من الفقراء والمعدمين عفوية التفكير ، ممزقة وحائرة بين عقيدة المصريين الدينية وللكهنوت الهلليني ، بين آلهة النيل الزراعية العليية ، وبين مجمع الأولمبوس النظرى المجرد كما يتضح أن هذه الطبقة لم تكن متحذلقة أو على قسط كبير من الثقافة والتعليم ولذا آثرت أن تطلق لسجيتها العنان وتبتعد عن التفلسف والتعقيد وتحميل العقل أكثر مما ينبغى ولذا أولت ظهرها لفلسفة الديانية الهللينية المعقدة والأصول والأساطير وكذلك فعلت بتعاليم الكهنة المصريين وبشعائر المعبد المصرى الصارمة والمركزية فتركت العبادات ذات النظريات الكهنوتية وآثرت أن تتجه إلى الديانة «العملية» والبسيطة والتى تنتقى نماذجها من واقع الحياة اليومية الشاقة بهدف تخفيف آلام الحياة عن الإنسان المعدم بإغرائه للانغماس فى الغيبيات والغموض.
ولما كان اهتمام الإنسان وقلقه يتركز أساساً فى «المادة» التى بها يملأ بطنه ويكسى جسده فقد هدفت ديانة هذه الطبقة الفقيرة إلى النماء[1] Fertility وكرست شعائرها لزيادتها سواء فيما يختص بالمحاصيل الزراعية أو قطعان المواشى والأغنام أو حماية أبنائها من خطر أمراض مصر الحارة وذر العقم عن النساء وقد آثر سير هارولد بل[2] Harold Bell أن يطلق عليها اسم الديانة الشعبية[3] Popular Religion أو كما يسميها العلماء الألمان Voiker Religion ولذا يلاحظ المتخصص فى الآثار اليونانية الرومانية اختفاء الآلهة البعيدة عن الفائدة المادية العملية والتى كانت يوما ما تصول وتجول فى الفكر الدينى الهللينى وبقى منها فقط من كان له فى خدمة النماء والمادة دور يلعبه

(١) cf. Archiv für Papyrus forschung, 8, 1927, pp229–236f.

(٢) cf. J. E. A. Vol XXIII, (1937), p. 146 F; VolXXXIV, 1948, p. 82 FF. (H. G. Bell).

(٣) cf. Annuaire du musée greco-romain d'Alexandrie, (Par. A. Adriani) Alexandrie (1940–50) I p 28 ff.

ويظهر ذلك واضحا وجليا إذا ما استعرضنا مجموعة القرائن الطبيعية الريفيــة أو التى يطلق عليها الأغريقيون ـــ ربما خطأ ـــ المصروبونانية Graelo-Egyptian كذلك تعكس الحفائر الأثريه فى المواقع الاغريقية صورة واضحة للطبقات الثلاث التى سبق الحديث عنها وسوف أختار نموذجا عملياً من إحدى حفريات الأثرى الإيطالى إدريانى Achille Adrian مدير المتحف اليونانى الرومانى السابق فى منطقة نائية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ما بين الإسكندرية وكوم سمدى (كانوب القديمة) لقد أزاح هذا العالم الرمال عن محراب صغير عثر فيه على مجموعات من القرابين الدينية الكثيرة موجودة جنبا إلى جنب والتى أمكن تصنيفها إلى ثلاث مجموعات :

١ — قرابين إغريقية فكرا وفناً zation in Idea and ومعظمها مقدم للآله الإغريقى «هرمس» Hermes وهو رب الاغريق المحافظين لأنه أكثر الآلهة الإغريقية أغرقه ولأنه لم يمتزج بإله شرقى آخر .

(ب) قرابين مصرية فكراً وفناً ويأتى على رأسها قرابين الإله «نفـــرتوم» Nephertoum المرادف تماما من ناحية المكانة والجوهر للاله الاغريق «هرمس» .

(ج) قرابين كثيرة منها ماهو شرقى الفكرة وإغريقى التنفيذ مثـــل قرابين الربه إيزيس والربه غستار Astar أو ممزوجة الفكرة والتنفيذ معاً مثل قرابين الإله ايروس ـ هاربوكراتيس Eros Harpoerate

من الواضح إذا أن المجموعة الأولى تمثل الطبقة الأولى، والمجموعة الثانية تمثل الطبقة الثانية ، والمجموعة الثالثة تمثل الطبقة الثالثة .

كان على أن أستهل البحث بتلك المقدمة قبل أن أطرق الموضــوع الأساسى الا وهو عبادة غرقى النيل كظاهرة دينية يجب إرجاعهما إلى الدوافع العامـــة لأنها لم تولد عفوا أو مجردا بل هى ظاهرة ذات أصول وإحدى الظواهر الدينية العامة ، مذكراً القارىء بفكرتين يجب أن تكونا فى ذهنــه قبل الاسترسال فى قراءة البحث أولهما ازدواج الشخصية الحضارية لمصر فى أول الأمر ثم تثليثها فيما بعد ، وثانيهما سيطرة القصر الملكى البطلمى ومن بعده حقد الحاكم الرومانى على المؤسسات الدينية ،

وكما قلت كان الاغريق رجال الملك وحاميهم فى أرض لا يرحب أهلها أساساً بهم وحرصهم على تأييد سياسته الدينية (حتى ولو كان ذلك على حساب عواطفهم الدينية الدفينة بالرغم من كرههم لما هو غير يونانى ويتمثل ذلك فى قبولهم عبادة سيرابيس Sarapis) ويقابل ذلك ازدياد سلطة المعبد المصرى ووجود كهنة على استعداد أن يرضوا الملك البطلمى أو الامبراطور الرومانى مقابل الحصول على امتيازات وحقوق وكانوا على استعداد لتنفيذ وفلسفة أى فكرة سياسية أو شخصية يبغيها الملك أو الامبراطور وتحويلها إلى عبادة ذات قواعد وشعائر. بين هاتين الفئتين انحصرت فئة ثالثة لها الغالبية وهى فئة الفلاحين الإغريق المتمصرين أو المصريين المتأغرقين والتى طحنتها الحياة القاسية فانصرف عن العبادات الرسمية المتقعرة وراحت تبحث عن شعائر شعبية بسيطة تشبع بها أمانيها النفسية وتهدف إلى المادة والنفعية خاصة فى مجال الخصب والنماء. تلك هى التربة التى بذغت فيها الديانات والشعائر فى مصر فى العصر اليونانى الرومانى.

من الأمانة العلمية أن أعترف أنى لست أول من حاول الكتابة عن هذا الموضوع فقد سبقنى إليه بعض الدارسين البارزين فى مجال الدراسات المصرية القديمة ولكنه لم يعالج بالتفصيل من قبل المختصين بالدراسات اليونانية والرومانية ولما كنت غير متخصص فى المجال الأول فإنى سوف أكتفى بعرض الآراء المختلفة لمن عالجوا هذا الموضوع من أساتذة الدراسات المصرية ثم أعالج فكرة عبادة الغرقى فى مفهوم الإغريق وبعد ذلك تجرى دراسة مقارنة نستخلص فى النهاية ما نريد أن نصل إليه.

من الواضح أن عبادة غرقى النيل كانت من ابرز العبادات الشعبية فى مصر القديمه والتى انبثقت من العبادة الرسمية للاله (١) أوزيريس والتى قويت أثناء حكم البطالمه ووصلت إلى قمتها كعباده شعبيه أثناء حكم الرومان لمصر(١). ولكن هذه الدراسة أصبحت فى حاجة إلى إعادة النظر بعد ظهور أدله أثرية يونانية مصرية مثل

---

(١) Mustapha El - Amir :, The Cult of Hryw at Thebes in the Ptolemaic Period, in Journal of Egyptian Archaeology,

مقام الفتاة الأغريقية ايسيدورا الذى عثر عليه فى مدينةهرموبوليس Hermopolis فى تونا الجبل ومنا أثاره النقش الذى عثرعليه هناك . والذى سوف نتعرض له بالتفصيل فيما بعد ، وكذلك بعد العثور على واجهه ضريح أخر لفتاه إسمهـا اسكسلبياس أيضاً شهيده الغرق فى النيل . إذا أصبحت فـكره تألية غرقى النيـل موضوعايهم الديانه اليونانية الشعبية فى مصر بقدر مانهم الديانه الشعبية المصرية الوطنية . لقد أحسست بعد قراءتى لما كتب عن هذه الفـكرة سواء من وجهة النظر المصرية الوطنية أو من وجهة النظر الأغريقية البحته أن هناك حلقه مفقودة وهى دراسة هذه الظاهرة على ضوء الواقع الحضارى لمصر فى العصر اليونانى الرومانى وخاصة من وجهة نظر طبقه الفلاحين الأغريق التى نشأت فى مصر والتى سبق الحديث عنها . وفى بحثى هذا سوف أتعرض لفـكرة تألية غرقى النيل من وجهـة النظر المصرية كقارىء مجتهد ولست كمتخصص وبعد ذلك أتعرض لنفس الفـكرة من وجهـة النظر الأغريقية ثم نلقى أضوء على هذه العبادة خاصة بعد غرق فتى الأمبراطور الرومانى هادريانوس فى النيل أثناء رحلة الأمـبراطور النيلية إلى مصر العليـا لأن عبادة الفتى الغريق انتينووس (Antinoos) تبلورت عقب هذا الحادث .

عالجت العالمة مارجريت موارى Margaretle Murry فـكرة عباده الغرقى فى مقال شيق أشارت فيه إلى أهمية الماء فى المجتمعات الزراعية وإلى اهتمام الإنسان به لأنه أساس كل شىء حى . كما أشارت من ناحية أخرى إلى محـاولات المجتمعات الزراعية البدائية لتجسيد إله للماء سواء فى شكل بشرى anthropomorphic أو فى شكل حيوانى Therimorphic . وذلك لأن الإنسان حرص على هطول الأمطار وفيضان الأنهار بنفس القدر التى خاف من أزديادها نظراً لما قد تحدثه من كوراث وخسائر ولما كانت مصر صحراء لاحياة لها إلا بالنيل فقد كان من الطبيعى أن يلعب النيل دوراً أساسيا فى الديانه المصريه (١) . كما أشارت هـــذه العالمة إلى بحث المؤرخ

(١) M. Murry : . «Cult of the drowned in Egypt», Zeitschrift Für Aegyptisch Sprache, LI – LII (1914--15) pp 127–135. (p 133).

بلوتارخوس الشهير عن أسطورة إيزيس وأوزوريس والذى ذكر فيه أن أوزوريس عبد تحت اسم الماء المتدفق Osiris efflux [١] كما ذكر أيضاً أن الكهنه المصريين كانوا يحملون جرارا مملوءة بمياه النيل فى مقدمة إستعراضاتهم الدينية ويلقون بالماء يمنه ويسره وهم يطلقون صيحات عالية وكأنهم قد عثروا على أعضاء جسد أوزوريس الغريق فى النيل [٢] . وأوضحت مارى السبب الذى جعل المصريين يحرمون أكل كل مايعيش فى النيل كالسمك وفرس النهر والتماسيح بل واعتبر بعضها مقدساً [٣].

وقد أشارت أيضاً إلى تأثر الملك بهذه العبادة لأن — كما وضح الأستاد الدكتور الأمير فى مقالته — المصرى أحس بأن الآله بعيد عنه ولكن الحاكم قريب منه ذى أثر فعال ومحسوس لديه [٤] فضلا على أن الملك كان سليل الآله بحكم العادة . ولذا إرتبط أوزوريس بالملك كرمزين للماء والنماء كما وضح العلامة جريفت أن أوزوريس والملك إرتبطا بالنجم Sothis (الشعرى) لأن هذا النجم كان يظهر وقت بداية الفيضان وبداية السنة الزراعية بل وأن هذا النجم كان يصطحب روح الملك عندما تغادر الأرض إل السماء [٥] .

وخلاصة القول أن أوزيريس والنجم Sothis نجم القرى الذى هو بداية السنة المصرية الزراعية الجديدة كانوا ثالوثاً مترادفاً وأن هذه الفكرة أدت إلى وجود فكرة البعث السنوى فعندما تنتهى الدورة الزراعية وتدفق البذور فى التربة تعود الحياة مرة أخرى مع الربيع [٦] ومن الواضح أن هذه الفكرة قد أشار إليها

---

(1) De Iside et Osiride, XXXII 2; XXXIII, I; XXXIV, 2 also d, J. Gwyn Griffith, The Origius of Osiris, (Berlin 1966) pp. 9-100.

(٢) ibidem XXXIX, 5.

(٣) Ibip VII 2 ; XXX 11,2.

(٤) J. E. A, loc, cit, p 84.

(٥) cf J. Griffith op, cit p, 99—100

(٦) Criffith op. :

فريزر Frazer فى عمله العظيم « الغصن الذهبى[1] » وأخيراً يلفت نظرى ما ذكرته مارجريت مارى عن فكرة تألية البشر وخاصة الملوك أو الأبطال إذا ما ضحوا بأنفسهم فى سبيل شعوبهم خاصة إذا افتدوا أنفسهم وقدموها قرباناً من أجل دفع كارثة محققة عن شعوبهم كما ذكرت مارى أن تقديم النفس قرباناً عن طريق الغرق فى الماء كانت شائعة فى العالم القديم . كما ذكرت أن عادة أوزيريس كانت تقوم أساساً على تضحيته بنفسه من أجل رخاء مصر[2] ولهذا كان يحتفل كل عام بموت أوزيريس حيث يجرى على ضفاف البحيرات المقدسة فى المعابد عرض تمثيلى Passion play يظهر فيه الكهنة وهم يبحثون بجنون عن أوزيريس المفقود ويخبرنا هيرودوت أن ذلك كان يحدث فى مدينة صالحجر Sais كل عام[3] .

والآن نعود ونسأل لماذا قدس الغرقى عند المصريين من الواضح أن الديانة المصرية الشعبية رأت أن للغرقى الذين يموتون فى النيل — الذى هو روح أوزيريس العظيم — ينالهم شرف التأليه وتصبح أجسادهم مقدسة (neoyes hemitheoi) ويروى لنا هيرودوت أن جثمان الغريق كانت غاية فى القداسة لذلك لم يكن يسمح لأحد سوى الكهنة وحدهم بلمسها فكانوا يعدونها لكى تدفن أينما ألقى النيل بالجثة . كما كانت الجثة تلقى تكريماً معيناً ومراسم جنائزية خاصة لأن الجثة قد تشبعت بماء النيل ومن ثم بروح أوزيريس رب الخير والزرع والنبات . كما أثار علماء الدراسات المصرية خاصة Criffith عندما علق على ما ذكره هيرودوت فى الكتاب الثانى[4] وكيس Kees وآلان رو Alan Rowe[5] ثم الأمير فى مقاله

---

(1) cf J. Fraser, Sir;. Golden Bough, Vol V (Adonis, Athis and Osiris) p. 296 ff.

(2) Murry. loc. cit p 1 29 ff.

(3) Herodotus, II, 170.

(4) Herodotus, II, go = Criffin in Zas, 46 p. 132.

(5) cf. Alan Rowe, Newly identified Monuments in the Egyptian Museum, Showing the deification oJ the Dead together with brief details of Similar aspects everywhere, A. S. A. E, Vol XL, (1904) pp 1—67.

الذى أشرنا إليه[1] إلى اللقب الخاص بغرقى النيل. وأوضح الأستاذ الدكتور الأمير أن هناك لفظان فى الوثائق الخاصة بالشعائر الجنائزية يشيران إلى غرقى النيل وهما hry و hsy وتوصل الأستاذ الدكتور الأمير إلى أن hry تعنى التقديس بمعنى « سيدنا » و hsy تعنى « الشهيد » . وقد وضح ذلك فيما يتعلق بمعبد دندور Dendur فى النوبة والذى أقيم لأخوين ماتا غرقا وهما بيتيسى Peteisi وبيحور Pihor فى العصر الرومانى[2] . كما أشار جريفث إلى أن الغريق المصرى كان يعطى لقباً مؤلهاً مثل P-hsy أو Shay en Kent وهو نفس اللقب الذى أعطى للامبراطور الرومانى أنتونينوس بيوس Antoninus Pius والذى يرادف الكلمة الأغريقية الشهيرة Agathodaimon Aegyptou أى بركة مصر وتؤيد الرسومات المصرية ذلك عندما تصور الغريق hsy وهو يضع فوق رأسه الحية المقدسة Uraeus دليل القداسة والأخصاب بل ويرتدون أحياناً تاج أوزيريس نفسه[3] . نستطيع أن نوجز رأى أساتذة الدراسات المصرية — مع تحفظنا على اختلاف بعض وجهات النظر فيما بينهم — أن أوزيريس والنيل أو الفيضان والنجم Sothis والملك ارتبطت بعضها ببعض وبالتالى فإن غرقى النيل ينالون القداسة لتشبع أجسادهم بروح الإله المانح للماء وللنيل ولذا أصبح غريق النيل شهيداً مباركا .

كما أن الروايات اشارت ، فكره تقديم اوزيريس نفسه قربانا من اجل رخاء مصر وهذا خاص بالملوك والأبطال .

أما بالنسبة لبلاد اليونان فالأمر مختلف تماما . إذ أن بلاد اليونان أرض جبلية مقفرة وأن اليونانيين يعتمدون على ركوب البحر أكثر من اعتمادهم على زراعة الأرض ولهذا نجد الروايات تتحدث عن تقديس غرقى البحر أكثر من غرقى الأنهار أو الينابيع . وعلى أى حال يجب أن أشير إلى دراستين إحداهما نظرية

(1) J. E. A., 37, p. 83 ff.
(2) Ibidem p. 84 f.
(3) Griffith, loc cit p. 132 Seg., Murry AZ, loc cit p. 135.

قام بها رتشارد لاتيمور Richard Lattimor (١) عنى فيها بالنظريات والمعتقدات التى تكمن فى نقوش القبور اليونانية واللاتينية واستنتج منها أن الموقع عموما فى نظر الإغريق — أنصاف آلهة وأبطال — بحكم انتقالهم إلى عالم الخلود عالم هاويس المظلم. وأن الموت إذا حاق بالفتاه قبل أن تزف إلى عريسها أعتبر أمراً محزناً ولذا اعتبرت الفتاه عذراء بأنها عروس الموت زيادة فى الإجلال والتدريس وذكر لايتمور فيها ذكر أمثلة عديدة عن مرثيات العذراوات ومن بينها (وهو لايدرى أهمية هذا الرثاء —) رثاء أيسيدورا الشهير — والذى سوف نتعرض له فيما بعد . أما الدراسة الأخرى فهى مقال كتبه زميل باحث فى معهد الآثار التابع لجامعة بون عالج فيه الجانب الفنى للوحات القبور فى أثينا وخاصة شاهد قبر السيده هيجيسو Hegeso (١) وبين فيه كيف أن الشكل الذى صور به الموتى كان مثاليا أعلى من البشر وأن الأردية والأحذية التى كانو يرتدونها هى نفس الأردية والأحذية التى ظهرت بها الآلهة وأكثر من هذا فان الحى يبدو صغيراً بجوار صورة الميت . وخلاصة ماسبق ذكره هو أن الإغريق نظروا إلى الموتى عامة نظرة تقديس وأن عبادة الغرقى قد يمتد جذورها إلى عبادة الموتى الشاملة ولكن هذا لايهمنا كثيراً بقدر مايهمنا تتبع نماذج من التراث الإغريقى عبر الموسوعات الأسطورية بحثا عن عبادة الغرقى .

من أشهر القديسين الغرقى فى الأساطير اليونانية ميليكريتيس Melicretes وأمه إينوو ، يروى لنا الكاتب والرحالة باوسانياس كيف أن الفتى وأمه إحتضن كل منهما الآخر والقيا بنفسيهما فى البحر فغرقا ولما لفظ البحر جثة الأم قرب شاطىء ميجارا إحتفى أهل هذه المنطقة بالجثة وأقاموا لها الشعائر اللائقة ودفنوها معززة مكرمة(٣) . وكذلك فعل البحر بجثة ميليكريتيس حيث لفظها قرب خليج كورنثا (Corinth) . وهناك كان أهل الخليج يحتفلون كل عام بموت هذا الشهيد بصراخ

---

(1) Richard Lattimore, Themes in Greek and Latin Epitaphs, Urbana 1962

(2) Juergen Thimme, «Die Stele der Hegeso als Zeugnis des Attisches Grabkultes» in Antike Kunst, 1964. P 1677.

(3) Pausanias. I 42,8.

جنائزى ثم بأقامة مهرجانات رياضية على شرفه وقد أثارت هذه المهرجانات الجنائزية امتعاض القديس كلمنت (1) St. Clement . ومن أشهر روايات الغرقى القتلى رواية الشاعر الأسطورى أرفيو ـــ س Orpheus الذى روى بأنه نساء تراقيا Thracia مزقته إربا إربا ثم ألقت بأوصاله فى البحر وحمل التيار رأس الشاعر تغنى إلى جزيرة لسبوس Lesbos حيث احتفى بها وبصاحبها الذى أصبح نبيا لفلسفة الأورفيه(٢) .
وبين الروايات الأغريقية أيضاً قصة بولينا Boline الفتاه الجميله التى راح الآله أبوللون يطاردها ولما وجدت أنها لن تهرب منة ألقت بنفسها فى البحر فغرقت وماتت ومن ثم أصبحت مقدسة ومخلدة(٤) . وكذلك تروى الأساطير أن أحد أبناء ليـكيا واسمة جلاد كوبيل Glaucus والذى كان يقود كتائب قومه فى حرب طروادة ألقى بنفسه فى البحر وأصبح إلها له(٥) . ومن أشهر الروايات عن الغرقى المخلدين رواية مرتيلوس Myrtilus سائق عربة الملك إيناماوس Oenomaus الذى بعد أن ندم على خيانته لسيدة بيلويس Pelops ملك بيسا Pisa ألقى بنفسه فى البحر فخلد وأن إشتق إسم البحر الذى غرق فيه من إسمه Myrtoan(٦) . ومن الروايات الشهيرة رواية الملك إيخيوس Aegeus ملك أتيكا الذى ألقى بنفسه فى البحر ظانا أن ابنه لم يعد من كريت سالماً وأصبح إسمه يطلق على بحر إيجه أو البحر الأيجى.
كما يروى لنا التراث الشعبي القديم أن بعض الغرقى يخلدون عن طريق إطلاق أسمائهم على بعض المدن فمثلا مدينة كانوبوس المصرية (كوم سمعدى) قيل إنها بنيت لتخليد ربان سفينة الملك مينالاؤوس Menalaos والذى غرق قرب هذ المدينة ، كما يؤكد سويدنس Suidas(٧) وروفينوس Rufinus أن الماء عبد فى مدينة كانوب (كانوبوس

(1) Exhortationes, 41 ; of Pausanias vii, 22,3
(2) Of M.P. Nilsson in the Oxford Classical Dictionary P.627 Sub Orpheus.
(3) Cf Pausanias, VII, 23,3.
(4) cf. J.H. Rose in The Oxford Classical inSictionary p 388 Sub Glaucus.
(5) cf Roscher lexicon Sub Myrtilos — J.H.Rose.. O.C.D.p.661 Sub. pelops.
(6) Sudas, Lexicon, II, p 239
(7) Rufinus : Ecc. Hist, II, Chapter 26

Canopus) بل أن كانوب اعتبر إلها للماء ، ومن الراوايات الطريفة أن كانوب هزم النارمعبود الكلدانيين بأن أطفأها ومن ثم كان لهذا الإله كهنة اشتهروا بالسحر كما يروى روفينوس، وجدير بالذكر أن بلوتارخوس ناظر بين أوزيريس وكانوب واعتبرهما صنوان من ناحية القدسية والأختصاص . ومن الروايات اليونانية الطريفة رواية الفتى ناركيسوس Narcissus الذى عشق نفسه بالنظر إلى نفسه على صفحة بحيرة لدرجة أنه ألقى بنفسه فيها فمات غريقا ومن ثم أصبح أيضاً ربا للاخصاب والزراعة . حتى الروايات الرومانية ذكرت أن إينياس بطل الأينادة مات غريقا فى نهر نوميكوس Numicus ومن ثم أصبح مؤلها(١) .

كذلك لم تكن فكرة البحث عن جثة بطل غريق غائبة عن التراث الأغريقى وخاصة الدينى . ومن أشهر هذه الروايات ذات الشعائر أسطورة الفتى هيلاسى Hylas . كان هيلاسى فتى هيراكليس بطل الأغريق وقائد رحلة السفينة أرجوس إلى كولخيس للحصول على الفروة الذهبية ؛ ذهب الغلام مع مولاه فى هذه الرحلة وعند ميسيا Mysia فى آسيا الصغرى توقفت تجارة السفينة للراحة وتناول العشاء وذهب هيلاسى ليملأ أبريق الماء لسيدة من ينبوع قريب وكان هذا الينبوع يقع وسط الأحراش والأدغال المليئة بالزهور وعندما انحنى الفتى ليملأ الأبريق أبصرته حوريات الماء اللاتى كن يسكن فى قاع هذا الينبوع فهمن به حباً ومددن أيديهن له وهن ينشدن أعذب الأناشيد حتى أمسكن بيديه وجذبنه إلى أعماق الينبوع . ولما إستبطأ هيراكليس صبيه راح يبحث عنه وينادى عليه وصاح ثلاث صيحات منادياً إياه بأسمه ويأتى برد الفتى من أعماق الينبوع(٢) . ويروى لنا الرحالة الجغرافى إسترابون أن جماهير غفيرة كانت تخرج كل عام فى مدينة كيوس Kios بآسيا الصغرى يبحثون عن هيلاسى وينادون عليه ثلاث مرات(٣) فى الأحراش المحيطة بالمدينة (٤) . وكما يقـــول الشاعر الهللينستى الشهير ثيوكريتوس

---

(1) fc. Livy. 12. 6 : Pliny Hist. Nat. 3. 56; Aeniad, 1, 259, '4
(2) cf. M.S. Khafaga : Hylas p67 f _
(3) cf Strabo xII, 4,3
(4) cf Theocritus. Idyl. II, xIII

أن هذا الفق أصبح « مباركا » بعد خطفه على أيدى حوريات Theocritus الماء كما أنه أصبح ربا للزراعة والخصب والماء والنماء مثله فى ذلك مثل أوزيريس وكاتوب . يتضح من هذه الرواية أن وجهه النظر الأغريقية تؤله الغريق لابحكم خلوده فى عالم الموتى فحسب لأن حوريات الماء قد خطفته فنال بذلك شرف التقديس ، عندئذ يصبح الغريق مقدساً ولاسيما إن كان فتاة كما فى حالة إيسيدورا واسكلبياس اللتين أصبحتا من بين حوريات الماء ولهن نفس القداسة والمكانة .

والآن لنتعرض لايسيدورا Isidora الفتاة العذراء التى خلدها والدها بمرثياته على حوائط ضريحها والذى عثرت عليه بعثة كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٣١ فى تونا الجبل (Hermopolis) الذى يقع ضريح السيدورا بالقرب من مقبرة بتوزيريس Peto الشهيرة . ويعرف علماء النقوش اليونانية إيسيدورا جيداً من خلال ثلاث قطع رثاء صيغت شعراً على واجهة البوابة الداخليـــة (Prothyron) المؤدية للمقام نفسه Thalamos وقد قام العالم الفرنسى Graindor بنشر نصوص هذه المرثيات لأول مرة فى مجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية[1].

وما أن ظهر النقش حتى تلهفه العلماء بالدراسة والتفسير وقد كلفهم ذلك جهداً كبيرا نظرا لسوء الحالة التى عليها وقد أمكن قراءة وترجمة اثنين من هذه النقوش أما الثالث فهو فى حالة يصعب معها قراءته وترجمته . يقول النقش الأول الذى يجىء على لسان العذراء الغريقة « إن الذى أقام لك هذا الضريح يا إيسيدورا هن فى الحقيقة الحوريات بنات الماء . لقد بدأ رسم بنات النيل ليهبنه غريقا كالذى يحتويه فى أعماقه والذى يستطيع أن يراه فى قصر ابيه ، إن الحورية كريناًيا التى خطفت الفتى هيلاسى ليصبح زوجاً لها قد أقامت العمودين الذين يحيطان بالواجهة حيث ترفع بنفسها القبة دون حاجة إلى أعمدة وتزينها بالنجوم أما حوريات الجبل Oreiades فقد اخترن هذا المكان المناسب ليقمن عليه ضريحاً لم يبن مثيله لأحد قط[2] » أما النقش الثانى الذى جاء يقطر حزناً وعلى لسان أبيها أيضاً « لا . لن

(1) B.I.F·A.O.. xxxlll, 1932, p98 f.
(2) cf B.I.F.A.O loc cit p. 98.

أقدم لك لأضاحى وأنا أبكى يا أبنق لأنك بعد أن غرقت أصبحت ربه . مجدوا إيزيسيدورا وقدموا لها القرابين فقد خطفتها حوريات الماء وأصبحت هى نفسها حورية ، سلام (عليك يا أبنق) فسوف يلقبونك بالحورية وسوف تقدم لك ربات فصول السنة (Horai) الهدايا عندما يكتمل عام إيزيس (Sothis)(١) .

يتضح من هذين النقشين وجهة نظر الديانة الشعبية اليونانية فى تأليهه الغرقى وهى تختلف عن وجهة نظر الديانة المصرية الوطنية قليلا . وبصرف النظر عن تأثير الواقع المصرى على عمارة الضريح وبالرغم من تردد إسم إيزيس والسنة المصرية Sothis إلا أن عائلة السيدورا تبدوا عائله إغريقية خالصة حافظت على ثقافتها وديانتها الأغريقية بالرغم أنها عاشت فى صعيد مصر فالرثاء مكتوب بالشعر اليونانى الموزون واللغة سليمة واضحة متأثرة بشعر ثيوكريتوس الرثائو والشعراء الأبجرامات السكندريين وجدير بالذكر أن أشيد إلى تقدير الأثريين لعمر هذا الضريح إنهم يتفقون أن مهظره العام يشير إلى أنه أنشأ إبان القرن الثانى الميلادى بين عصرى هاوريان وأنتنينوس بيوس Antoninus Pius (٢) . حقاً إن الأثرى ليعترف أنه قد يواجه مواد أثرية يونانية تدل على وجود أسر أغريقية تمسكنت بشدة بشخصيتها وثقافتها حتى ولو فى أعماق الريف المصرى إلا أن الدلائل الأثرية العامة توضح بجلاء إزدياد عدد الأغريق المتمصرين وأن الحضارة اليونانية فى مصر بدأت فى أخذ طابع غريب عن ذلك الذى كانت عليه سواء فى سوريا أو فى بلاد اليونان.

وفى معرض الحديث عن ذلك أود أن أشير إلى نقش وجد على قبر فتاة صغيرة إسمها إسكلبياس Asclepias من العصر الرومانى : عثر عليه فى سقارة (٣) بالقرب من السيرابيوم هناك ثم نقل بعد ذلك إلى اللوفر فى فرنسا . وجد

(1) R. Lattimore, op cit p. 101
(2) cf B.I.F.A.O p 98

(٣) ربما كان لغرق إيسدورا قرب سقارة تأثير على تأليها لأن الآله بتاح ارتبط بالغرق لأنه كان مسيطر على المنطقة النيلية القريبة من سقارة ، والآله بتاح مرتبط بأوزيريس والفيضان والزراعة . انظر

Griffith, op. cit p. 105.

النقش على لوحة تعلو الضريح الذى يحوى مذبح صغير مقام لتقديم القرابين لها .
يقول النقش : لقد رحلت أسكلبياس غريقة وعمرها خمس سنوات[١] . إن اللفظ
الذى ذكره النقش هو « hesies » ومن الواضح أنها كلمة غير أغريقية[٢] بل كلمة
مصرية مأخوذة أعطيت الشكل الأغريقى التى يعنها اللفظ المصرى ysu الذى كان
يعطى لشهداء الغرق فى النيل[٣] . ولقد انتشر هذا اللفظ حتى غطى على اللفظ
الأغريقى الصحيح لكلمة غريق وهو (Hypobrucheios) . ومن المقطوع به
أن هذه الفتاة بعكس السيدورا كانت تنحدر من أسرة أغريقية متمصرة — وإن
شئت فقل — طبقة الأغريق المتمصرين . والتى قويت شوكتها فى الأيام الأخيرة
للحضارة اليونانية إبان العصر الرومانى . لأن نقش اسكلبياس مختصر لا يتعدى
سوى أربعة كلمات (Asklepeis Le esies apelthe) كما أن النقش استخدم
لفظاً مصرياً ومن ثم فإنه من الممكن أن يكون أهل الفتاة قد أخذوا بالفكرة
المصرية لأنهم أقرب إليها من الفكرة الأغريقية .

وعلى مسافة ليست بالبعيدة من ضريح إيسيدورا فى جبانه هرمو بوليس تقف
أطلال مدينة انتينوى Antinoe أو انتينو بوليس Antinoupolis والتى يرتبط إسمها
بأسم انتينووس Antinoos فتى الأمبراطور هادريان والذى غرق فى النيل قرب مكان
هذه المدينة . من الطبيعى أن نربط بين غرق الفتى وبناء المدينة ولكن الباحث
يشك فى أن يكون بناء هذه المدينة كان نتيجه مباشرة لتخليد الفتى الغريق . لأنه
يبدو أن فكره إنشاء مدينة أغريقيه خالصه كانت تدور فى مخيله الأمبراطور
هادريان الذى عرف بعشقه وبغيرته على الثقافة الهللينية خاصة فى وادى النيل حيث
أبدى الأمبراطور قلقة إذ أحس أنها تدهورت . والحق يقال أن الكتاب الزائرين
من الأغريق والرومان لم يتوقفوا عن التفكير بصوت عال بخصوص الخطر الذى
كان يتهدد الحضارة اليونانية . فمثلا ضمن لنا المؤرخ تيتوس ليفيوس خطبه القاها

(1) Cf. Alan Rowe in A.S.A.E, XL. 1940, p 26 fig 9,
(2) ibidem, p. 26-27.
(3) cf. EL-Amir, loc. cit p.83

قائد رومانى فى عام ١٨٩ ق م مانيليوس Gaius Manilius قال فيها « لقد تدهور الحال بالمقدرونيين (١) فبعد أن كانوا يمتلكون الاسكندرية ومملكة سليوكس وبابل والعديد من المستعمرات المنتشره فى الأرض إذ بهم يصبحون سوريين وباريثين ومصريين. كما عبر إسترابوان عن عدم رضائه عن حال الأغريق فى مصر عندما زارها بقوله « على أى حال لقد إستاء بوليبيوس Polybius (من قبلى) من الأحوال العامة فى مدينة الأسكندرية عندما زارها ويقول أن كان يسكن الاسكندرية ثلاث فئات: أولها المصريون الذين ينحدرون من سلالة السكان الأصلين وكانوا ذوى أمزجه متقلبه وغير معتادين على حياة المدينة ، يلى ذلك طبقه الجند المرتزقة وكانوا غلاظ السلوك كثيرى العدد ...، وثالثهما قبيلة السكندريين وهم أيضاً لم يكونوا شديدى الاعتياد على نظم الحياة فى المدينة للاسباب ذاتها ولكنهم على أى حال كانوا أفضل من الطبقتين السابقتين فبالرغم من أنهم كانوا طائفة مختلطة إلا أنهم كانوا ينحدرون من أصل إغريقى وعلى بينه بالعادات الأغريقية (٢) »

إننا لا ننكر أن البطالسة الأول حاولوا إتباع سياسة الإسكندر فى نشر الحضارة اليونانية عن طريق تأسيس المدن الأغريقية فقد أنشأ بطليموس الأول مدينة بطلمية Ptolemaiis فى مصر العليا (مكانها الآن بلدة المنشاة) بقصد جعلها مركز طارد للحضارة فى هذا الجزء البعيد من مصر كما أنشأ خلفاؤه العديد من المدن الصغرى فى إقليم الفيوم وعلى شاطىء البحر الأحمر وأطلقو عليها أسماء إغريقية بحتة، ولكن أسماء هذه المدن بالرغم من أنها كانت تحمل كلمة « بوليس Polis» فى نهايتها إلا أنها لم تكن سوى قرى كبيرة بها إدارة إغريقية ونسكنها طائفة إغريقية كبيرة . هكذا كان حال المدن اليونانية فى مصر باستثناء الاسكندرية وبطلميه ونقراطيس (٣). ويلفت العلامة « بل » نظرنا إلى أنه بمقارنة مساحة مصر من ناحية وحجم الأغريق الذين

(1) Livy, xxxviii
(2) cf Strabo, xviii, 797
(3) cf Victor TeherikoWer, Die Hellenistischen Stadtnruenden Von Alcxander dem grossen bis auf Roemerzeit, Philologus, Suppl. Band xlx, Heft 1(Leipzig 1927 ; pp. g- 15

هاجروا إلى الشرق كله من ناحية أخرى يتضح لنا أنها كانت أقلها بالنسبة لعدد المدن اليونانية فيها(١) . ونتيجة لذلك فقد تدفقت جموع الأغريق إلى الريف المصرى وعواصم الأقاليم المختلفة حيث تعرضوا لموجة شديدة من التمصر والاختلاط وبدأوا يفقدون ثقافتهم الهللينية رويداً رويداً حتى أصبح معظمهم « فلاحين مصريين » .

لقد أحس الأمبراطور الرومانى هادريان بأنه رسول حركة إحياء الثقافة الهللينية فقام بزيارات عديدة إلى بلاد اليونان وأغدق على أهلها بالامتيازات وبنى المعابد ورمم الآثار وأشرف على المهرجانات والأعياد الهللينية وأغرق نفسه فى الثقافة الهللينية . وفى عام ١٣٠ ميلادية أبحـر هادريان من سوريا قاصداً مصر تصحبه حاشية كبيرة وزوجته سابينا Sabina وكذلك وصيفتها جوليا بالبيللا Julia Balbilla. والفتى أنتينوس Antinoos . ويبـدوا أن هادريان استاء كما استاء استرابون وبوليبيوس من قبل لحال الأغريق فى مصر فأحس بضرورة إنشاء مدينـة أغريقية خالصة يكون سكانها من الأغريق الخالصين وتكون مركز إشعاع للحضارة الهللينية ومركزاً لمقاومة زحف الحضارة المصرية عليها. ويخيل إلى أن الامبراطور هادريان كان سينشأ المـدينة سواء وقع حادث الغرق أم لم يقع(٢) . أبحر هادريان فى رحلة نيلية فى الثلاثين من أ كتوبر عام ١٣٠ ميلادية للتفرج على آثار مصر العليا وقرب قرية الشيخ عبادة الحالية غرق الفتى ، فسادت تكهنات وأقاويل كثيرة حول قصـة غرق الفتى سوف نشير إلى بعضها فيما بعد، ولـكن الذى لاشك فيـه أن الامبراطور حزن حزناً شديداً ، إذ يروى لنا المؤرخ سويتونيوس Suetonius أن الامبراطور حزن حـزناً شديداً وناح على فتاه كما تنوح النساء وأغلق على نفسه باب حجرته لمدة أيام حتى أبصر فى أحد الأيام نجماً ساطعاً فى السماء فأعلن أنه روح أنتينوس وزف إليه خدمه البشرى بصـدق رؤيته وهرول خارج حجرته وأمر أن تنشأ عبادة للفتى وأن تنشأ مدينة تخلد إسمه

---

(1) H. I. Bell in Journal of Roman Studies, xxx (1940) p 1397 « Amtinoopolis : A Hadrianic Foundotion in Egypt ».

(2) H. I. Bell. loc ict p 1387.

على صفحة النيل الشرقية فى مقابل Hermoupolis . ومن الغريب أن انتشرت عبادة هذا الفتى فى وقت قصير، فى مدينة مانتينيا Mantinea بإقليم أرجوس طبقاً لماورويه الرحالة باوسانياس أنشأ الامبراطور مركزاً للعرافة باسم هذا الفتى ومعبداً لممارسة الشعائر الدينية الخاصة بعبادته وجعل لها مهرجانات رياضية سرعان أن امتدت إلى أثينا واليوسيس مركز العبادات السرية الزراعيـة وخاصة تلك التى كانت ترتبط بالامـبراطور والإله تريتوليموس T rprolemN s الضلع الثالث لعبادة ديمتر وبرسيفو فى ربات القمح(1) .

وفى عديد من المدن اليونانية والرومانية أقيمت التماثيل لهـذا الفتى حيث كان يبدو جميلا ، جاداً وحزيناً بل كان يظهر أحياناً وهو يحمل بعض خصائص الآلهة فأحياناً يظهر مثل جانيميد Ganymede الفتى الطروادى التى اختطفه زيوس ليجعل منه ساقيه ، وحينما يظهر مثل هرميس Hermes أو ديونيسيوس Dionisuis ، وأغلب الظن أن الامبراطور هادريان حرص على أن يظهر مثل البطل هرا كليس فأعتبر أنتينوس ماثلا لهيلاس ولذا من الممكن أن تـكون عبادة الأول قد قامت على نفس الأسس التى قامت عليها عبادة الفتى الأخير . ولما كان كاتب رثاءاً يسيدورا قد أشار إلى موت هيلاس وشبة إيسيدورا به بينما لم يذكر شيئاً عن أنتينوس رغم شده الشبه بين هذا الأخير وبين الفتاه الغريقة ، من الواضح إذا أن إيسيدورا ماتت قبل أن تعرف عبادة أنتينوس وإلا لذكرت فى الرثاء . خاصة وأن الفتى قد غرق بالقرب من مكانها وأنشأت مدينة كبيرة له هناك ومن الصعب أن نجد تفسيراً لعزوف كاتب الرثاء عن ذكر شيئاً ما عن أنتينوس إذا كان قد مات قبل موت إيسيدورا .

من المحتمل أن يكون فـكرة عبادة أنتينوس قد قامت على نفس الأسس التى قامت عليها عبادة هيلاس وهى أن حوريات المـاء أو النيل قد جذبته اليهن بعد أن

---

(1) Yita, 14,5

(٢) وليس من المستبعد أن يكون انتينوس قـد اعتبر مماثلا لهذا الآله .

(2) cf B. W. Henderson : The Iife and Principate of Emperor Hadrian, London 1923, p 132f

همن به حباً . هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فمن الواضح أن الكهنة المصريون قد فعلوا شيئاً لارضاء الأمبراطور الرومانى نحو إيضاح الأسس من وجهة عقيدتهم الوطنية ولو بالدس والأفتراء لاقامة عبادة لهذا الفتى . خاصة وإن كان هناك دائماً فريق من الكهنة المصرين الذين كانوا دائما على استعداد لخدمة السياسة الدينية للملوك والأباطره . ومما لا شك فيه أن الكهنه المتلهفين شبهوا نواح الأمبراطور على صوت فتاه بنواح إيزيس على زوجها الغريق ، بل وذهبوا إلى أبعد من هذا عندما إدعوا أن أنتينوس قدم نفسه بدلا عن مولاه ليرد عنه كارثة كانت محققة تماما مثلما روى أن اوزيريس قد فعل من أجل شعبه، وهذه فكرة مصرية ولابد أن يكون من دسها فى الأسطورة عليم بالديانة المصرية . هكذا وجد الكهنة المصريون أرضا ثابته لإقامة عبادة مصرية من مادة إغريقية لأول مرة . ويؤيد ذلك العثور على بعض تماثيل للفتى أنتينودس وهى فى الزى المصرى وفى روما عثر على نقش هيروغليفى فوق مسلة مصرية أقيمت تخليداً لانتينوس ردد فيه الكاتب وجهة النظر المصرية[1].

(1) cf Erman : Die Relighin der Aegypter, 1934 p 4237.

المكابيون

بقلم

دكتور فؤاد حسنين

أو « الحشمونايم » أسرة يهودية لعبت دوراً خطيراً جداً فى أحداث الشرق الأدنى التاريخية فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد . أما لفظ « مكابى » فقد يكون لقباً بمعنى « قاذف المطرقة « حشمونا » Asmonaios أو هو اسم الجد الأكبر « شمعون حشموناى » المؤسس الحقيق لهذه الأسرة التى توارث أفرادها الملك وجعلت من لفظ « حشموناى » لقباً لسائر ملوكها ابتداء من « أريستوبول Aristobul » حتى آخرهم « أنتيجونوس Antigonus » وقد مهد لظروف هذه الأسرة فى التاريخ « يهودا المكابى » مؤسس الأسرة اليهودية الأولى إبان قيام المعبد الثانى أعنى الفترة الممتدة من عام ١٤٠ حتى ٣١٧ ق . م . سائراً فى الطريق الذى أعده « متتباس » وابنه يهوذا من قبل .

ولعل الحدث الهام الذى عاون على ظهور هذه الأسرة المكابية هذه الحرب الخاطفة التى قضى بها الاسكندر المقدونى على الدولة الفارسية فبسط سلطانه على آسيا الصغرى وسوريا وفينقيا كما استولى على « صور » بعد حصار دام سبعة شهور وغزه بعد شهرين أو كثر قليلا (أغسطس ونوفمبر عام ٣٣٢ ق . م) ثم مصر بعد دولة يهوذا حيث خرج عدد كبير من اللاويين والكهنة واستقبلوا الاسكندر مبايعين مقدمين له فروض الولاء والطاعة وعلى رأسهم كبير الكهنة « يدوا » وحفيده شمعون . وتحدثنا القصة أن الاسكندر لما استقبل هذا الجمع تحققت رؤية رآها فى مقدونيامفادها أن الكاهن الأكبروصحبه سيستقبلونه ويبايعونه وهكذا نجد أن أول لقاء بين اليهودية واليونانية كان لقاء موفقاً بالرغم من أن اليونانية وفدت تفيض قوة وعظمة بينما اليهودية عبرت عن الضعف والاستسلام وأطلق على دولة يهوذا الممتدة

بين جبال لبنان شمالا ومصر جنوباً (سوريا الجوفاء) Coelesyrien Andromac os تفرقة بينها وبين سوريا العليا وعين الاسكندر « أندروما خوس حاكما عليها واتخذ مدينة السامرة عاصمة له .

إلا أن هذا التعيين لم يلق قبولا عند السامريين الذين وجدوا فى اختيار السامرة قاعدة للحاكم اليونانى تكريماً لليهود خصوم السامريين وأعداؤهم الألداء ، لذلك ثاروا على « اندروما خوس » واعتقلوه وألقوا به فى النار فى ربيع عام ٣٣١ق.م. فأثار هذا العمل حفيظة الاسكندر وغضب غضباً شديداً وقرر أثناء عودته من مصر المبادرة إلى السامرة لينتقم من هؤلاء الذين سولت لهم أنفسهم اقتراف هـــذا الاثم العظيم فقتلهم شر قتله وعين حاكماً جديداً وهو « ميمنون CoumMe » كما اتخذا من مدينة السامرة وطناً للمقدونيين وأمعن فى احتقار السامريين وبخاصة لما علم أنهم أعداء لليهود وأغاظه أحسن معاملة اليهود كما أغدق عليهم كثيراً من العطايا مما زاد فى حقد السامريين عليهم .

واشتهر الاسكندر باحترام عبادات وتقاليد الشعوب التى غزا بلادها من اليونان حتى الهند ومن أثيوبيا إلى بحر الخزر . ففى مصر قدس « أبيس » و « آمون » وفى بابل آلهة الكلدانيين فقد كان حريصاً على قيام دولة عالمية تحت صولجانه إلا أن منيته عاجلته شاباً وهو يعمل فى سبيل تحقيق هذه الأمنية وكان ذلك عام ٣٢٣ دون أن يترك وريثاً لأملاكه أو أفكاره لذلك عمت الفوضى البلاد التى فتحها ودبت فيها الخصومات بين قواده وقـــد كان فى استطاعتهم المحافظة على الدولة المقدونية لو اتحدوا إلا أن الأنانية غلبت على خلافائه فقسمت الدولة المقدونية إلى دويلات كل ولاية تحت إمرة حاكم خاص . ففى مصر البطالمة حيث تجـــد بطليموس الأول « سوتير Soter » وقد نجح فى ضم « سوريا » الجوفاء « كوليسيرين » وإقليم يهوذا إلى مملكته ثم هاجم أورشليم واستولى عليها وساق كثيرين من سكانها أسارى إلى مصر من بينهم عدد كبير من السامريين .

إلا أن حليف بطليموس واسمه « أنتيجونوس Antigonos » كان يطمع فى

التغلب على سائر حكام أجزاء الإمبراطورية المقدونية ويبعثها بعثاً جديداً تحت حكمه وبعد عدة سنوات قضاها فى الاستعداد للحرب نشبت معركة « غزة » فى ربيع عام ٣١٢ ق . م . بين ابن « أنتيجونوس » واسمه ديمتريوس Demetrios » وبين بطليموس وقد أبلى فيها أحد اللاجئين إلى بلاط بطليموس واسمه « سلويكوس Seleukos » بلاء حسناً فاعتبر تاريخ موقعة « غزة » بدأ تقويم جديد يعرف باسم التقويم السلوقى أو اليونانى واتخذه اليهود أيضاً تقويعاً لهم واستخدموه زمناً طويلا ، وقد اضطر » ديمتريوس » بسبب الهزيمة الفادحة التى لحقت به فى غزة إلى الفرار شمالا فمكن المنتصر من احتلال جميع البلاد لكن لم يمض زمناً طويلا حتى وحد « انتيجونوس » وابنه « ديمتريوس » جيوشهما واستعدوا لشن هجوماً خاطفاً على بطليموس وقد تحقق للوالد وابنه ما أراداه واضطرا بطلموس إلى التراجع فخرب الحصون القائمة فى المدن الساحلية والداخلية مثل « عكا » و « يافا » و « غزة » و « السامرة » و « أورشليم » حتى لا يستخدمها العدو حصوناً يحتمى فيها وظل حال إقليم يهوذا والأراضى الأخرى التابعة لإقليم « سوريا الجوفاء — كوليسيرين » مضطرباً عدة سنوات حتى خر « انتيجونوس » قتيلا فى موقعه « أبسوس Ipsos » بآسيا الصغرى صيف عام ٣٠١ ق . م . إذ التحم فيها بالقادة الأربعة « بطليموس » و « ليسياخوس Lysimachos » و « كسندر Cassander » و « سيلويكوس Seleukos » وقد قسم هؤلاء الأربعة الدولة المقدونية فيما بينهم فحصل بطليموس على مصر والبلاد المتأخمة لها . أما « سيلويكوس » فبسط سلطانه على معظم آسيا حتى نهر السند وفارس . وهكذا نجد إقليم «يهوذا» يصبح خاضعاً لدولة بطليموس . أما اليهود فى المدن البابلية — والفارسية فقد خضعوا لحكم « سيلويكوس » . وبلغ من تسامح مصر أن عينت كبير حاخامي اليهود فى إقليم يهوذا إلى جانب رئاسته الدينية جابيا للضرائب وحا كما سياسياً . وأدرك بطليموس الأول أن الاسكندرية التى أسسها الاسكندر واتخذها لأول مرة الملك المصرى المقدونى عاصمة له فى حاجة إلى سكان وقرر ترغيب اليهود من سكان الأقاليم المجاورة فى استيطانها مستغلا حالة

الفوضى والاضطراب التى عمت إقليم يهوذا وما جاوره بسبب حروب «أنتيجونوس» واستقدم عدداً كبيراً من اليهود وأسكنهم الاسكندرية كما ساوى الملك بين هؤلاء اليهود والسكان المقدونيين فى الحقوق والواجبات وهكذا نشأت جالية يهودية مصرية ولم تقتصر إقامة اليهود على الإسكندرية بل انتشروا كذلك فى مدن مصرية أخرى امتدت حتى إقليم برقة .

وحذا حذو بطليموس فى مصر « سولويكوس » مؤسس الدولة السلوقية بخاصة فى فارس حيث حصل أيضاً على شمال سوريا وشيد هناك « أنطاكية » حوالى عام ٣٠٠ ق . م . واتخذها عاصمة له وحاول أن يعمرها وغيرها من المدن التى شيدها بالسكان فنقل إليها كثيرين من اليهود فوفدوا عليها رغبة أو رهبة كما جاء بهم من بابل وفارس ومنحهم نفس الحقوق التى يتمتع بها المقدونيون فى تلك البلاد .

وهكذا نجد يهودا يستوطنون بلاداً ويتعايشون مع سكان يونانيين مقدونيين ونجد يونانيين مقدونيين يستوطنون بلاداً ويشاركون قوما من اليهود فقامت على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط موانى جديدة وجددت أخرى قديمة تطلق عليها أسماء يونانية وينشط خلفاء الاسكندر إلى تحقيق أمنيته الخاصة بمزج الشرق والغرب وكان الخلفاء فى تخطيطهم هذا يخضعون للوضع والظروف السائدة فى الشرق والغرب وأصبح إقليم يهوذا محاصراً من جميع الجهات بسكان يرطنون اليونانية كما أصبحت اللغة السائدة فى المستعمرات الفلسطينية هى اليونانية كذلك الحال مع الأخلاق والعادات فضائلها ورذائلها. إلا أن فقر إقليم يهوذا جعله زمناً ما إقليما غير مرغوب فيه كما نظر اليونان إلى يهوده نظرتهم إلى المنبوذين وظل الإقليم وسكانه بعيدين عن التطور الجديد الذى طرأ على المنطقة كما أن حياة الاستعباد ومصادرة الحريات وتحديد العبادات والحجر على الأفكار التى يحياها اليهود وقتذاك حالت دون ظهور شخصية قيادية تطلق الحرية المكبوتة وتفك أغلال الكلمة والأمال الحبيسة لذلك نجد اليهودى الخاضع لجميع هذه الظروف يتطلع إلى الخارج منتظراً مجىء « المخلص » الذى يأخذ

بيده من حياة الاستعباد إلى حياة الحرية وهذ « المخلص » ليكن من بابل أوفارس أو أى بلد آخر . إن وضع اليهودى فى إقليم يهوذا حال دون اتصاله ببلاد العالم الخارجى وذلك لأن بابل وفارس تخضعان لحكم البيت السلوقى العدو اللدود لبطليموس .

إلا أن الشعب الذى يعتمد فى سبيل خلاصة أو تطوره على غيره قصيرة ولا شك إلى الفناء لعجزه عن خلق مقومات كيانه وتطوره .

وفى هذه الفترة الحرجة فى تاريخ اليهود ظهر « المخلص » المنتظر الذى طالما انتظره اليهود أعنى « شمعون القانونى» بن « أونياس » الأول والذى ذاعت شهرته وعلت مكانته فى الفترة الممتدة ما بين ٣٠٠ — ٢٠٠ ق. م. تقريبا وقد كان الحاخام الأكبر الوحيد الذى ينتمى إلى بيت « يشوع » أو بيت « يصدق » وكرس حياته للمحافظة على معنويات اليهود كما أعاد بتصريح من الملك الحاكم تشييد أسوار أورشليم التى هدمها بطلميوس الأول واهتم كذلك بتوفير المياه للمدينة وبخاصة بعد أن تشدد اللاويون فى كثرة الغسل والطهارة لإقامة الفرائض الدينية ونجح « شمعون » فى حفر نبع تحت المعبد وأوصله عن طريق قناة تحت الأرض بنبع « إيتام Etam » بالقرب من أورشليم ، وهكذا أمن المدينة غائلة العطش لو حاصرها العدو . وتوفى « شمعون » وترك طفلين فتاة اقترنت بشخص يدعى «طوبيا » وولدا يدعى «أونيا Onia » (اسم جده) وتعرضت بلاد يهوذا وما جاورها من البلاد لحروب دائمة بين السلوقيين الثانى والثالث والرابع وبين كل من بطلميوس الثانى والثالث فى سبيل الاستيلاء على «سوريا الجوفاء — كاليسيرين» إلا أن — يهوذا وسوريا الجوفاء ظلتا تابعتين لمصر . وحدث أن « سيلويكس الثانى — كالينيوكس Kallininkos حاول تأليب سكان تلك الإقاليم على مصر لنزعها منها ونجح فى اتخاذ الحاخام الأكبر « أونياس الثانى » مساعدا له فامتنع هذا الحاخام عن تسديد الضرائب التى كان يجبيها لمصر وإن كانت فى الواقع ضرائب رمزية فقط تدفع سنويا لبطلميوس فما كان من بطلميوس الثالث « اويرجيتيس Euergetes » إلا أن حذر اليهود من

مغبة عملهم هذا الذى يتم عن العصيان والانسلاخ عن مصر ، إلا أن نصحه ذهب مع الريح فهدد اليهود بتقسيم إقليم يهوذا وتوزيعه بين عدد من الأجانب وأرسل إلى اليهود مندوبا خاصا يدعى «اثنيون Athenion» يبلغهم هذا الانذار فاستولت الحيرة على اليهود وحاول يهود أورشليم اقناع الحاخام الأكبر الإقلاع عن موقفه والعودة إلى صوابه إلا أن « أونياس » رفض التراجع وصمم على موقفه وفى هذه الفترة الحرجة ظهر رجل صلب العود قوى العزيمة اسمه « يوسف » وهو حفيد الحاخام الأكبر الجد « أونياس » وأبوه « طوبيا » الذى اقترن بابنة «أونياس» الأكبر وعارض « يوسف » خاله الحاخام الأكبر والزعيم السياسى فى موقفه هذا من مصر ولم يكد يسمع بوصول مندوب بطلميوس حتى سارع إلى أورشليم وهاجم خاله هجوما عنيفا لأنه باصراره على عدم دفع الضرائب الرمزية سيعرض اليهود لأكبر كارثة وظل الحاخام الأكبر مصراً على موقفه فما كان من « يوسف » إلا أن طلب السفر إلى الاسكندرية لعرض المسألة على بطلميوس والقيام بدور الوسيط فوافق أونياس على سفره إلى مصر فجمع يوسف اليهود فى ساحة المعبد وعرض عليهم الأزمة المستحكمة بين خاله وبطلميوس واحتكم « يوسف إلى اليهود فى تمثيله وإنقاذه من النكسه التى قد تقضى عليه ومنحه الشعب ثقته ونادى به زعيما مفوضا عنه وكان ذلك حوالى عام ٢٣٠ ق.م. فما كان من « يوسف » إلا أن أولم وليمة كبرى للمندوب المصرى الممثل الشخصى لبطليموس وهو «أثنيون » وقدم له كثيرا من الهدايا ورجاه أن يبلغ بطليموس أنه سيحضر قريباً إلى مصر ومعه الضرائب المطلوبة . ولم يكد نائب بطليموس يترك أورشليم عائدا إلى مصر حتى شرع يوسف فى اتصالاته بأغنياء السامريين من أصدقائه ورجاهم إمداده بالأموال المطلوبة فضلا عن أنه فى حاجة إلى أن يظهر فى مصر عندما يمثل أمام بطلميوس بالمظهر اللائق فهو فى حاجة إلى ملابس فاخرة ومطية بعض الأموال الخاصة لإقامة الولائم . وقد لجأ يوسف إلى السامريين لأنهم كانوا تجارا وأحسن حالا من سكان يهوذا الذين كانوا يعيشون على الزراعة .

ولما عاد « أثينيون » إلى مصر اتخذ الإجراءات للحفاوة بـ « يوسف » فأعد له القصر استقبالا عظيما كما ازداد بطلميوس اشتياقاً للاقاته والاحتفاء به واتفق وصول يوسف مع الاجتماع العام فى القصر الملكى لسائر موظفى الضرائب لتوريد ما جمعوه وكان قليلا وقد أدرك يوسف هذا من قبل فضاعف المبلغ المطلوب من اليهود عادة فضلا عن الهدايا الكثيرة فاستولت الدهشة على موظفى الضرائب فى مصر والذين كانوا ينظرون إلى اليهود على أنهم فقراء ومعدمون وطالب بطلميوس يوسف بتقديم الضمانات الكفيلة للوفاء بالضرائب مستقبلا فأجابه يوسف أيضمنه خير اثنين فى العالم الملكة والملك فأعجب بطلميوس بنباهة يوسف وعينه جابياً للضرائب من سائر مدن سوريا الجوفاء (كوليسيرين) وفينيقيا فاستجاب يوسف إلا أنه رجا بطلميوس أن عده بنحو ألفى جندى عوناً له لجباية الأموال ، فحقق له بطلميوس رغبته وهكذا نجد يوسف وتحت إمرته جيش يمكنه من أن يكون الحاكم الحقيقى لتلك البلاد وحدث مرة فى غزة وغيرها إن السكان اليونانيين امتنعوا عن دفع الضرائب فاستولى يوسف على أملاكهم وصادر أموالهم لحساب ملك مصر .

وظل يوسف فى هذا المنصب نحو اثنين وعشرين عاما جمع خلالها ثروات طائلة وسلطانا واسعاً وبعد وفاة بطلميوس أويرجيتس خلفه بطلميوس الرابع « فيلوباتور Philopator » (٢٢٢ — ٢٠٦ ق . م .) فاحتفظ بيوسف وأبقاه فى منصبه . وفى عهد هذا الملك دب الضعف فى مصر فانتهز الملك السلوقى « أنطيوخوس Antiochus » هذه الفرصة واستولى عام ٢١٨ ق . م . على « كوليسيرين » وسماريا إلا أن أقليم يهوذا وأورشليم ويحكمها ابن طوبيا وهو يوسف ظلا مخلصين لمصر . ثم دار الفلك دورته وعاد النصر محالفا مصر وهاجم بطليموس فيلبياتور الخصم العنيد ودحره بالقرب من « نفيا Naphia » واضطره إلى التراجع إلى أنطاكية وعادت « كوليسيرين » ثانية إلى أحضان مصر وهكذا كان هذا النصر المصرى نصراً ليوسف أيضا الذى ظل فى منصبه حاكما على يهوذا وأورشليم باسم ملك مصر .

وبقاء يوسف فى منصبه وعلاقته الحسنة مع مصر ومهارته فى جباية الأموال أثر كل هذا تأثيرا كبيرا فى المجتمع اليهودى إذ أثرى ثراء فاحشا وبخاصة أولئك اليهود الذين على صلة بيوسف وذهب يوسف بعيدا فآثر أبناء ملته على غيرهم فعينهم جباة للمال وكان كل يحصل حسب هواه فارتفع مستوى الحيـاة اليهودية وأقبلت الدنيا على اليهود . وإذا أضفنا إلى هذا الثراء ما يترتب عليه من أثر بالغ فى الروح المعنوية بسبب جيش مصر الذى كان هناك تحت أمرة يوسف واستغله فى سبيل القضاء على نفوذ وسلطان السكان الجوثيم أعنى غير اليهود من فلسطنيين وفينيقيين وآوميين ويونانيين ومقدونيين أدركنا مدى الغرور الذى ملأ اليهود لشعورهم بأنهم السادة الأقوياء وليسوا العبيد الأذلاء ، فاليهود باتصالهم بمصر وملك مصر والشعوب الأجنبية الأخرى أداروا ظهورهم لمستواهم الوضيع فهجروا الأحياء القذرة التى كانوا يحيون فيها إلى منازل تحاكى منازل اليونان والمصريين وغيرهم من حيث البناء والزخرفة وقد نقل يهود إقليم يهودا وأورشليم كثيراً من ضروب الثقافة عن يهود الإسكندرية الذين استقروا منذ قرن أو أكثر فى مصر وتثقفوا الثقـافة المصرية الهللينية وبالغ اليهود فى تقليد اليونانيين حتى فى عاداتهم كما أن الثراء الذى وقع على يوسف جعله لا يتورع عن السير فى طريق الغواية فضـحى بحياته العائلية وأقام الأعياد لإله الخمر اليونانى « ديونيوس Dionyios » وذهب انحراف المجتمع اليهودى بعيدا فشك اليهود فى عقائدهم الدينية وأحكامهم الشرعية مستنكرين صحة الرأى القائل إن الله حرم على الإنسان الأخذ بأسباب الحياة والتمتع بمباهجها وكيف يعتبر الله هذا الحرمان تقربا إليه وعبادة ؟ وهكذا نجد آراء « إبيقور Epikur » القائلة بالتمتـع بالحياة والأخذ بأسباب الفرح والمرح تجد صدى عميقا فى نفوس اليهود سواء فى مصر أو فى يهوذا أو أورشليم . ففلسفة أبيقور هذه والتى يعبر عنها أحيانا بفلسفة دعنا نفرح أو « جود يا موس Gaudiamus » قد تـكون هى التى نجد صداها فى سفر الجامعة وغيره من أسفار الحـكم والأمثال والنتيجة المحتومة لهذا الانهيار الخلقى وبخاصة فى أسرة يوسف أن أبناءه السبعة من زوجته الأولى وابنه غير الشرعى المسمى

« هيركانوس » Hyrkanos كانوا دائما فى نزاع مستمر السبعة ضد الأصغر « هيركانوس » Hyrkanos الذى امتاذ على إخوته الآخرين بالشيء الكثير من الذكاء والدهاء حتى أحبه والده وفضله على سائر إخوته وحدث أن رزق الملك بطلميوس فيلوباتور بابن هو بطلميوس الخامس « إيفانيس Epiphanes » وأوفد حكام الولات المصرية المختلفة سواء فى أفريقية أو آسيا وفودا لتهنئة الملك بوليده الجديد كما أرسل يوسف إبنه « هيركانوس » ممثلا له فى تقديم تهانيه إعتقاداً منه أن « هيركانوس » هو خير من يحقق هذه الرسالة وقد نجح الغلام فعلا فى سفارته وكسب عطف الملك وحبه فأثار هذا حفيظة أخوته الذين أجمعوا أمرهم على التخلص منه واغتياله فأعدوا له كمينا لتحقيق أمنيتهم عند عوته إلا أن هيركانوس تصدى لهم مع حرسه الخاص وقتل اثنين من إخوته السبعة واختلف « هيركانوس » مع والده فترك أورشليم وعاد فيما يرجح إلى الإسكندرية .

وحوالى عام ٢٠٨ ق . م . توفى يوسف حفيد شمعون القانونى وحل محله ابنه هيركانوس لمكانته من ملك مصر فإزداد حقد إخوته عليه فتألبوا عليه واضطر إلى الذهاب إلى الإسكندرية ومن سوء حظه إن ملك مصر الذى كان يقدره ويحبه توفى عام ٢٠٦ ق.م. فانتهز انطيوخوس Antiochos حاكم سوريا و « فليب » حاكم مقدونيا الفرصة لتقسيم مصر وأملا كها فيما بينهما . وانضم إلى أنطيوخوس أبناء يوسف حقدا على مصر وأخيهم « هيركانوس » وفتحوا أبواب أورشليم لملوك سوريا فاشتهروا بالخيانة ليهوديتهم وهكذا سقطت يهوذا وأورشليم فى قبضة السلوقيين عام ٢٠٢ ق.م. وتعرض اليهود فى يهوذا وأورشليم لويلات الحرب والسبي والتشريد هذه الحرب التى اشتعلت بين السلوقيين والبطالمة . وقد أدت هذه الأوضاع إلى خلق جماعة من اليهود الموالين لليونانية أو الهللينية وكانوا من أغنياء اليهود وعظمائهم لذلك كانوا حزبا قويا انضم إليه شخص يدعى « يشوع » وهو ابن الحخام الأكبر وكانت ليشوع هذا أو كما تسمى ايضا « يسون Jason » مكانة مرموقة بين رجال الدين فكسب هذا الحزب نفرا من الحاخاميين الذين يدعون أنهم من

سلالة هرون كما تزعمه أيضا بعض أبناء يوسف الذين بقوا على قيد الحياة واحفاده وأبناء طوبيا وتطرف أعضاء هذا الحزب فى عدائهم لخصـــومهم وولائهم للهيلينية فتنكروا للشريعـة اليهودية وعادات اليهود وتقاليـدهم وذهبوا بعيدا ففـكروا فى القضاء على الشريعة ليسهل عليهم كسب اليهود بعد ذلك إلى الهللينية ثقـافة وجنسا وعقيدة اعنى تحويل اليهود إلى يونانيين وثنيين .

وقد عارض هذا الاتجاه عدد من اليهود المحافظين وكونوا الجماعة المعروفة فى التاريخ اليهودى العقائدى « الحسيديم » الذين يعارضون التفـكير فى تحوير أى شىء دينى لإيمانهم الشديد بقدسيته ومن زعماء هذه الطائفة « يوسف بن يوحنان » أحد أبناء أورشليم وكذلك يوسف بن يوعيزر وقد أسس كل منهما مدرسة دينية أحدهما اهتمت بالشريعة من الناحية النظرية وأخرى من الناحية التطبيقية واحتـدم النزاع بين اليهـود التقدميين المؤمنـين بالآراء والمذاهب اليونايية الهلينية وبين الرجعيين المحافظين واستخدم التقدميين القوة فى سبيل فرض آرائهم الثورية إبان حـكم « انطيوخوس إيبفانيس » (١٧٥ — ١٦٨ ق٠م٠) على سـوريا الذى هالته حالة الفوضى فى المجتمع اليهودى فناصر التقدميين دعاة الهللينية على خصـومهم اليهود المتعصبين .

ولم يقف الأمر عندهذا بل رجا أنصار الهللينية للملك منح اليهود الذين اشتركوا فى التدريبات الرياضية اليونانية حق المساوة مع المواطنين أصحاب الحقوق الـكاملة أعنى يصيرون « أنطيوخيين » أو « مقدوونيين » أو الحقوق الكاملة للمواطن الذى له الحق فى المشاركة فى سائر أوجه النشاط اليونانية العامة وذلك لأن هـذه الألعاب الرياضية اعتبرها اليونانيون وقتذاك واجباً هاماً من ضروريات الحيـاة و المشاركة فيها تـكسب غير اليونانى الحق فى أن يتمتع بسائر امتيازات المواطن اليونانى وقد يصل إلى مرتبة الإشراف وهـكذا نجد ساحات الألعاب الرياضية تقام فى أورشليم ويشترك فيها بعض اليهود ، والتدريب على هذه الألعاب الرياضية مثل القفز والمصارعة ورمى القوس وغيرها يتطلب من الذى يمارسها أن يتجرد من ملابسه وهذا يكشف

عورة اليهودى والختان الذى يميزه عن سائر الشعوب وهنـــا يتعرض اليهود الذين يشاركون فى الألعاب الأولمبية إلى سخرية اليونانيين ممـا اضطر اليهودى إلى إجراء عملية جراحية تخفى ولو ظاهريا هذا الختان الذى يثبت يهوديته كما أن الشبان الذين كانوا يؤدون بعض الخدمات فى المعبد اضطروا إلى تركها لاهتمامهم بهذه الألعاب الرياضية .

وقد آلم هذا التطور فى المجتمع اليهودى المتدينين منهم إلا أنهم كبتوا غيظهم بالرغم من التمادى فى الانحراف عن الشريعة اليهودية وبخاصة اشتراك اليهود فى هذه الألعاب وتقديمهم القرابين إبان الاحتفال الأولمبى لإله الألعـاب الأولمبية إلا وهو « هيروقليس Herakles » وهذه ولا شك طقوس وثنية وتقديس لصنم من الرخام جعلت الانفجار الثورى قاب قوسين أو أدنى ضـد اليونانيين لذلك سارع الملك « أنطيوخوس » ، وهاجر أورشليم ناقماً على اليهود وشريعتهم وسقى أرضها بدمائهم ولم يرحم ذكراً أو أنثى شيخاً أووليداً ، وإمعاناً فى احتقار هذه العقيدة اقتحم المعبد وجرده من كل ما هو ثمين فيه مثل المذبح الذهبى والشمعدان والموائـد وسائر الأوانى الذهبية ويلاحظ أن الحاخام الأكبر الذى عينه « أنطيوخوس » الا وهو مينيلاوس Menelaos » كان هو المرشد للملك وقاده إلى هذه الأمكنة ومكنه من الاستيلاء على كنوز المعبد وأدواته وشاع فى ذلك الوقت أن أنطيوخوس شاهد فى الهيـكل صنما لرجل له لحية طويلة يجلس على حمار وفى يده كتاب واعتقد أن هذا الصنم يمثل موسى الذى جاء إلى اليهود بشريعة مستبدة تبعد بين اليهود وسائر البشر فتنشر البغضاء والشر وقد وجدت هذه الفكرة طريقها إلى اليونان والرومان الذين اعتقدوا أن اليهود يقدسون فى شريعتهم الحمار . ويذكر عن أنطيوخوس أيضاً أنه شاهد فى المعبد يونانياً ينام على سرير وقص على الملك أنه جرت عادة اليهود أن يأتوا كل عام بيونانى ويطعموه زمناً ما ثم يذبحوه ويأكلوا أمعاءه كأنهم يقسمون بكراهية اليونان والعمل على إبادتهم فكانت هذه الشائعات من أقوى الأسلحة التى استخدمت ضد اليهود .

وهكذا بسط الحزن جناحيه على أورشليم مما اضطر اليهود إلى الهرب منها وأصبح الحاخام راعياً بلا رعية ، وقرر (انطيوخوس) تحدى آله إسرائيل والتغلب علية فأصدر الأوامر إلى سائر المدن اليهودية يدعو اليهود إلى ترك يهوديتهم وعبادة آلهة اليونان فقط كما طالب باقامة المذابح والنصب والتماثيل اليونانية لتحقيق هذه الرغبة وبالغ أنطيوخوس فى اضطهاد اليهود فطالبهم بأكل اللحوم التى تحرمها شريعتهم وبخاصة الخنزير .

وتعتمد الشريعة اليهودية على ثلاثة عناصر الختان ، وتقديس السبت والأعياد، وأخيراً عدم أكل طعام غير اليهود وكلفت حكومة انطيوخوس موظفيها بضرورة الحرص على مراقبة تنفيذ أوامر الحكومة القاضية بمنع اليهود من مباشرة تعاليم شريعتهم وطقوسهم الدينية وكل يهودى يضبط متلبساً بمخالفة هذه الأوامر يحكم عليه بالاعدام .

وبدأ (انطيوخوس) بالمعبد فى أورشليم فأرسل أحد كبار أتباعه إليه فحول الهيكل إلى مكان لعبادة «زوريس» وقدم خنزيراً على المذبح قرباناً ورش دمه على المذبح وعلى قدوس الأقداس وطبخ لحم الخنزير وصب الماء الذى طبخ به على صفحات العهد القديم أما لحم الخنزير المطبوخ فقد طلب إلى الحاخام الأكبر (منيليوس Menelaos) وغيره من اليهود المتأثرين بالهيللينية أكله . أما التوراة المحفوظة بالمعبد فقد أحرقت لأنها تدعو إلى إشاعة البغضاء بين الناس لذلك طهوها بالنار وحرقها ثم وضعت صورة (زوريس) على المذبح لتقدم إليها القرابين مباشرة وكان ذلك فى ١٧ تموز — يولية — ١٦٨ ق . م . وقد وصلنا المزموران ٤٤ و ٧٤ وهما يسجلان هذه المعاملة التى لاقاها اليهود واليهودية ولم يقف الأمر عند هذا فقد أصدر «أنطيوخوس » مرسوماً يقضى بإعدام كل شخص يعلن أنه يهودى كما حرم على اليهود أن يطلقوا على أنفسهم يهودا .

* * *

وفي هذا الجو العاصف الداكن ظهرت أسرة اشتهر أفرادها بالتدين والتمسك بالشريعة وأحكامها وهى تعرف بإسم أسرة الحشمونايم او المكابيم ربها رجل خط الشيب رأسه وخمسة أبناء فدائيين أعلنوها ثورة عارمة على الكفر والإلحاد وآلوا على أنفسهم إلا أن يذودوا عن عقيدة الآباء والأجداد التى خلفوها لأحفادهم . أما الوالد فيدعى «متاتيا هو» اى عطية الله ابن يوحنان بن شمعون حشموناى وهو من نسل هرون كان يقيم فى أورشليم ولما استفحل فيها الخطب وزاد الاضطهاد هجرها إلى « مودين Modin) الواقعة على بعد واحد وعشرين كيلومترا شمال أورشليم وأخذ وأولاده الخمسة يعملون جادين فى رفع معنويات اليهود التى كانت قد انحطت وفقدت كل أمل فى استرداد كل ماضاع من حرية وعقيدة وكرامة. وكان هؤلاء الأبناء الخمسة يحملون ألقاباً آرامية رنانة مثل (يوحنان جدى) و (شمعون طرسى) و (يهودامكابى) و (اليعازر أفران) و (يوناثان أفوس) وقد وجد هذا البيت الحشموناى كثيرين من الأنصار الراغبين فى الثأر لأنفسهم ولعقيدتهم وآلوا على أنفسهم النصر أو الموت وكان هذا هو شعار (متتياهو) .

وحدث أن أحد الموظفين المكلفين بمراقبة اليهود ومعاقبة الذين تثبت عليهم تهمة التمسك بالعقيدة اليهودية والانحراف عن الهللينية واسمه (إبيليس Apelles) جاء إلى (مودين) والتقى بـ (متتياهو) وطالبه بوجوب مراعاة الأوامر الرسمية الخاصة بالإقلاع عن اليهودية واحترام الهللينية فأجابه (متتياهو) غيرهياب أو وجل (لو آمنت جميع الشعوب التى تقيم فى مملكة (انطيوخوس) ملك سوريا بالهللينية وانحرفت عن اليهودية دين الآباء والأجداد فإنى وسائر الأنصار سنظل أوفياء لليهودية وإذا تجرأ يهودى وتقدم إلى المذبح لتقديس (زويس) سأقتله إلى جوار المذبح وهجم اولاد (متتياهو) بالمدى على (أبيليس) وأعوانه وقتلوهم كما هدموا المذبح فكانت هذه الحادثة إشارة الثورة وتحول اليهود من السلبية والاستسلام إلى المعركة، وصاح متتياهو) : من يؤمن بشريعتنا يتبعنى فانضم إليه سائر سكان (مودين) وما جاورها واعتصموا جميعهم بجبل إفرايم كما انضم إليهم أيضاً نفر من الحسيديم وأخذ عدد أفراد

المقاومة يتزايد يوماً بعد يوم فاندفع متتياهو إلى مختلف الجهات محطما المذابح الهلينية وإذا ما التقى بجماعة من الجنود السوريين هاجمهم وكبدهم بعض الخسائر وهكذا اخذ متتياهو يباشر حرب الكر والفر ضد العدو واحتمى بالجبال .

ولما وافى القدر المحتوم عام ١٦٧ ق. م. متتياهو عين ابنه الأكبر شمعون مستشارا — وأسند قيادة الحرب إلى ابنه الصغير « يهودا مكابى » وكان من خيرة الرجال العسكريين الذين عرفهم الشعب اليهودى . وفى عام ١٦٦ ق .م . التحم « يهوذا مكابى » ولأول مرة مع فرقة من الجنود السوريين تحت قيادة « أبولونيوس Apollonies » وحالف النصر فيها «يهودا» وقتل ابولونيوس إلا أن ملك سوريا أنطيوخوس أرسل جيشا آخر بقيادة هيرون Heron لضرب يهودا وجيشه وكان جيش هيرون يضم عددا من اليهود الناصرين للهلينية وأرشدوا جيش «هيرون» إلى أقصر الطرق وأصلحها للوصول إلى يهوذا وما كاد رجال يهوذا يبصرون هذا الجيش حتى دب الرعب فى صفوفهم وكادوا يولون الأدبار لولا أن يهوذا خاطبهم قائلا اذكروا الكنوز الثمينة التى ستدافعون عنها اذكروا أبناءكم اذكروا حياتهم اذكروا عقيدتنا فكان لهذه العبرات وقع ساحر فى نفوسهم وكروا كرة رجل واحد على جيش « هيرون » عند « بيت هورون » ودحروه وأدرك ملك سوريا انطيوخوس أنه أساء تقدير قوة خصومه لذلك عاود التفكير فى الثأر لجيشه فقرر التخلص نهائيا من سائر اليهود المقيمين فى مملكته ولتنفيذ هذه الخطة رأى أن يحشد أولا جيشا تحت قيادة « لزياس Lysias » ويسير به إلى يهوذا ويقضى عليه وإذا تحقق له هذا النصر تحول إلى البقية الباقية من اليهود وآثارهم وطهر البلاد منهم نهائيا وفيما يتعلق بأورشليم رأى أن ، يهدمها ويزيلها من الوجود ويأتى بجماعات أخرى غير يهودية ويورثهم هذه البلاد ولم يستثن الملك انطيوخوس من عملية الإبادة هذه اليهود الموالين للهلينيه وله . ولم يكد يعلم اليهود بما يبيته لهم انطيوخوس حتى انقلب خوفهم شجاعة وترددهم إقداما وذلك لأنه لم يبق أمامهم إلا الدفاع عن أنفسهم (وساعد على رفع الروح المعنوية بين اليهود ظهور كتابين هامين إلا وهما « سفر دنيال » و «سفر استير»

والسفران صدرا عن هيئتين إسرائيليتين مختلفتين فسفر دنيال وضعته جماعة الحسيديم الذين يؤمنون بأن المصيبة التى أصابت اليهود حلت بهم بسبب انحرافهم الدينى ولو تابوا وأنابوا فسينصرهم الله فالسفر أقرب إلى الروح الصوفية والإيمان بالمعجزات منه إلى التاريخ وسير الآباء الأولين .

أما سفر استير الذى يخلو حتى من ذكر اسم الله فقد وضع لغير رجال الدين ، فالمؤلف يكتفى بذكر قصة اضطهاد دين فى قديم الزمان وفى بلاد فارس ثم انتهت المؤامرة بانتصار اليهود وهزيمة خصومهم .

ثم نجد «ليزباس» ومساعديه يقودون جيشا قوياً ضد يهودا وأخذوا معهم تجار الرقيق والأغلال لشراء أسرى الحرب من اليهود بعد المعركة وجمع يهودا المكابى رجاله واستعدوا لملاقاة العدو واجتمعوا أولا لإقامة صلاة وهناك جاءوا بالتوراة ونشروها بين الجنود وصاح يهودا فى رجاله أن « أنطيوخوس » يريد أن يمحو التوراة ويقضى على عقيدتنا ويحولنا إلى وثنيين فأشعل نار الحماس فى صدورهم وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وعين على كل قسم أحد إخوته وأعلن أن كل شخص حديث التأهل أو زرع كرامة أو لا يرغب فى القتال فلينصرف حسب تعاليم الشريعة وأقبل الهلينيون لمهاجمة يهودا المكابى واختار قائد هذا الجيش السورى الليل بظلامه الدامس وقتا للهجوم واكتشف يهودا المكابى هذه الخطة فقرر إحباطها وذلك بالانسحاب ليلا سراً والتف حول العدو وقلب جيشه فى ظهره فلما هجم السوريون على اليهود لم يجدوا واحدا فاعتقد قائد الجيش السورى واسمه « جورجياس Gorgias » إن اليهود خافوا وهربوا فى الجبال وقرر أن يلاحقهم وفى الجبل انقض المكابى على السوريين من الخلف فأحرق معسكرهم وواصل الهجوم عليهم - ولم يكد يبزغ نور الصباح حتى تبين جورجياس أن اليهود يهاجمونه من الخلف فأصدر أمرا إلى عدد من جنوده بالصمود وخوض معركة انتحارية ضد المكابى الذى صاح فى جنوده « باسم الوطن والشريعة والمقدسات » أما أخوه الأصغر فأخذ يرتل بعض الآيات من التوراة ثم صاح المكابى « الله معنا » وأحرز يهودا نصرا على السوريين عند اماوس Emmaus وعاد اليهود

إلى «مودين» مركز تجمعهم ثانية . إلا أنهم توقعوا أن« ليزياس » الذى قد صدر له الأمر بإبادة اليهود قد يعاود الكرة عليهم ثانية وفى خريف عام ١٦٥ ق . أقبل «ليزياس» على رأس جيش آخر وعسكر عند« بيت صور» على بعد مسيرة خمس ساعات جنوب اورشليم إلا أنه فضل الانسحاب على الاشتباك مع اليهود فى معركة قد تكون نتيجتها هزيمة تتلى هزيمة موقعة «اماوس» وهكذا بعد نحو ثلاثة أعوام ونصف العام منذ اندلاع نيران الحروب بين الطرفين حل نوع من المهادنة وانتهز المكابى وأعوانه هذه الفرصة وانقضوا على اورشليم ليطهروها من رجس الجويم فحطموا التماثيل والنصب وكل مايتعارض مع الشريعة وتعاليمها وشيدو مذبحا جديداً عوضا عن الآخر الذى دنسه الجويم كما جاءوا للمعبد بآنية جديدة وقد استغرقت عملية التطهير وإزالة النجاسة ثلاثة أسابيع ، وفى صباح ٢٥ كيسليف (نوفمبر ١٦٥ ق م ..) أقيمت حفلات التكريم وطهارة المعبد كما قدمت القرابين وهذا العيد يقام حتى اليوم ويعرف باسم عيد «حنوكا» أى «تقديس» أو تدشين وهو ثمانية أيام يضاء فيه شمعدان أو «منارة» ذو ثمانية أذرع فهو عيد النور ويضاء عادة كل يوم من أيام العيد ذراع «قنديل» تخليدا لذكرى انتصار اليهود على الجويم الوثنيين وقد شارك فى إحياء هذا العيد اللاويون بأناشيدهم وكذلك جميع سكان إقليم يهوذا وأبناء اورشليم الذين وضعوا الأنوار أمام منازلهم رمزا للتوراة التى يعبر عنها الشعراء اليهود بالنور وقرر الإخوة الحشونايم فى اجتماع عقدوه مع البقية الباقية من أعضاء المجلس الأعلى إصدار قرار هام جدا للمستقبل الا وهو اعتبار الأيام الثمانية ابتداء من يوم ٢٥ كسيليف (نوفمبر) أعياد طهارة العقيدة والمعبد .

ولم يقف الأمر عند هذا بل عاد المكابى إلى تطبيق النظام القديم فى المعبد من حيث تعيين الكهنة واللاويين وأقصى الذين انحرفوا واتبعوا الهلينية عن الخدمة وقد نتجت عن هذه المعاملة نتائج وخيمة إذ تجمع هؤلاء المعزولون وأخذوا يكيدون للهيئة الجديدة أعنى للحزب الآخر وأدرك المكابيون أن الجويم يستعدون للانتقام والثأر فأخذوا يتحصنون وقد أدركوا أن هناك شعوباً أخرى أخذت تنضم وتعطفه

على السوريين وأخذت هذه الشعوب تتململ من وجود يهود بين ظهرانيهم وقد أدركوا أن هؤلاء اليهود أخذوا يتربصون بهم الفرص لمد نفوذ المكابين وتحقيق مطامعهم الانتقامية التوسعية فنجد الفلسطينيين في الجنوب الغربي الفينيقيين في الشمال الغربي والعمونيين عبر الأردن كذلك السوريين والمقدونيين وسائر أفراد الجاليات الأخرى تتحد لمقاومة التوسع اليهودي وأكثر الشعوب حماسا ضد الطغيان اليهودي كان الآدوميون في الجنوب وهكذا تطور وضع اليهود وضاع الأثر الذي تركه انتصار المكابين في موقعتي «امباروس» و «بيت صور» ولم تتحقق أطماعهم التوسعية في استعباد الجويم والاستيلاء على أراضيهم وأصبح وضعهم شبيها تماما بوضعهم أيام نبوخذ نصر الذي إنقض عليهم وسباهم لكي يقضي على عنصر المشاغبة والاضطراب في الشرق الأدنى هذا حالهم أيام «انطيوخوس» فقد أصبح اليهود يعيشون في جزيرة في بحر من الأعداء الذين يتربصون بهم للتخلص منهم تأميناً لكيانهم ، وقد تحققت هذه المخاوف عندما استعد «يهوذا المكابي» لتوجيه ضربة إلى الشعوب المجاورة فهاجم الأدوميين في جنوب فلسطين وطردهم من ديارهم وبعد ذلك هاجم الأردن فأدخل المكابي الرعب في قلوب جيرانه . ولم يكد يرجع المكابي من حملاته هذه إلى أورشليم حتى علم أو ادعى أنه علم أن اضطهاد الحق ببعض اليهود المقيمين في جهات كثرة سكانها من الهللينين أعنى اقليمي «جلعاد» و «بيسان» « والجليل » و « عكا» و «صور » و « صيدا » وغيرها فقد حدث أن اليهود النازلين وسط اليونانيين أرسلوا إلى المكابي يطالبونه بالاستيلاء على هذه البلاد بحجة أنهم لا يتمتعون بحريتهم فأوسل «يهوذا المكابي» أخاه «شمعون» على رأس جيش صغير إلى الجليل وتوجه هو وأخوه يوناثان إلى الأردن وبقية جيشه وشعبه تحت قيادة قائدين وأرسله إلى غرب إقليم يهوذا لمواجهة الفسلطينيين ونجح شمعون بحملته واستولى على الجليل وجمع شمعون يهود الجليل وأجبرهم على الهجرة إلى إقليم يهوذا . أما يهوذا المكابي فقد هزم شر هزيمة أمام الجيش الأردني الذي كان تحت امرة قائد سوري يدعى تيموشاوس Timotheos وكان ذلك عام ١٦٤ ق . م . وفر المكابي وعاد مع من بقي

معه من يهود جلعاد إلى أورشليم وصادف إلى جاء بعد ذلك عيد الأسابيع فاحتفل اليهود به ثم خرج يهودا على رأس جيش محاولا الثأر لنفسه من الهزيمة التى لحقت به وبقائديه الذين تركهما لحماية البلاد من احتمال وقوع عدوان عليها وذلك لأن القائدين أرادا الحصول على نصر طنان رخيصا على الجيش السورى الذى كانت تحت قيادة «جورجياس Gorgias» ومعسكرا فى «يمنيا» فدحرهما وأوقع الرعب فى اليهود عامة لذلك أراد «يهودا» محو آثار هذه الهزيمة أولا ثم بعد أن يتحقق له هذا يعود إلى تنفيذ البرنامج الذى أعده لتوسيع رقعة إقليم يهوذا فأخذ يتربص الفرص لتنفيذ خطته هذه فانتهز الاضطرابات الداخلية فى سوريا والإخطار المحدقة بانطيوخوس وانقض على الجيش السورى بقيادة «ليزياس Lysias» واضطر إلى الرضاء بالأمر الواقع إلا أن منازعات اليهود الداخلية والخصومات الحزبية وبخاصة تلك التى تناصر الهيلينية تعارضها اليهودية المتعصبة زعزعت المجتمع اليهودى وأدرك بهذا المكابى أن كفة اليهود الهيلانيين أخذت ترجح وأدرك أن شريعته ومعبده فى مهب الريح فسيج المعبد بسور شامخ وأقام عليه بعض الأبراج للدفاع عنه إذا ماهاجمه الجويم واعتقد المكابى أن الفرصة مواتية له لمهاجمة الجويم فحاصرهم وأعد العدة للقضاء عليهم ونجح نفر من المحاصرين فى الهرب والاتصال بالملك السورى الجديد ألا وهو انطيوخوس اوبياتور Antiochos Eupator وأخباره عن حقيقة الوضع فى أورشليم فما كان من الملك إلا أن ارسل حملة لرفع الحصار عن المحاصرين وضرب اليهود المتمردين متى سنحت الفرصة وقد سنحت هذه الفرصة وذلك فى ربيع عام ١٦٢ ق‌م وهو عام سبت عام مقدس عند اليهود لازرع ولا عمل ولا مال والمكابيون يزعمون أنهم حماة الشريعة والشعب مضطر إلى التقشف وعجز المكابيون عن إدخال المؤن الضرورية للشعب او الجنود فى القلاع التى يدافعون عنها .

فتقدم القائد السورى «ليزياس» فى رفقة الملك الشاب «اوبياتور» على راس جيش قوى أعد لضرب اليهود الضربة القاضية وتخليص الشرق من ويلاتهم وما كاد المكابى يبصر هذا الجيش وهذه العزيمة القوية لإبادته إلا وانسحب وحاول الاكتفاء

بالدفاع عن حسنى المعبد وبيت صور ألا أن قواته لم تستطع الوقوف أمام الجيش السورى القوى الذى اقتحم أورشليم واضطر المكابى إلى الوقوف ولم يمكنه الهرب وهناك عند بيت زكريا بالقرب من بيت صور تلقى اليهود الضربة الأولى فلم يتحملها المكابى وجيشه فهرب محتميا بحصن المعبد إلا أن اليهود الذين كانوا فى ذلك الحصن هربوا عن طريق ممرات سرية وهكذا تعرضت أورشليم لنفس الوضع الذى تعرضت له أيام نبوخذ نصر لكن شاءت الأقدار أن خلافا دب بين « ليزياس » وخصمه « فيليبوس Philippos » الذى جمع فى فارس وميدياجيشا أراد به انتزاع أنطاكية من « ليزياس » فلما علم بهذا اضطر إلى نصح الملك الشاب بعقد صلح مع المكابى عن أن يترك « ليزياس » المعبد ويكفل للمكابى إقامة الشعائر الدينية اليهودية ولما يمض زمن طويل حتى عاد الشقاق ثانية بين اليهود أنفسهم من ناحية وبينهم وبين الأخوة المكابيين أنصارهم من ناحية أخرى وتزعم خصوم المكابيون — حاخام يدعى « يوياحيم Jojachin (وفى اليونانية) السكيموس Alkimos » وقد استغل هذا الحاخام وأنصاره استيلاء الأمير « ديمتريوس Demetrios » الذى كان رهينة فى روما وهرب منها على الحكم وشرح له « يوياخين » كيف أن السلام لن يحل بالشرق ما لم يتخلص نهائيا من المكابيين والحسيديم مصدر الشر والفتن وأعداء السلام فانتهز « ديمتريوس » هذه الفرصة ليفرض سلطانه على اليهود ويخلص الشرق من ويلاتهم وهكذا نجد « ديمتريوس » يسير فى طريق عمه من قبل إلا أنه لم يتعرض للدين بل عين حاخام أكبر جديدا لجمع البلاد ومنحه علاوة على السلطة الدينية سلطة أخرى سياسية وإدارية ولتنفيذ هذا القرار أو كل إلى رجل عسكرى جبار يدعى « بكثيديس — Bakchides » وأمده بقوة عسكرية صغيرة وسيرة إلى أورشليم فلم يكد يعلم الأخوة المكابيون وأنصارهم بنبأ وصوله حتى لاذوا بالفرار إلى الجبال إلا أن الحسيديم رفضوا الهرب مع المكابيين اعتقادا منهم بأن الحاخام الأكبر من نسل هرون لذلك أقبل الحسيديم وكثيررن غيرهم على « بكديس » و « اللكيمدوس » وأعلنوا ولاءهم للنظام الجديد والمحافظة على السلام واستقرار الأمن وقد انضم إليهم

أعضاء المجلس الدينى الأعلى » إلا أن الأمور تحرجت ثانية ونشبت حرب أهلية بين الطرفين عام ١٦١ ق ٠م٠ وانتهز « ديمتريوس » هـذه الخصومات وأرسل جيشا تحت قيادة « بـكتيديس » فطارد « يهوذا المـكابى » فى كل مكان حتى اضطره إلى أن يخوض المعركة فالتقى بـ « بكشيديس » فى أبريل عام ١٦٠ ق ٠ م ٠ عند ميت ذيتا وسحقه وجيشه وسقط المـكابى مدرجا بدمائه وبذلك انتهت أسطورة المـكابيين التى كان شعارها « أن دماء الشهداء تشفى الجروح » ٠

* * *

عصر الامراء الحشمونايم (٢٦٠-١٤٣ق.م)

لم يكد « يهودا مكابى يفارق الحياة حتى أحاطت الكوارث باليهود من كل ناحية فهددته المجاعة وحطمته المشاحنات الداخلية وفى هــذه الظروف حاول الأخوة الحشمونايم وهم يوناثان وشمعون ويوحنان «انقاذ اليهود من هذا الانحلال وتلك الفوضى التى ترددوا فيها مع محاولة وقف تقدم الهللينيين وأتباع « بخشيديس » إلا أن كل هذه المجهودات ذهبت مع الريح .

فقد لجأ الحشمونايم إلى تكوين حزب قوى يستطيع الصمود فى وجه الحزب الهلليني وحاول كل فريق الفتك بالآخر متى سنحت له الفرصة بالرغم من أن الهللينية كفلت الحزب الحشمونايم حرية العبادة وتأدية الطقوس الدينية واحترام المقدسات إلا أنهم بالرغم من ذلك ظلوا يحقدون على الهللينيين ويتربصون بهم الدوائر فقد عجزوا عن التخلص من غريزة الحقد والايقاع بغير اليهود أعنى بالجوييم فاليهود يبغضون عادات وتقاليد غيرهم ويذهبون فى بغضهم بعيداً حتى أنهم ينكرون على غيرهم الكفاءة والنبوغ هكذا تأمر التوراة وقول شراحها فى الجمارا والتلمود لذلك علق الحشمونايين كل آمالهم فى تحقيق أوامر الشريعة التى تأمر بعدم الاشادة بفضل الجوييم ولا تمنحهم اقامة على الأرض وتحرم على اليهودى أن يبيع للجوى شيئاً ثابتاً فى الأرض لكن يجوز البيع إذا هدم ما على الأرض ويقول ربى يهوذا يجوز البيع لغير اليهودى بشرط الهدم والازالة كما تحرم حتى الحديث عن جمال غير اليهودية أو اليهودى « على المكابى « يوناثان افوس « Jonathan Aphus » ويذهب الحشمونايم بعيداً فيرجون منه ابادة اليهود الهللينيين لكى يحل السلام بالبلاد وكان « يوناثان » أضعف من أن يواجه « بكشيديس » إذ لم يكد وجيشه والحشمونايم يلتقون بـ « بكشيديس » حتى هربوا إلى غابات الأردن ومن ثم حاولوا تهريب النساء والأطفال إلى قبيلة نبطيه صديقة فالتقى « بنى عمرى » حلفاء السوريين بهم

فكانوا بهم شر تنكيل وبقائدهم « يوناثان» بينما نجد « بكشيديش » ينقض على اليهود المختبئين فى أحراش الأردن فيولون مذعورين إلى نهر الأرن ملتمسين النجاه بين أمواجه فيبتلع من يبتلع ولم ينج من أمواجه الصاخبة إلا النفر القليل . وأستولى الجيش السورى بقيادة « بكشيديس » على سائر تلك الإقاليم كما أنه ظل يطارد اليهود حتى أنهكهم فكانوا لا يفرون من هزيمة إلا تتلقفهم أخرى وأخرى وأخيراً جمع القائد السورى أولاد أعيان اليهود وأخذهم رهينة . وهكذا نجح الجيش السورى عام ١٦٠/١٥٩ ق.م. فى تحقيق خطته الخاصة بالقضاء على الكيان اليهودى جيشاً وشعباً كما استأصل شأفة الحشمونايم وساد السلام البلاد عامين ١٥٩ — ١٥٧ ق.م.

إلا أن اليهوديين الحشمونيم (يوناثان) و (شمعون) غدرا وقررا التدبير لحرب أخرى فاتجها إلى واحة فى صحراء (أريحا) بالقرب من الأردن وحيث توجد هناك غابة ونبع ماء فضلا عن أن نهر الأردن يتسخدم خطا للدفاع لهما من جهة الخلف فى حالة الهجوم عليهما أو ملاذا به عند الهزيمة والتقى بهما الجيش السورى بقيادة « بكشيديس » فهزم جيشهما وأبرم معهما صلحاً على أن يقدم « يوناثان » رهائن من اليهود لبكشيديس ولا يدخل أورشليم . ومن عجائب الصدف أن ظهر فى تلك الفترة شاب فى أزمير يدعى (الكسندر بالاس Ai palas) واستغله (اتالوس Attalus ملك (برجاموس Pergamos) ليجعل منه منافساً خطيراً لملك سوريا «ديمتريوس» فاتصل بالحشمونى يوناثان وأغراه ليكون حليفاً له وطلب إليه أن يعد جيشاً ويعاون الكسندر مقابل الأفراج عن الرهائن اليهودية التى فى قبضة السوريين فسارع يوناثان إلى أورشليم واستولى عليها وحصنها بمساعدة (الكسندر بالاس) وبالغ الكسندر فى سبيل كسبه نهائياً إلى صفه فأهداه معطفاً قرمزيا وتاجا من الذهب وعينه الحاخام الاكبر واستغل يوناثان عيد المظال عام ١٥٢ ق م . ودخل المعبد وأعلن نفسه حاخام أكبر فكان أول حشمونائى يبلغ هذه المكانه وهكذا احتفظ بها للبيت الحشموناى زمنا طويلا وظل يوناثان حاكما تسع سنوات « ١٥٢ — ١٤٤ ق.م. » كانت سنوات

تقدم وانتعاش لليهود لأنه عرف الجانب الذى يحالفه النزاع القائم حول العرش السورى أعنى (الكسندر بالاس) ضد (ديمتريوس) ملك سوريا الذى حاول جاهدا إصلاح ذات البين بين العرش السورى وبين اليهود فبالغ فى مراعاة شعورهم الدينى حتى حرم استدعاء اليهودى للتقاضى أو التحقيق معه فى الفترة الممتدة بين ثلاثة أيام قبل العيد وبعده وكذلك يوم السبت وبالرغم من كل هذه المعاملات الحسنة أخذ (يوناثان) — الحشمونى جانب « الكسندر بالاس » وعاونه حتى تم له الانتصار على « ديمتريوس » . وجلس « الكسندر بالاس » على عرش الملك طوال الفترة الممتدة من ١٥٢ إلى ١٤٦ ق . م وفيها حقق اليهود توسيع رقعة بلادهم أعنى إقليم يهوذا على حساب البلاد المجاورة وقد أدى هذا الوضع الجديد للملكية السورية واقتصامها بين « الكسندر بالاس » و « ديمتريوس » الثانى إلى أحداث فتنة بين السوريين أنفسهم فريق يدين بالولاء للكسندر بالاس وآخر لديمتريوس وانتهز اليهودى يوناثان هذا الظرف وقرر التخلص من الحزب المعارض أعنى الحزب اليهودى التقدمى المتأثر بالثقافة الهللينية فهاجم هؤلاء المعارضين فى عكا وحاصرها فطلب يهودها حماية الملك السورى ديمتريوس الثانى ، فما كان من اليهودى يوناثان أن غدر بحليفة الكسندر بالاس وقصد « ديمتريوس » وقدم له كثيرا من الهدايا ونجح فى كسب ثقة الملك ديمتريوس حتى عينه حاخاما أكبر وأخذ ينصب شباك الحيل ويوسع رقعة إقليمية حتى لم يبق أمام « ديمتريوس » الثانى إلا أن يعمل للتخلص منه فوصى أحد قواده إلا وهو « ديوبوتوس تريفو Diobotos Tryphon » بتدبير خطة للقضاء عليه فما كان من هذا القائد إلا أن غرر بيوناثان واصطحبه وجيشة إلى عكا وهناك أنقض عليه السوريين فأوقع بالجيش اليهودى هزيمة ساحقه ووقع يوناثان فى الأسر . أما الابن الحشموناى الباقى على قيد الحياة الا وهو « شمعون » فلم يكد يسمع بخبر هذه الهزيمة وأسر يوناثان حتى بادر إلى الاستعداد للدفاع عن أورشليم إذا ما هاجمها القائد السورى « تريفون » Tryphon

وقرر تريفون أن يلعب بالإبقاء على يوناثان حباً لعبة تخدم سوريا وسائر الاقاليم المجاورة وتقضى نهائياً على الخطر اليهودى فأعلن « تريفون » أنه اعتقل«يوناثان» ضماناً لتحصيل الضرائب المستحقة على إقليم يهوذا للخزانة الملكية فإذا ما سدد اليهود هذه الأموال وقدموا الابنين الاثنين ليوناثان رهينة لاستتباب السلام فإنه ولا شك سيطلق سراحه وهكذا نجد « شمعون » إنقاذا لحياة أخيه يوناثان يرسل المال وابنى يوناثان إلى القائد السورى « تريفون » وبعد ذلك أمر (تريفون) بإعدام يوناثان عام ١٤٣ ق . م . فاختفى شبح هذه الأسرة الحشمونائية من الوجود سياسياً لفترة ما وإن كان بعض أرماء هذا البيت ظل يقوم بدور ثانوى فى الحياة اليهودية فى فلسطين .

وإذا تركنا فلسطين واتجهنا إلى مصر لنعود إلى فلسطين ثانية وجدنا وطن الفراعنة لا يزال يرسل شعاعه الروحى على سكانه والمستجيرين به أن مصر وطن موسى والتوراة والعقيدة اليهودية لا زالت مصدر التوجيه العقائدى اليهودى إبان عصر الحكم اليونانى إذ كانت مصر مأوى ومهجر اليهود فقد انتشر اليهود فى كنانة الله وجالهم وقتذاك حالهم أيام الآباء الأولين الذين وفدوا على مصر وتكاثروا فيها وتمتعوا بجميع الحقوق التى يتمتع بها المصريون واليونانيين وفى مصر تركز اليهود فى الإسكندرية خاصة كما اهتموا بطرق النقل البحرى واعتمد الرومان على الحاصلات الزراعية المصرية فاهتم اليهود بتجارة الحبوب وبيعها لروما ونقلها على السفن اليهودية فتجمعت ثروة التجارة والنقل فى يد اليهود فازدادوا ترفاً وأبهة كما اهتموا بثقافة اليونانية والعلوم فكان يهود مصر الركيزة التى اعتمدت عليها اليهودية أين وجدت .

شمعون ويوحنا هيركان (١٤٣ — ١٠٦ ق . م .) .

اقتفى شمعون أثر أخيه يوحنان ، أعنى انتهز فرصة ضعف العدو فقام وحصن البلاد وقواها لتوسيع رقعتها ، وهكذا نجد شمعون يحرر البلاد نهائياً من سوريا وجعل من مملكة يهوذا دولة مستقلة كما تخلص من الحزب المقدونى لذلك يوسف

عهد حكم شمعون الذى دام تقريباً تسع سنوات على أنه العصر الذهبي للبلاد إذ مكن الشيخ أن ينعم بحياة الهدوء فى خريف حياته وأخذ الشاب يفرح بشبابه والفلاح يتمع بالجلوس تحت كرمه أو تينته .

ولكى يؤمن شمعون نفسه من سوريا فكر فى وضع نفسه وبلده فى خدمة روما عاصمة الطغيان فى ذلك العصر فارسل وفداً إلى روما راجياً وضع بلده تحت حمايتها وذلك بوضعه ضمن رابطة دول الإمبراطورية الرومانية ورحبت روما بهذه الفكرة لأنها اعتبرتها الخطوة الأولى للاستيلاء عليها نهائياً وأعلنت روما قرارها بضمها إلى الرابطة رسمياً عام ١٤٠ ق . م . ولم يكد يمضى قرنان على هذا الاعلان حتى طلبت روما من يهود فلسطين تكريم واحترام القيصر الرومانى والدعاء له فى المعبد وتلت هذه الخطوة خطوة أخرى تمت بعد ثلاثين عاما من هذا الطلب قضت على الشعب اليهودى قتلا وسبياً وتشريداً وشاءت الأقدار أن بطلميوس بن هبوب زوج ابنة شمعون اغتال شمعون عندما كان يقوم بجولة فى البلاد وفى رفقه زوجه وأبناه الصغيران فمر فى رحلته بحصن بالقرب من أريحا وهناك استقبله ابن هبوب استقبالا حسناً وأولم وليمة فاخرة لشمعون ومن معه وفى أثنائها انقض على شمعون وولديه « يزدا » و « متاتيا » وقبض عليهم وكان ذلك فى فبراير عام ١٣٥ ق . م . أما ابنه الأكبر « يوحنان » فقد نجا لأنه كان قد تخلف . وهكذ مات آخر أبناء متتياهو المكابى فلم ينج واحداً منهم من القتل .

إلا أن « يو حنان » لما علم بالخبر سارع وأخذ زمام المبادرة لمقاومة « ابن هبوب » وإحباط رغبته فى الاستيلاء على الحكم بمساعدة سوريا فقام يوحنان بعدة أعمال عسكرية ضد خصومه وبخاصة الهيركانيين لذلك اشتهر باسم « يوحنان هيركانو » ثم أرسل وفداً إلى روما يعرض عليها حمايته للصداقة اليهودية الرومانية كما أشار إلى استيلاء سوريا على ميناء يافا وغيرها فاستجابت روما إلى نداء يوحنان وأرسلت إلى انطيوخوس تطالبه بإعادة الأماكن التى استولى عليها إلى اليهود ثانية كما حذرته روما من محاولته القيام بأى عمل فدائى ضد اليهود وكان ذلك حوالى عام ١٣٣ ق . م .

واستغل اليهودى هيركان هذه الحماية الرومانية وضعفت الجبهة الداخلية السورية وقرر توسيع رقعة حدود بلاده على حساب جيرانه من الشعوب الأخرى وفى ذلك الوقت أعنى عام ١٢٤ أرسل يهود أورشليم بزعامة المجلس الأعلى إلى يهود مصر وزعيمهم (يهودا أريستوبول والذى ينتمى إلى أسرة كهنوتية عريقة ومدرس الملك رسائل يطالبون فيها يهود مصر بالاعتراف بتطهير المعبد الأورشلمى من رجس الجوييم والاحتفال سنوياً بهذه الذكرى .

ولم تقف مطامع (هيركان) أو يهود إقليم يهودا عند هـذا بل نجده يدبر خطة أخرى للقضاء على الشعوب غير اليهودية المحيطة باقليم يهودا ففى الجنوب نجـــد الأدوميين وفى قلب يهودا نجد السامريين الأعداء الألداء وعلى الضفة الأخرى من الأردن نجد اليونانيين ولـكى ينجح هيركان فى تنفيذ خطته التوسعية هذه قرر الاستعانة بجنود مرتزقة ولتمويلهم نبش قبر داود واستولى على ما به من ثروة وبدأ بالأردن فاستولى على مدينة مادبا Medaba و (ساميجاس Samegas) على بحيرة طبرية ثم أخذ يستولى على المدن السامرية تدريجياً فحطم (زيشيم Sichem) والمعبد القائم على جبل • جرزيم Garizım (وأخذ اليهود يحتفلون سنوياً بيوم الاستيلاء على هذه البلاد وتحطيمها .

ولم يكتف اليهود بالاستيلاء على هذه البلاد بل أجبروا الأدوميين على اعتناق اليهودية وحطموا معابدهم الأخرى وهكذا نجد اليهودية بزعامة (يوحنان هيركان) تضيق ذرعا بالعقائد الأخرى فتقضى عليها .

وترتب على إرغام الأدوميين على اعتناق اليهودية بعـد الاستيلاء على بلادهم إن اندلعت نيران الحرب ثانية بين اليهود وبين الســامريين وذلك لأن أغلبية سكان مدينة السامرية كانوا من اليونانيون أو السوريين وإمعاناً فى اضطهاد المغلوبين نقل اليهودى • يوحنان هيركان (عدداً من الأدوميين الذين اجبروا على اعتناق اليهودية من إقليم (ماريسا) إلى إقليم سماريا فدفع هـــذا

العمل الانتقامى سوريا إلى الانتقام من اليهود فهاجموا إقليم يهوذا واستولوا على عدة أماكن ساحلية ومن بينها « يافا » فشكا اليهودى « هيركان » السوريين لدى روما حامية اليهودية واستجابت روما لتوسلات اليهود فهاجم اليهود سامريا واستولوا عليها بعد حصار طويل شديد وساووا بينها وبين الأرض فلم يترك اليهودى منزلا قائماً ومحوا معالم المدينة نهائياً وكان ذلك حوالى عالم ١٠٩ ق. م. وهكذا استطاع اليهود بمساعدة روما الارتفاع بقدراتهم إلى مستوى جيرانهم من حيث القوة والمكانة إذ انتصر اليهود على جيرانهم الذين كانوا يهددونهم فاتسعت رقعة إقليم يهودا بعد أن كسر اليهود الحصار المضروب حولهم وزحف اليهود إلى العالم الخارجى فنمت ثروتهم وازداد خطرهم وبخاصة لما سقطت طرق القوافل بين مصر وسوريا فى ايديهم وانتهز يهود مصر الشحناء التى قامت بين ملك مصر « بطلميوس لاثوروس Ptole-maeus Lathuros ووالدته التى كانت تنازعه على عرش مصر واضطرته إلى الهرب إلى قبرص وأخذت ترميه بالجيش وراء الجيش للقضاء عليه نهائياً إلا أن الجيوش المصرية انضمت هناك إلى الملك فما كان من امه إلا أن سيرت إليه جيشاً يهودياً مصرياً تحت قيادة « هلكيا Helkia » و « أنانيا Anania » ابنى « أونياس » فحققا رغبة أم الملك التى كانت خاضعة لنفوذ وتوجيه يهود مصر الذين يديرون الخطة لإضعاف مصر وشل يديها عن تقديم مساعدة لأصدقائها فى فلسطين وسوريا وهكذا نجد يهود مصر يعملون مع يهود إقليم يهوذا يداً واحدة لتحقيق هدف مشترك الا وهو الاستيلاء على أكبر رقعة فى الشرق أولا وإضعاف جيران اليهود الذين قد يهددونهم ثانية وخصوصاً بعد أن تعلم اليهود من جيرانهم فنون الحرب والتسليح وإقامة الحصون وضرب النقود وزخرفة المعار فقد شيدت الأسرة الحشمونائية قصراً فخما على الطراز اليونانى وأمامه قاعة تعرف باسم كسيستوس Xystos لعقد الاجتماعات الشعبية وفى مدينة ماديا وطن الأسرة أقيمت مقبرة من الرخام على الطراز اليونانى . وفى هذا العهد ظهرت الفرق الدينية المختلفة ألا وهى الحسيديم والاساة والفريسيين والصدوقيم .

أما الفريسيون قد اشتقوا اسمهم من اهتمامهم بتفسير الشريعة وعن هذا التفسير أثبتت قوانين أخرى وشعارهم المحافظة على اليهودية أعنى الشريعة واحترام سنن السلف الصالح وأى انحراف عن أصل الشريعة أو السنة يعتبر كفراً .

أما الصدوقيون فكانوا يقولون بمذهب الغاية تبرر الواسطة فالمسائل الدينية يجب ألا تقف عقبة فى سبيل تحقيق غاية سياسية ويسخر الفريسيون منهم ويقولون ويقدرون فتضحك الاقدار فمقدرات الدوله والأفراد لاتتوقف على الناس بل على الله فاذن لاداعى للانحراف فلا القوة البشرية ولا الذكاء البشرى ولا القوة العسكرية تقرر حاضر الشعب اليهودى أومستقبله بل إرادة الله هى الأولى والأخيرة ، وهكذا تصطدم الفرقتان الدينيتان حول كثير من المسائل الدنيوية والدينية والثواب والعقاب .

ثم نجد طائفة الصدوقيين تسلك طريقاً سياسياً خاصاً وذلك لأن معظم أعضائها من أغنياء اليهود ورجال الجيش والساسيين الذين جمعوا كثيراً من الثروات والتجارب نتيجة أسفارهم واتصالاتهم بالعالم الخارجى وكان شعارهم الوطن أولا والدين ثانياً وهم يؤمنون بأن الإيمان بالله والتمسك بشريعته لا يكفيان لضمان سلامة واستقلال الدولة اليهودية ، ويقول الصدوقيون إن منح الفرد حرية الإرادة ليختار الوسيلة التى تلائمه لكى يعيش حياة سعيدة فالإنسان هو سيد نفسه وسيد مقدراته والله لايتدخل فى المسائل الخاصة بالبشر أما الثواب والعقاب فيناله الفرد من النتيجة التى تأتيه من عمله ولا ضرورة لأن يؤمن الإنسان بالبعث بعد الموت. وفيما يتعلق بالشريعة وما إليها ووجوب احترامها والعمل بها فالصدوقيون يؤمنون بالشريعة المكتوبة فقط والواردة فى الأسفار الخمسة الأولى أعنى التوراة أما الأحكام الأخرى التى جاءت عن طريق الرواية أو نشأت فى عصور أخرى فلاقيمة لها ولا الفرد غير مطالب بالإيمان بها أو احترامها . فالفرق الرئيسى بين الصدوقيين والفريسيين يتناول المسائل القضائية والطقوس وأن اختلفت الطائفتان حول الطقوس المتعلقة بالمعبد .

وغير هاتين الطائفتين ظهرت طائفة « الإساة » وهى أصلا امتداد للحشمونائيم الذين كانوا يعنون بصفة خاصة بتقديس السبت حتى حرموا على أنفسهم الغائط والبول يوم السبت، كما تخلصوا من الرذائل وملاذ الحياة وكانوا متزمتين جداً حتى أن مجرد ملامسة شخص آخر يخالفهم يعتبر نجاسة تلزمهم الطهارة أو تقديم القرابين ، لذلك كانوا يبتعدون عن المرأة حتى كأنهم يحرمون الزواج وكانوا ضد الحرب وينفرون من الجنود حتى العائدين منهم من المعركة الذين نجستهم جثث الموتى لذلك اختاروا لإقامتهم أماكن نائية عن الناس فأقاموا فى الصحراء الواقعة غرب البحر الميت فى واحة «عين جدى » كما رفضوا الملكية الفردية وذلك لأن كل فرد منهم يعيش فى الجماعة والجماعة تعمل متعاونة للحياة وكانوا يلبسون ملابس بيضاء ويحمل كل فرد منهم جاروفاً حتى إذا اضطر إلى إخراج شيء من السليلين شق الأرض . وعلى كل فرد أن يستحم كل صباح كما يفعل الحاخام قبل الصلاة تأكيداً لطهارة جسده .

وحدث أن « هيركان » الحشمونائى ناصر الصدوقيين على الفريسيين فغضب هؤلاء ومن ورائهم الشعب المتدين فدب بغض الشعب للحشمونائيم . وتوفى « هيركان » عام ١٦٠ ق م . وقد بلغ الستين عاماً وترك خمسة أولاد (أريستوبول) و (أنتيجونوس) و (الكسندر) و (أسلون) ولا نعرف إسم الخامس . وبعد وفاته دب الشقاق بين اليهود كما حدث من قبل عقب وفاة سليمان بن داود .

خلفاء هيركان أريستوبول :

لما حضرت « يوحنا هيركان» الوفاة عين زوجته ملكة، وإبنه الأكبر «يهودا» أو كما يعرف فى اليونانية بإسم « إريستوبول » كبيراً للحاخاميين ، فطرد أمه من العرش وجمع هو بين الوظيفتين . ولم يكتف « اريستوبول » بطرد أمه من العرش بل زج بها فى السجن ومعهـا ثلاثة من إخوته ولم يرع إلا أخاه « أنتيجونوس » الذى كان يتفق معه فى مشاريعه ونظرته إلى الحياة وآرائه السياسية فأشركه معه فى الحكم وسار سيرة أبيه فخاصم الفريسين وأقصاهم عن نشاطهم فبغضه الشعب ونفر منه اليونان وأنصار الثقافة الهللينية فرأى اليونان فيه الصفة اليهودية الوضيعة بينما

تبين اليهود فيه غلاظة القلب والقسوة ،وقد ترك أمه في السجن تموت جوعاً ، كما يقال أيضاً أنه دبر قتل أخيه « إنتيجونوس » غيرة منه .

وأراد « إريستوبول » توسيع رقعة بلاده فمد حدود إقليم يهوذا شمالا بشرق حتى بلغت مشارف دمشق ، واقتفى أثر والده فهود الشعوب التي غلبها على أمرها .

ومات اريستوبول بعد أن ملك سنة واحدة فقط (١٠٦ — ١٠٥) ق.م .

فجلس على العرش أخوه الأصغر « يوناثان » أو كما يسمى أحياناً مختصراً « ينای » أو في اليونانية « الكسندر » وتزوج من « سالومی » التي تسمت فيما بعد « الكسندرا » . ورغب في الاستيلاء على بعض المدن الساحلية فاستولى على ميناء « بطليموس يهوذا » وهي قريبة من «عكا » الحالية ، فلجأ سكانها إلى مصر فانتهز الأمير « بطليموس لاثوروس » هذه الفرصة وسارع لتوسيع رقعة ممتلكاته وكان قد استولى على قبرص بسبب الحرب التي نشبت بينه وبين أمه ورغب « لاثوروس » الاقتراب من مصر براً فسارع وأرسل ثلاثين ألف مقاتل إلى شاطىء إقليم يهوذا ، فضرب الجيش اليهودى ضربة قاضية ، فقتل من قتل وأسر منه كثيرين كما هرب آخرون وانتقم لنفسه لا من الأسكندر فقط ، بل من اليهود أنفسهم ، وبخاصة فإن يهود مصر كانوا قد ضايقوه كثيراً بخياناتهم وعدائهم له فهم الذين حرضوا أمه كليوبطره عليه وأوهموها أنه بعد أن يفرغ من فتح يهوذا سينقض عليها في مصر ويستولى عليها، فعبأت جيشاً قوياً تحت قيادة قائدين يهوديين وهما « حلقيا » و « انينا » إبنى « أونياس» الذين سارا بهذا الجيش إلى يهوذا وسوريا طامعين في الثأر لليهود الذين نكل بهم « لاثوروس » تنكيلا جباراً واصطدم الجيشان وقتل «حلقيا» وانتصر «عنيانيا» وجيش مصر على «لاثوروس» ورغب يهود مصر من كليوبطرة تجريد الاسكندر من العرش وضم أملاكه إلى مصر إلا أن كليوبطره رفضت هذا الاقتراح يقيناً منها أن مثل هذا الضم قد يفهم أنه استيلاء على إقليم يهوذا فيتعاون يهود مصر وغيرها مع أعدائها للقضاء عليها لذلك رأت الإبقاء على الاسكندر وعقدت معه معاهدة دفاع مشترك حوالى عام

٩٨ ق . م . للدفاع عن مملكة يهوذا ضد أى عدوان خارجى . إلا أن الاسكندر سلك مسلكا أثار علية طائفة الفريسيين لاستهتاره بطقوس المعبد نشأ عنه ضعف فى الجبهة الداخلية وتصدع خطير ، ومما زاد الطين بله جنونه بحب التوسع والغزو مما أغضب الملك النبطى العربى «عبيدة» فانقض على الاسكندر بجيش قدم به من شرق الأردن فأباد الجيش اليهودى ولم ينج الاسكندر من الموت إلا هرباً إلى أورشليم فزادت هذه الهزيمة من إشاعة الفوضى ، فاندلعت الثورات الداخلية طيلة ستة أعوام (٩٤ — ٨٩) ق . م . ولم يستطع الاسكندر القضاء على الاضطرابات الداخلية إلا بفضل الجنود المرتزقة . ولما أعيته الحيلة طلب مصالحة الفريسيين فأبوا إلا قتله واتفق الفريسيون مع الملك السورى «ديمتريوس أويكاروس Demetrios Eukaeros» على احتلال البلاد فهرب الاسكندر من وجه الجيش السورى وهام على وجهه فى جبل إفزايم ، ثم جمع حوله نفراً من أنصاره وأسر عدداً من الفريسيين وصلبهم كما قتل نساءهم واطفالهم وإبان هـذه المذبحة التى صلب فيها نحو ثمانمئة رجل فأثارت هذه المذبحة وهذا الصلب حنق القوم حتى لقبوه باسم طرازير « Thrazier » كما هرب من وجهه عدد كبير من اليهود الى سوريا ومصر .

ولما حضرته الوفاة عين امرأته ملكة وأحاطها بجماعة من المستشارين الذين يتولون زمام الأمور وأوصى الملكة بأنه عندما يفارق الحياة تسلم جثته للفريسيين الذين ناصبهم العداء طيلة حياته ، والفريسيون إما ينتقمون من جثته فيشبعون شهوتهم الانتقامية أو يغفرون له ذنوبه ويوارونها التراب حسب الطقوس الشرعية ، وقال جملته شهورة « لا تخف الفريسيين الصادقين ولا الخصوم الحقيقيين بل أخشى المنافقين الملونين الجانبين . » .

آخر ملوك الحشمونائيم (٦٩ — ٣٧) ق . م :

لا شىء يعجل بزوال الدولة مثل التنازع على الرئاسة وتحريض كل طائفة شعبية على الأخرى وإقحامها فى هذه المنازعات التى تضعف الأمة وتمكن عدوها منها .

فقد قررت الملكة « سالومى الكسندرا » وهى تعانى سكرات الموت التنازل عن العرش لابنها البكر ، الا وهو « هيركان الثانى » عملا بالشريعة الموسوية وقد اشتهر هذا الرجل بطيبة القلب مع ضعف فى الإرادة بخلاف أخيه الأصغر « أريستبول الثانى » الذى كان يشبه أباه قسوة ووحشية إذ لم تكد تغمض الملكة عينيها ويتولى « هيركان » الملك إلا وهجم « أريستبول » يعاونه الصدوقيون على أورشليم لإنزال أخيه من على العرش والذى كان يسانده الفريسيون والشعب والجنود المرتزقة الذين كانت تمولهم الملكة ، وتنفق عليهم وقد نجح « أريستبول » فى القبض على امرأة أخيه الملك وأولاده وأخذهم رهينة . وفى أريحا التقى الاخوان المتنازعان على رأسى جيشيهما وخسر « هيركان » المعركة وهرب إلى أورشليم وذلك لأن معظم المرتزقة هربوا وانضموا إلى أريستبول » الذى نجح أيضاً فى الاستيلاء على المعبد وأسر خصومه الذين كانوا لاذوا به ، وأصبح أريستبول سيد العاصمة والمعبد وهكذا ضاع العرش الذى جلس عليه هيركان ثلاثة شهور فقط وضماناً لاستقرار الأمر اقترن ابن (أرستبول) المسمى (الكسندر) بابنة (هيركان)المسماه (الكسندرا) وهكذا انتصر الصدوقيون على الفريسيين .

وشعر (أريستبول) بالخطر الذى قد يقضى عليه إذا ما تمكن الصدوقيون من الانتقام من الفريسيين أو محاولة فرض تعاليمهم على سائر اليهود بالقوة . وشاءت الأقدار أن أحد الآدوميين الذين هودهم قوة واقتهاراً « يوحنان هيركان »وسنحت له الفرصة للانتقام لبنى جنسه . وهذا الأدوس هو « انتيباتر Antipater » بن « انتيباس Antipas من أسرة أدومية كريمة وكان ثرياً ذكياً وسياسياً عظيما حتى عينه الاسكندر حاكما على إقليم أدوميا فكان يتمتع بحب الجميع من آدوميين وغيرهم من الأنباط وسكان قطاع غزة وعسقلون كما وقع اختيار « هيركان » عليه ليكون مستشاره الخاص بعد أن فقد صولجه ونصح « انتيباتر » الأدومى للملك المخلوع أن يحتكم بخصوص عرشه الضائع إلى شخصية أجنبية ولتكن شخصية « أريتاس Aretas » ملك النبط ، وهرب كل من « أنتيباتر » و« هيركان » من أورشليم

إلى (بطزة) عاصمة الملك النبطى (أريتاس) ورجاه (هيركان) أن يناصره لاسترداد عرشه الشرعى، فإذا ما تم له هذا فإنه سيتنازل للملك النبطى عن اثنى عشر مدينة تقع فى شرق وجنوب غرب البحر الميت فتحرك (أريتاس) على رأس جيش من خمسين ألف مقاتل إلى مملكة يهوذا والتحم عام ٦٦ ق . م بجيش (أريستوبول) وهزمه واضطر (أريستوبول) إلى الهرب إلى أورشليم فلاحقه (أريتاس) للاستيلاء على أورشليم ، فلم يكد يهود أورشليم يرونه حتى هربوا من أورشليم ، ولجأ معظمهم إلى مصر .

وانتهزت روما هذه الحرب وكانت فى ضيق مالى فساومت الملكين اليهوديين المتنازعين ، أعنى (هيركان وأريستوبول) على المسارعة إلى تقديم الذهب اللازم إلى القائد الرومانى (سكوروس) فقدم « أريستوبول » كمية وفيرة من النقود الذهبية بينما اقتصر «هيركان » على بذل الوعود، لذلك سارع « سكورس» وطالب « أريتاس » بفك الحصار عن أورشليم وإلا سيتعرض لانتقام روما التى كانت تخشى زيادة قوة الملك النبطى العربى «أريتاس» وكان ذلك عام ٦٥ ق.م، واغتر «أريستوبول» واعتقد أنه سيد الموقف والملك القوى وقد داعبه هذا الغرور عامين (٦٥ – ٦٣ ق . م) إذ هاجم القائد الرومانى « بومبيوس » أورشليم واحتل مملكة يهوذا وهكذا نجح كفاح المكابيين ضد السوريين ثم تلاشى فى أواخر عهدهم وتم للرومان احتلال البلاد واستعباد اليهود وانتهز « هيركان » هذه الفرصة ولجأ إلى روما طالباً منها التحكيم بينه وبين أخيه وبخاصة فقد جرد « بومبيوس » الملك « هيركان» من لقبه الملكى واحتفظ بلقب الحاخام الأكبر و « أمير الشعب » ووضعه تحت سيادة « انتيباتر » الأدومى الذى عينته روما حاكما على البلاد وفرضت جزية على اليهود .

والآن نتساءل ما نوع الجزية التى فرضتها روما على اليهود ؟ لم تكن هذه الجزية من نوع الذى جرت عادة الرومان عليه، وليست الجزية التى كانت تفرضها على الشعب المنهزم أعنى تأميم الأراضى الزراعية والحدائق والمراعى مع تركها لأصحابها يستغلونها

كمستأجرين فقط على أن يوردوا بعض محصولها نظير الانتفاع بهـا أو تركت بعض الأراضى لأصحابها الذين أدوا خـدمات للرومان أو منحت روما أراضى الذين اوقعوا فى الأسر لآخرين يستغلونها ؟

والواقع أن شراهة الرومان فى امتلاك الأراضى تفوق كل شراهة وذلك لأن الرومان لما أخضعوا البلاد اليهودية واستولوا عليها فتتوها إلى ملـكيات صغيرة وعادوا بها إلى ما كانت عليه قبل الحـكم الحشموناتى ، كما أعلن « بومبيوس » أن جميع الموانى أو المدن الساحلية والتى تقطنها جاليات يونانية مدن حرة وتركها لسكانها كذلك الحال مع كثير من المدن الداخلية أو الواقعة على الضفة الأخرى للاردن كما استقطع من قليم يهوذا كثيراً من المدن مثل « سماريا وبيت شـان » ومدن أخرى فى وادى يزرعئل ضم معظمها إلى سوريا ، كما ساق « بومبيوس » بعد انتصاره على أورشليم « أريستبول » وابنه « أنتيجونوس » وابنتيه وعمه « أبسالون » إلى روما لينضموا إلى مسيرة الأمراء الذين هزمهم « بومبيوس » وأسرهم ، والذين طلب إليهم أن يسيروا أمام عربة « بومبيوس » فى مسيرة النصر عام ٦١ ق . م .

فهؤلاء اليهود الذين عرفوا روما عن طريق الأسر وجدوا ولا شـك يهوداً آخرين فيها وفدوا من مصر وكانوا يعملون فى تجارة الغلال بين مصر وروما وقد كانوا يقيمون على الضفة اليمنى لنهر التيمبر المواجهة لجبل الفاتيكان . وما كادت الحياة تدب فى هؤلاء اليهود حتى أخذوا يتدخلون فى توجيه الرأى العـام الرومانى إلى مصلحتهم مما اضطر أمثـــال « أبولونيوس مولو » وتلميذة « شيشيرون » إلى بذل الجهود لمقـاومة هذا الخطر اليهودى وبخـــاصة فى دفاعه فى قضية « فلا كوس Flaccus » فقد هاجم شيشيرون اليهود وأفصح عن غرائزهم الشريرة وجرائمهم الشنيعة .

تطور العمائر الاسلامية بتطور وظائفها

بقـلم

د. سعاد ماهر

من الثابت أن الفن الإسلامى التشكيلى قام على أسس من فنون البـلاد التى فتحها المسلمون أو خضعت لهم، ذلك أن طبيعة شبه الجزيرة العربية الصحراوى، وانتقال البدو من مكان إلى آخر سعياً وراء الـكلأ والمرعى لم يكن ليساعد على قيام فنون تشكيلية، اللهم إلا فى أطراف شبـه الجزيرة ، كالمناذرة المتاخمين للدولة الساسانية ، والغساسنة المجاورين للدولة البيزنطية ، واليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبـه الجزيرة. حيث قامت فنون ضارعت فنون معاصريهم من الفرس والرومان .

على أن الفاتح العربى لم يقبل كل ما وجده من تلك الفنون على ما هـو عليه ، بل استبعد منها ما كرهه الدين أو مالا يوافق مزاجه الخاص ، ثم جمـع ما اختاره منها وصهره فى بوتقة بعد أن طبعه بطابعه الخاص، الا وهو الـكتابة العربية. وهكذا نستطيع القول أن الفن الاسلامى أخذ قوامه الروحى من وسط شبه الجزيرة العربيـة ، أما قوامه المـادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كان للفن فيها قوة وحياة .

ولعل أبرز فروع الفن الإسلامى التى تأثرت بالجانب الروحى، هى العمارة، التى عنى المسلمون الأوائل أن تـكون مهمتها الأولى خدمة الدين، ومن ثم فقد تطورت العمائر الدينية تطورا سريعا ساير ركب الحضارة الإسلامية الفنية، فتعددت أشكالها وأساليبها تبعا لتعدد وتغير وظائفها .

وقد بدأت العمارة الإسلامية ببناء المساجد والأربطة فالمدارس والمصليات والخوانق والأسبلة والتـكايا . على أننا إذا أردنا أن نتتبع تطور العمارة الإسلامية وجـدنا أن المسجد حجر الزاوية فيها .

ولقد كان أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة هو بناء مسجد للمسلمين فى مربد التمر الذى بركت فيه ناقته. وكان بناؤه بدائيا بسيطا، وكانت مساحته ٧٠ × ٦٠ ذراعا وجدرانه من اللبن، سقف جزء منه بسعف النخيل وترك الجزء الآخر مكشوفا وجعلت عمد المسجد من جذوع النخل.

وقد نهج المسلمون هذا النهج فى بناء مسجد البصرة سنة ١٤ هـ ومسجد الكوفة سنة ١٧ هـ، كما اتبع عمرو بن العاص هذه السنة فى بناء مسجده فى مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ. وكانت مساحته وقت انشائه ٥٠ × ٣٠ ذراعا وجدرانه من اللبن وأعمدته من جذوع النخل وتسوده البساطة. وكانت مساجد البصرة والكوفة ومصر خالية من المحاريب المجوفه ومن المنابر والمآذن على غرار مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما أراد عمرو بن العاص أن يتخذ له منبرا فى مسجده. كتب إليه الخليفه عمر بن الخطاب يأمره بكسره قائلا له: «أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك» فكسره، ولم يقتصر اتباع السنة فى ذلك الوقت على بناء المساجد فحسب بل تعداه إلى الدور والمنازل، فقد حدث بعد وقوع الحريق بمدينة الكوفة أن أرسل سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب وفدا يستأذنه فى البناء باللبن فقال عمر «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات (غرف) ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة».

وكان المسلمون فى العصر الإسلامى الأول يقتصرون على استعمال كلمة المسجد لأماكن العبادة. والمسجد فى اللغة هو الموضع الذى يسجد فيه، فلما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية وزاد عدد المسلمين بزيادة من دخل فى الاسلام من أهل البلاد التى فتحها المسلمون، تعددت المساجد فى البلد الواحد، كما تعددت الألفاظ التى تطلق على أماكن العبادة فأصبح هناك مسجد وجامع. والجامع هو نعت للمسجد لأنه مكان اجتماع الناس ويطلق على المسجد الكبير. وفى ذلك يقول المقريزى:

ولما افتتح عمر بن الخطاب البلدان كتب إلى أبى موسى الأشعرى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة، ويتخذ للقبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة

انضموا إلى مسجد الجماعة. وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك أيضا . فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدى فى المسجد الجامع[1] .

ومن ثم فقد أصبح للفظ الجامع مدلول سياسى فى عهد الدولة الأموية فقد عرف بالجامع ، المسجد الذى يؤم فيه الخليفة أو من ينوب عنه المسلمين فى صلاة الجمعة أى أن لفظ الجامع أصبح يطلق على مسجد الدولة الرسمى الذى كان يعرف باسم المسجد الجامع .

وبطبيعة الحال لم يبق تخطيط المسجد على ما كان عليه فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، بل أخذ يتطور ويساير ركب الحضارة الإسلامية ، فقد رأت الدولة الأموية أن لا تقل مبانيها ، الدينية بصفة خاصة ، قيمة وقدرا عن المعابد المسيحية واليهودية فى مصر والشام ومن ثم فقد بنى المسجد الأموى بتخطيط وأسلوب يختلف عن تخطيط المساجد الأولى ، وكان ذلك لضرورة اقتضتها ظروف الدولة الجديدة والشعوب ذات الحضارات والفنون التشكيلية المتقدمة التى دخلت فى الاسلام ، وأصبحت تكون عناصر هامة فى الامبراطورية الاسلامية الناشئة .

هذا ولم تقتصر وظيفة المسجد فى المجتمع الاسلامى الجديد على تأدية الصلاة فحسب بل كان يؤدى عدة وظائف أخرى لعل أهمها الناحية الثقافية ، ففى أروقته وحول أعمدته تعقد حلقات الدرس والوعظ والارشاد . كما كانت تعقد فيه الجلسات لفض المنازعات الدينية والمدنية ، كذلك كان به بيت المال كما كان الحال فى المسجد الأموى وجامع عمرو ، وفيه كان جلوس متولى الحسبة . من هذا يفهم أن المساجد فى العهد الأموى وأوائل العصر العباسى ، على أقل تقدير كانت تمثل دور الحكومة فى مفهومنا الحديث ، إلى جانب وظيفتها الأساسية الدينية . وبديهى وقد أصبح المسجد يؤدى خدمات ووظائف متعددة تختلف باختلاف الشعوب والبيئات أن تتعدد الأساليب المعمارية فى بناء المساجد ، وإن اتخذت جميعها مقومات العمارة الاسلامية وجوهرها . فقد كانت معظم المساجد حتى القرن الرابع الهجرى تحتوى

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ٢٤٦

على صحن مكشوف تحيط بة الأروقة من ثلاث جهات أو من جهتين على أن يكون أكبر الايوانات هـو رواق القبلة لأهميته كما احتوى كل مسجد على محراب ومنبر ومئذنة وفى كثير من الأحيان على ميضأة .

أما تخطيط المسجد ، فكان غالباً مربعاً فى العراق وإيران ومستطيلا فى مصر والشام وشمال أفريقيا . وتعليل ذلك سهل ميسور ، فأماكن العبادة السابقة على الإسلام فى بلاد ما بين النهرين كانت ذات تخطيط مربع ونعنى بها (الاتش جاه) أى بيت النار ، أما فى غرب العالم الإسلامى حيث كانت تسوده المسيحية فكانت كنائسهم معظمها ذات تخطيط مستطيل .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بدأت تظهر فى شرق العالم الإسلامى أسماء جديدة لأماكن العبادة عرفت بالمدارس ، ثم انتشرت فى غرب العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى وهذا التغير فى الإسم لابد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر .

كذلك صاحب التغير فى الاسم تغيرات جوهرية فى التخطيط المعمارى . وقد اختلف علماء الآثار والمؤرخون فى وظيفة العمائر التى عرفت بالمدارس ، ولعل أقربها تلك المناقشة الحادة التى دارت فى الندوة العالمية لألفية القاهرة حول هذا الموضوع . وهو هل كانت المدارس فى أول نشأتها تؤدى وظيفة المدرسة أوهو مجرد تشابه فى الإسم لا فى الوظيفة . لذلك رأيت قبل أن أتكلم عن نشأة المدرسة ووظيفتها أن أذكر شيئاً عن أنواع الثقافات التى عنى المسلمون بها فى العصور الوسطى . ونستطيع أن نجمل هذه الثقافات فى قسمين كبيرين ، الأول ويشمل دراسة علوم الأقدمين ، وقد أطلق عليها العرب إسم علوم الأوائل ، وتشمل الرياضة والطبيعة وعلم الفلك والطب والفلسفة وعلم الديانات وما إليها وكانت تدرس فى عمائر تسمى (دار العلم) أما القسم الثانى من الثقافة فيشتمل على العلوم الاسلامية التى تقوم أساساً على القرآن وما جاء فيه من أحكام والحديث النبوى ، ومن هذين المصدرين تشعبت دراسات أخرى دينية وقضائية واجتماعية .

ومدينة نيسابور هى أول مدينة إسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) وكان ذلك فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى ، وقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الأسطرلابى ومدرسة أبو إسحق الأصفهانى (١) المتوفى سنة ٤١٨ هـ . وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية مدة خمسين عاماً ثم قضى عليها تماماً بعد قتل وزير طغرل بك ، إلا أنها بعثت من جديد على يد نظام الملك أعظم (٢) رجل تولى الوزارة فى عهد السلاجقة قاطبة ، بل وأعظم وزراء الشرق فى عصره ، فقد ظل وزيراً لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه . وقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية فى نشر المذهب السنى ومناهضه المذهب الشيعى ، وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون إدارة الشئون الادارية وما إليها فى دولة السلاجقة .

وقد أنشا نظام الملك كثيراً من المدارس الأولى منها فى نيسابور وذلك فى منتصف القرن الخامس الهجرى وأعقبها فى بغداد وطوس والبصرة وأصفهان وهرات وبلخ (٣) وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس فى كل الولايات السلجوقية .

وما فعله نظام الملك فى إيران وجنوب العراق فعله الأتابكة فى الموصل ودمشق وفعله نور الدين وصلاح الدين فى شمال العراق وسوريا . وهكذا نرى هؤلاء الأمراء ذوى الأصل الكردى أو المغولى والمتعصبين للمذهب السنى ، هم الذين نشروا المدارس فى غرب العالم الاسلامى .

نخلص من هذا أن الشيعة هم أول من أنشأ العمائر الثقافية التى كانت تعرف من قبل باسم دار العلم ، كما أنهم أول من أطلق عليها إسم المدرسة ، والغرض الأساسى

---

(1) L. Mass guou: Ler Nedreseh de Bagdöel (B I.F A O) ual,VII P P 78 - 9

(2) F q Brown: Lierary History of Pers : a, vol II p p 175-214

(3) Van Berchom: (C l A) Egypt p p 25 - 60

من إنشائها هو تدريس ونشر المذهب الشيعى . وكان ذلك فى القرن الرابع الهجرى إبان حكم محمود الغزنوى . وفى القرن الخامس الهجرى نشر الأمراء الأكراد والمغول ذووى المذهب السنى هذه المدارس فى غرب العالم الإسلامى كما جعلوها منشآت عامة تشرف عليها الدولة على خلاف مدارس الشيعة الخاصة فى القرن الرابع الهجرى .

وما قيل عن العالم الاسلامى عامة يمكن أن يقال عن مصر خاصة ، فكما نشأت المدارس فى شرق العالم الاسلامى على يد الشيعة ، على أنها معاهد خاصة ، نشأت فى مصر على يد السنيين كمعاهد خاصة كذلك . فقد جاء فى ابن ميسر(1) أن الوزير رضوان بن الولخشى أنشأ مدرسة فى الاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ لنشر المذهب الشافعى. ويقول ابن خلكان(2) أن ابن سلار وزير الخليفه الفاطمى الظاهر انشأ مدرسة سنة ٥٤٦ هـ فى الاسكندرية كذلك . ويذكر القلقشندى(3) أن مسرور أنشأ مدرسة سنية بالقاهرة فى عهد الدولة الفاطمية ، فلما جاء صلاح الدين إلى مصر نشر هذه المنشآت الثقافية وجعلها عامة بعد أن كانت خاصة من قبله . وكان غرضه الأول من ذلك هو القضاء على المذهب الشيعى مذهب الفواطم وذلك بنشر المذهب السنى عن طريق المدارس .

أما عن التخطيط المعمارى للمدرسة فمن الثابت أن التخطيط الأول كان عبارة عن إيوان واحد فى الضلع المواجه للقبلة أما الأضلاع الثلاثة الأخرى فكانت تحتوى على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس كان معظمها مخصصاً لمذهب واحد ، فقد أحصى كرزويل ثمانين مدرسة فى سورية بينها ٣٣ مدرسة مخصصة للمذهب الحنفى و(٣١) المذهب الشافعى وتسع للحنابلة وواحدة للمالكية ومن بينها ست مدارس للمذهبين هما الشافعية والحنفية .

أما عن مدارس مصر فقد أمدنا المقريزى بمعلومات على جانب عظيم من الأهمية فقد أحصى عدد المدارس الموجودة حتى عصره فى القرن (١٥) وتبلغ (٧٢) مدرسة وقد قام الأستاذ كروزويل بترتيبها ترتيباً زمنياً ، ودرس الموجود منها حتى الآن فتبين له أن المدارس الأولى كانت ذات أيوان واحد لأنها كانت مخصصة لمذهب واحد . وأول مدرسة خصصت لمذهبين كانت المدرسة الفاضلية التى أنشأها

(١) ابن ميسر : نشر ماسيه Massé ص ٨٣

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ص٤٣ ، ج ٢ ص١٣ ، ١٤

(٣) القلقشندى : صبحى الأعشى ٣ ص٣٥٦

صلاح الدين سنة ٥٨٠ هـ هما المذهب والمالكى والشافعى، وذلك بعد بناء المدرسة الأسدية، أول مدرسة خصصت لمذهبين فى سوريا سبقت مصر باثنى عشرة عاماً . وتعتبر المدرسة الكاملية المبنية سنة ٦٢٢ هـ والتى ما تزال باقية، وأن كانت فى حالة خربة ، أقدم مدرسة ذات أيوانين باقية حتى الآن . ومما يؤيد أن المدرسة الكاملية كانت تحتوى على أيوانين فقط، أن الجانب الشمالى الشرقى من المدرسة يشغله الآن حمام يعرف باسم حمام السلطان وعلى خريطة الحملة الفرنسية يعرف باسم حمام بيصارى الذى حل محل قصر الأمير بيصارى الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٦٥٩ هـ .

والمدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين سنة ٦٣٩ والتى احتلت جزءاً من قصور الفاطميين ، إذ يقول المقريزى أنها تقع بحى بين القصرين فى القاهرة وأنها من جملة القصر الكبير الشرقى ، وهى مع احتوائها على أربعة أيوانات للمذاهب السنية الأربعة إلا أن تخطيطها يعتبر فى الواقع تكراراً للمدرسة ذات الأيوانين إذ أنها تتكون من مجموعتين تفصل بينهما حارة الصالحية الآن ويجمعهما مدخل المدرسة الرئيسى الذى تعلوه المئذنة .

وكان المقريزى دقيقاً فى وصفه للمدرسة إذ يقول عنها :

فبنى الملك الصالح نجم الدين أيوب هاتين المدرستين ، فأبتدأ بهدم موضع هذه المدارس فى قطعة من القصر فى ١٥ ذو الحجة سنة ٦٣٩ وفى سنة ٦٤١ هـ رتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة وهو أول من عمل بمصر دروساً أربعة فى مكان واحد ، ودخل فى هذه المدرسة باب القصر المعروف بالزهومة وموضعه قاعة شيخ الحنابلة الآن .

والجزء الباقى من هذه المدرسة هو المجموعة الجنوبية التى تتكون من أيوانى الشافعية فى الشرق والمالكية فى الغرب أما المجموعة الثانية التى تتكون من أيوان الحنفية فى الشرق وأيوان الحنابلة الذى حل محل باب الزهومة فى الغرب فقد بنيت

مكانها مجموعة من الحوانيت وأن كانت واجهه المجموعة ما تزال موجودة وبحالة لا باس بها .

وتعتـــبر المدرسة الصالحية أول مدرسة فى مصر ذات أربعة أيوانات ولـكنها ليست متعامدة كما أنها ليست أول مدرسة فى العالم الإسلامى درست المذاهب الأربعة، فقد سبقتها المدرسة المستنصرية (١) فى بغداد بعشر سنوات والتى خصصت للمذاهب الأربعة بالإضافة إلى دارين أحدهما للحديث وأخرى للقرآن ، أى للقراءات السبع . ورغم تخصيص هذه المدارس الأربعة إلا أن تخطيطها غير متعامد كما أنها لا تشبه تخطيط المدرسة الصالحية .

على أننا نستطيع القول بأن أول مدرسة فى مصر احتوت على أربعة أيوانات متعامدة هى المدرسة الظاهرية التى بناها السلطان الظاهر بيبرس البند قدارى سنة ٦٦٢ هـ وتمت فى سنة ٦٦٢ هـ وتشغل قاعة الخيم وباب الذهب من القصر الشرقى الـكبير(٢) . وللاسف لم يبق من هذه المدرسة غير إيوان واحد هوالإيوان الجنوبى الشرقى وبه المحراب وكتلة من الواجهة مساحتها ١١ × ٥ متراً ملاصقة لضريح الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسوق النحاسين شارع المعز لدين الله الآن (الصاغة) . فقد تهدمت المدرسة سنة ١٨٨٢ عندما شق طريق بيت القاضى وقد ترك لنا المقريزى من التفاصيل الدقيقة ما يؤيد ما ذهبت إليه بحوث الأثريين فى القرن العشرين فهو يقول . وجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوان، منها. الشافعية

Massignon : Le Medraseh de Bagdad P.80 & Herzfeld : Archaologische Reise im Euphrat und Tigrisgebiet II.P.161. & Creswell: Origin of the Cruciform Plan of Cairere Madrossas .P.36.

(٢) المقريزى ج ٤ ص ٢١٦ (طبعه النيل) .

بالإيوان القبلى . والحنفية بالإيوان البحرى . وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء بالقراءات السبع بالايوان الغربى » .

على أن أول مدرسة خصصت للمذاهب الأربعة فى مصر وذات تخطيط متعامد هى المدرسة الناصرية . وهى تقع بجوار القبة المنصورية، فى شرقيها كان موضعها حماما فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه . فأبتدىء فى وضع أساسى وارتفع بناؤها عن الأرض إلى نحو الطراز المذهب الذى بظاهرها فلما خلع كتبغا وعاد السلطان الملك الناصر محمد ين قلاوون إلى السلطنة للمرة الثانية سنة ٦٩٨ هـ . فأمر بإتمامها فكملت سنة ٧٠٣ هـ . وإلى هذه المدرسة نقلت واجهة كنيسة بعكا كان قد استولى عليها السلطان الاشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠ هـ . ونقلها إلى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى[1] .

وإذا جازلنا أن نقول أن المدارس إنما إنتشرت فى مصرفى العصرالايوبى لمحاربة المذهب الشيعى ونشر المذهب السنى . فإن تصميم مدرسة السلطان[2] حسن بن محمد ابن قلاوون التى بدأ إنشاؤها سنة ٧٥٧ هـ يدل دلالة واضحة على أنها إنشئت بقصد الثقافة والعلم بالاضافة إلى الدعوة إلى السلطان . وتتكون المدرسة من أربعة إيوانات متعامدة تحيط بالصحن خصصت للمذاهب الأربعة وبجانب كل من الايوانات الأربعة مدرسة .

وتبلغ مساحة المدرسه الحنفية على سبيل المثال ٨٩٨ متراً مربعاً . ويتكون تخطيط المدارس الاربعة جميعها

من ايوان وصحن تتوسطه فسقية ثم طبقات بعضها فوق بعض تشرف على صحن المدرسة وعلى الواجهات . وقد قرر السلطان حسن لهـــذه المدارس مدوسين

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٢٢ .

(٢) هرتس باشا : تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ .

ومراقبين وعين لهم مرتبات[1]. كما قرر لـكل مذهب من المذاهب الأربعة شيخاً ومائة طالب وعين طبيبين أحدهما باطنى والآخر كحال يحضران كل يوم بالمسجد لمداواة من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة . ورتب ثالثاً جراحاً . وقد أرصد فى وقفتيه مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين وقيمه ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة وما يصرف لهم فى الأعياد .

وهناك رأى للدكتور أحمد فكرى، لم يسبق إليه خاصاً بوظيفة المدرسة ، وقد جاء فى البحث الذى تقدم به سيادته للندوة العالمية وموضوعه خصائص عمارة العصر الايوبى ، فقد أثبت أن وظيفة المدرسة الرئيسيه لم تـكن هى التدريس فحسب . فقد كانت المساجد تتخذ للتدريس منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك فى مسجد قباء . وفى مصر كانت الدروس تلقى فى جامع عمرو وفى الجامع الطولونى والأزهر والحاكم . بل أن وظيفة المدرسة الرئيسية فى العصر الايوبى كانت إعداد أماكن ملحقة بموضع التدريس لسكنى طبقة مختارة من المدرسين والطلاب . وإنى إذ أوافق أستاذنا الدكتور أحمد فكرى على ما ذهب إليه من الناحية المعمارية وهو أن المساجد الجامعة التى كانت تلقى فيها الدروس على أقل تقدير منذ القرن الثانى للهجرة . لم تـكن فيها أماكن لسكنى المدرسين والطلاب : وأننى أرى أن السبب الأساسى فى نشأة العمائر التى عرفت باسم المدرسة لم تـكن فى الواقع القصد منها إيجاد أماكن للمدرسين والطلبة . وإنما يرجع إلى عامل سياسى دينى مذهبى » القصد منه هو نشر المذهب المخالف لمذهب الدولة الرسمى متخذين من اسم المدرسة ستاراً يتسترون وراءه . فالمدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبواسحق الاسفرانى التى أنشئت فى عهد محمود الغزنوى فى القرن الرابع الهجرى فى نيسابور كان القصد منها نشر المذهب الشيعى المناهض لمذهب الدولة العباسية السنى . كما أن اطلاق اسم

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٨٤ .

المدوسة على تلك العمائر التى أنشئت فى مصر فى عهد الدولة الفاطمية فى القرن الخامس الهجرى على يد الوزير رضوان بن الولخش وابن سلار فى الاسكندرية وابن مسرور فى القاهرة لنشر المذهب السنى كان القصد منه مناوأة مذهب الدولة الفاطمية الشيعى. فلما جاءت الدولة الايوبية بعد دولة الفواطم وجدت فى هذه المنشآت المسماة بالمدارس بغيتها فى نشر المذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى ، فأكثرت من بنائها حتى بلغ ما أنشىء من المدارس فى العهد الايوبى أربعا وعشرين مدرسة فى القاهرة واثنتين فى الفيوم ، وجعلت منشآت عامة بعد أن كانت منشآت خاصة فى العهد الفاطمى . ثم أخذت فى تطوير عمارتها حتى أصبحت تفى بكل مطالب المدرسة من صلاة وتدريس وإيجاد أماكن للدارسين . وقد اكتمل التخطيط المعمارى للمدرسة فى العصر المملوكى ومن أحسن الامثلة لها مدرسة السلطان حسن بن محمد ابن قلاوون سنة ٧٥٧ هـ .

ومن العمائر الدينية الهامة عند المسلمين الخانقاوات التى انتشرت فى القرن الرابع للهجرة جعلت لايواء الصوفية فيها للعبادة .أما عن نشأة التصوف فيذكر المقريزى(١) نقلا عن أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، أن المسلمين بعد رسول الله لم يتسم أفاضلهم فى عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ لافضيلة فوقها فقيل لهم الصحابة ولما أدرك أهل العصر الثانى سمى من صحب الصحابة التابعين ، وقيل لخواص الخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين الزهاد والعباد. وانفرد خواص أهل السنة المراعون انفسهم مع الله باسم متصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة وغلبت التسمية على هذه الطائفة فيقال رجل صوفى وللجماعة الصوفية .

وهناك رأى آخر فى نشأة التصوف فى الاسلام يورده المقريزى ولكنه لا يفسره

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٧١

قال : « المتصوفون ينسبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورأى ثالث قال : « أنه من الصفاء » .

أما عن العامة مبان لسكنى هؤلاء المنقطعين ، فان أول من اتخذ بيتا للعبادة زيد بن صوحان بن صبرة وذلك إنه عمـد إلى رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة وليس لهم تجارات ولا غلات فبنى لهم دوارا وأسكنهم فيها وجعل لهم مايقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس وغيره .

وهناك نرى أن عمائر الزهاد نشأت منذ القرن الاول للهجرة ولكنها انتشرت فى شرق العالم الاسلامى فى القرن الرابع ، أما فى مصر فقد انتشرت المبانى المخصصة لإقامة الزهاد المنقطمين للعبادة الذين عرفوا بالمتصوفين فى العصر الايوبى ، فقد أنشأ صلاح الدين الأيوبى أول دارلهم . وقد عرفت هذه الدور فى مصر كما عرفت فى مشرق العالم الاسلامى باسم الخانقاة أو الخانكة . وهى كلمة فارسيه معناها البيت وقيل أصلها خونقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وعرفت خانقاة صلاح الدين باسم الخانقاه الصالحية وهى بخط[1] رحبة باب العيد من القاهرة وكانت أولا دارا تعرف فى الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء . فلما تولى صلاح الدين ، عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من خارج البلاد ووقفها عليهم فى السنة تسع وستين وخمسمائة ورتب لهم معاشهم .

ويتبين من الفقرة السابقة التى أوردها المقريزى ، أن خانقاه الصالحية كانت عبارة عن دار فاطمية قديمة أتخذت دارا للصوفية وبذلك نستطيع القول أن الخانقاة وجدت فى العصر الايوبى أما اتخاذ تخطيط معمارى خاص بها فلم يظهر ألا فى العصر المملوكى . ولعل أقدم الامثلة لها وأ كملها الخانقاة التى بناها ركن الدين بيبرس الجاشنـكيرى قبل أن يـلى السلطنة وهو أمير ، فبدأ فى بنائها سنة ٧٠٦ هـ وبنى بجانبها رباطا كبيرا

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٢٧٣

يتوصل إليه من داخلها وجعل بجانب الخانقاة قبة لكى يدفن بها . ومن جملة شبابيك القبة كما يقول المقريزى الشباك الذى حمله الامير أبو الحارث البساسيرى من بغداد لما غلب الخليفة العباسى القائم بأمر الله ووضع بدار الوزارة الفاطمية ولمستمر فيها إلى أن عمر بيبرس الخانقاة المذكورة فجعله بالقبة .

وتقع الخانقاة بحى الجمالية وهى من جملة دار الوزارة الكبرى وتبلغ مساحتها فدانا وثلث فدان . وتتكون الخانقاه من صحن على جانبيه الشرقى والغربى ايوانان معقودان وهى فى ذلك تشبه المدارس ذات الايوانين . أما الجانبان الآخران فقد أنشىء بهما خلوات للصوفية بعضها فوق بعض .

ومن العمائر التى انتشرت فى العصر الايوبى الاضرحة التى أخذت شكلا معينا وهو مربع مغطى بقبة . على أن اقامة الاضرحة ليست حدثا فى العصر الايوبى ، فقد أقامت الدولة الفاطمية كثيرا من الاضرحة وقصرتها على أهل البيت وكبار رجال الدولة من الشيعة مثل السيدة نفيسة ورقية وعاتكة والجعفرى وبدر الجمالى وعرفت بالمشاهد، أسوة بما أطلق على أضرحة الأئمة من العلويين . فلما جاءت الدولة الأيوبية رأت أن تحول الانظار عن اضرحة الشيعة وذلك ببناء أضرحة لأئمة السنة ، فأقامت أم السلطان الملك الكامل قبة الامام الشافعى سنة ٦٠٨هـ واجرت عليها الماء من بركة الحبش ومنذ ذلك الوقت أقبل الناس على بناء مقابر موتاهم بجوار الامام الشافعى وعرفت تلك المنطقة المجاورة بالقرافة الصغرى . ويعتبر ضريح الامام الشافعى اكبر الاضرحة فى مصر على الاطلاق وأقدم قبة خشبية بمصر وذلك أذا استبعدنا الاضرحة الملحقة بالمدارس والخانقاوات، أذ تبلغ مساحته ٤٠٠ متر مربع تقريبا وارتفاعه ٢٩ مترا . ومن الطريف أن قبة الامام الشافعى يعلوها عشارى طولها متران ونصف وقد اختلف المؤرخون والاثريون فى تفسير وجود العشارى فوق القبة ، فقال البعض أنها أعدت لوضع الحبوب للطيور والبعض الآخر قال أنها رمز على أن الامام الشافعى بحر فى العلوم والمعارف اعتمادا على قصائد

الشعر التي احتوت هذا المعنى والتي تذكر منها بعض أبيات من قصيدة البوصير صاحب البردة :

بقية قبر الشافعي سفينة رست في بناء محكم فوق جلمود
ومذ غاض طوفان العلوم بقبره استوى الفلك من ذاك الضريح على الجودي

وقال أبو الفتح موسى بن ملهم في القرن الرابع عشر :

مررت على قبة الشافعي فعاين طرفي عليهم المشاري
فقلت لصحبي لا تعجبوا فان المراكب فوق البحار

على أني أرى بالاضافة إلى المعنى السابق أنه يريد بالاضافة إلى وصفه بالعلم بأنه بحر العلوم والمعرفة أنه لايقال عن أئمة الشيعة ، الذين قصر الفواطم لفظ الامامة عليهم درجة ومنزلة .

ومن الاضرحة الهامة في العصر الايوبي ضريح السادات الثعالبة ، والخلفاء العباسيين وضريح شجر الدر ، ثم ضريح الصالح نجم الدين أيوب الذي يمكن اعتباره أول ضريح الحق بمدرسة . ثم أصبحت القاعدة بعد ذلك الحاق القباب بالمدارس والمساجد والخانقاوات .

أما في العصر العثماني فقد اختلف تصميم المساجد اختلافا كبيرا عن العمائر الدينية السابقة فلا هو تصميم مسجد ولا هو تصميم مدرسة . وهنا لا نستطيع القول أن الوظيفة هي الدافع في تغيير تخطيط المساجد العثمانية ، بل هو دافع سياسي أرادت به الدولة العثمانية صبغ الولايات التابعة لها بتبعية فنية لتأكيد التبعية السياسية .

فقد اتخذ العثمانيون من طراز المصليات السلجوقية في القرن الخامس الهجري ساسا لعمائرهم الهامة[١] . وكان قوام التخطيط العثماني هو القبة الكبيرة المبنية من

(١) نجد وصفا مفصلا لمصلى (Barsiyan) بارسيان بالقرب من أصفهان للمقدسي في كتابه احسن التقاسيم .

Arthur Pope: Survey of Persian Art. Vol. II P. 990

الحجر عادة وتحيط بها من جميع الجهات فيما عـــدا جهه القبلة أيوانات محمولة على أكتاف تعلوها قباب ضخمة . ومن أحسن الامثلة لذلك مسجد سنان باشاومسجد محمد على بالقلعة الذى يعتبر نسخة من مسجد السلطان أحمد باسطنبول .

ومن العمائر الدينية الاخرى فى العصر العثمانى غير المساجد ، التـكايا التى حلت محل الخانقاوات فى العصر العثمانى إذ أنها تؤدى نفس الوظيفة أى أنها خاصة باقامة المنقطعين للعبادة ولـــكنها تطورت بعـــد ذلك وأصبحت خاصة باقامة العاطلين من العثمانيين الوافدين على البلاد ،ومن هنا قيل عنها أنها مأوى (تنابلة السلطان) ،أى الـكسالى الذين لاعمل لهم .أما من حيث التخطيط فهى مجموعة من الطرز والاساليب المعمارية فهى أساسا تشبه تخطيط المنزل الاسلامى ذى الصحن المتسع وتوجد بالدور الأرضى مجموعة من الايوانات والقاعات المتسعة ومسجد .وبالادوار العليا توجد غرف للمبيت ثم يلحق بالتـكسية مطبخ ودورات مياه ومنزل لشيخ التـكية .

التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربي
في العصر العباسي

دكتور ابراهيم احمد العدوى

صارت الدولة العباسية في حقيقة جوهرها — منذ تأسيس بغداد — دولة خليج عربي ، وجزء لا يتجزأ من عالمه وأهله[1] . وقد ورثت هذه الدولة عظمة دول الخليج القديمة التي سبق أن أسسها الآشوريون والكلدانيون ، وأخيراً الفرس الساسانيون وعرف العباسيون من هذا التراث الهائل الذي آل إليهم ولاعتمادهم بصفة خاصة على الفرس في إدارة دولتهم أمثل السبل للنهوض بأحوال الخليج العربي وتنمية هذا المصدر الأساسي من مصادر الدخل في دولتهم . وكانت الحقيقة الهامة التي وقف عليها العباسيون من تراث الماضي أن العقبة الخطيرة التي واجهت دول الخليج القديمة والتي حالت دون سلامتها هو فشلها في تنمية موارد تلك البلاد بسبب التنافر الذي سيطر على سواحل الخليج الثلاثة والتناحر الذي ساد سكان تلك السواحل من أجل الاستئثار بأكبر قدر ممكن من ثروات الخليج لأنفسهم دون مراعاة للصالح العام[1] .

---

(١) كان لتأسيس بغداد على دجلة الذي تجرى مياهه إلى الخليج العربي أثر في ربط هذه العاصمة بتجارة الشرق الاقصى في الهند والصين التي تأتي إلى الخليج ، فضلا عن تدفق سلع الجهات المجاورة عليها . وعبر عن ذلك مؤسس بغداد الخليفة أبو جعفر المنصور ، فقال « هذه دجلة ، وليس بيننا وبين الصين شيء ياتينا منها كل ما في البحر » ثم أضاف هذا الخليفة أيضا عن بغداد موضحا أنها « مشرعة للدنيا » كل ما يأتي دجلة من واسط والبصرة والإبلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين وما يتصل بذلك فاليها تلقى وبها ترسى » .

انظر : الطبرى، تاريخ الرسل والملوك (المطبعة الحسينية) ج ٩ ، ص ٢٣٨ ، اليعقوبى، كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) يعتبر الهجوم الذى قام به أكابرة الفرس على البحرين والشاطىء العربي للخليج زمن كسرى المشهور باسم سابور ذى الاكتاف نموذجا لهذا الطمع الذى اساء إلى اقتصاديات الخليج العربي قبل الاسلام .

واتجهت سياسة العباسيين منذ أيامهم الأولى إلى العمل على تخليص بلدان الخليج العربى من تلك الروح العدائية والقضاء على رواسبها كذلك بين السكان اعتمدت تلك السياسة العباسية الحديدة على تنمية للموارد الاقتصادية لبلدان الخليج،ثم تنسيق التكامل الاقتصادى بينها بما يهيىء لكل بلد من تفجير طاقاتها الكامنة بشكل يحقق لأهلها أولا الرفاهية والطمأنينة، ويمكن الدولة العباسية ثانياً من السيادة،وأخذ النشاط التجارى للخليج العربى يستند لأول مرة فى تاريخه ــ بفضل سياسة العباسيين ــ إلى زراعة واسعة وصناعة راقية أسهمت فيها كل بلد من البلدان حسب إمكانياتها وقدراتها . وغدا طريق الخليج على عهد العباسيين منطقة جذب كبرى للتجارة العالمية ، تجد فى موارد بلدانه ما يغذيها ويوسع مجالها.فالتجارة فى كل مكان وزمان ليست إلا نتاجا لما تفيض بة ميادين الزراعة من محاصيل وما تخرجه ميادين الصناعة من سلع وأدوات على اختلاف الأشكال والأنواع .

واستلزمت تنمية الموارد الاقتصادية لبلدان الخليج العربى عودة العباسيين إلى التنظيم الإدارى الساسانى الذى جعل من المقاطعات البحرية المطلة على الخليج وحدات لها كيانها المستقل عن الجهات الداخلية المجاورة لها(١) . واشتملت تلك المقاطعات البحرية على بلاد العراق التى يجرى فيها القسم الأوسط من دجلة والفرات ثم التقائهما معا فى شط العرب إلى الخليج العربى.وكذلك مقاطعتى عمان والبحرين على الشاطىء العربى الخليج ، وأخيراً مقاطعات هوزتان وفارس وكرمان على الشاطىء الفارسى الخليج . وكانت معالم هذه المقاطعات قد تعرضت بعد الفتح الاسلامى وطوال عهد الأمويين للتغيير والتبديل حسب مقتضيات الفتوح وسياسة الأمويين فى دمشق.فكانت عمان والبحرين تنضم أحيانا إلى اليمامة ونجد بوسط شبه الجزيرة العربية،وأحيانا

---

(١) لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية(ترجمة كوزكيس عواد ، بغداد ١٩٥٤ ص١٤)
Wilson, The Pesian (Gulf London 1956) .

كان والى الكوفة يشرف على تلك المقاطعات ومنها المقاطعات الفارسية حتى بلاد ماوراء النهر ، ولا سيما زمن الفتن التى واجهت الأمويين فى العراق، وأيام الفتوحات الأموية فى الشرق أيضا(١) .

وحدد العباسيون منذ أيامهم الأولى معالم النظام الإدارى لبلدان الخليج العربى وذلك بالعودة إلى نظام المقاطعات البحرية الذى ساد أيام الفرس الساسانيين والاحتفاظ كذلك بأسمائها وأقسامها المحلية ، التى اتفقت مظاهرها ومعالمها مع البيئة الجغرافية لعالم الخليج العربى . فظلت كل مقاطعة تنقسم طبقا للنظام الفارسى إلى كور أو أساتين وكل كورة أو أستان إلى رساتين وكل رستان إلى طساسيج وشرح الجغرافى ياقوت هذه المصطلحات الإدارية قائلا : الكورة إسم فارسى بحت يقع على قسم من أقسام الاستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها إسما للاستان. . . . . فالكورة والاستان واحد. . . .(٢) .

« والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع إسمها ذلك إسم الكورة كقولهم . . نهر الملك (بالعراق) فانه نهر عظيم ، مخرجه من الفرات ويصب فى دجلة ، عليه تمر ثلاثمائة قرية، ويقال لذلك جميعه نهر الملك . . »(٣) وانتقل ياقوت إلى شرح معنى الاستان قائلا إنه فى الأصل يعنى المأوى ، ثم صار الاستان والكورة شيئاً واحداً . وأوضح أن الاستان ينقسم بدوره إلى الرساتين ، وينقسم الرستان إلى الطساسيج وينقسم كل طسوج إلى عدد من القرى . .(٤)

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ١٤٩ .
(٢) حتى ، تاريخ العرب (مول — بيروت ١٩٦٥ ، ج ٢١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .
(٣) ياقوت ، معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) ج ١ ، ص ٣٧ .
(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٦

« وأما الرستان : فهو .. مشتق من دوذهفستا .. ودوذه إسم للسطر والصف والسماط ، وفستا إسم للحال .. والمعنى أنه على التسطير والنظام . قلت: الذى عرفناه وشاهدناه فى زماننا فى بلاد الفرس إنهم يعنون بالرستان كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد وهو أخص من الكورة والاستان . »(١)

« وأما الطسوج .. فهو أخص وأقل من من الكورة والرستان ، والاستان ، كانه جزء من أجزاء الكورة .. لأن الكورة قد تشتمل على عدة طساسيج ، وهى لفظة فارسية أصلها تسو ، فعربت بقلب التاء طاء ، وزيادة الجيم فى آخرها ، وزيد فى تعريبها بجمعها على طساسيج . وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة فى سواد العراق وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجا ، أضيف كل طسوج إلى إسم »(٢) .

ومهد العباسيون عند احتفاظهم بالنظام الادارى الساسانى لبلدان الخليج العربى على تطهيره فى نفس الوقت من عيوبه القديمة التى تجلت فى التفرقة بين سواحله وسكانها . ونجح العباسيون فى ذلك بفضل اتباعهم النظام المركزى منذ أيامهم الأولى والذى يستهدف مراقبة العمال والاشراف الدقيق على أحوال البلاد. وساعد العباسيين على دعم هذه الخطوة انتظام ديوان البريد ، الذى اهتم به الخليفة أبو جعفر المنصور اهتماما عظيما ، واتخذه أداة لربطه بسائر أرجاء الدولة ، ومعرفة أحوال رعيته والمبادرة إلى رفع أى حيف أو غبن يقع عليها . وعبر الخليفة أبو جعفر المنصور عن الطابع الجديد الذى استهدفه من الادارة على عهده قائلا :

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٧
(٢) ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٣٨

« ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة معز لا يكون على بابى أعف عنهم فقيل له يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح إلا لهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى ، وهى : اما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى من ظلمها غنى . والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه ، قيل له من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى غير هؤلاء على الصحة »[1] .

ونالت بلدان الخليج العربى قدرا كبيرا من هذه العناية الادارية العباسية ، فتولى إدارة المدن الكبرى فيها عمال وفق النظام الذى تحدث عنه الخليفة المنصور ، مع آخرين تتفق مهامهم مع طبيعة تلك النواحى التجارية . وكان من هؤلاء العمال الكبار : القاضى وصاحب البريد والبندار وصاحب المعونة[2] وساد تلك البلدان أيضا الرخاء الاقتصادى الذى سهر الخليفة المنصور على تحقيقه إذ حرص على مراقبة الأسعار باعتبارها عنوانا على الأحوال الاقتصادية والعمل على عدم ارتفاعها ضمانا لاستقرار الناس وتوفيرا لأسباب العيش الكريم لهم . فكانت ولاة البريد فى الآفاق كلها « يكتبون إلى المنصور أيام خلافته ، فى كل يوم : بسعر القمح والحبوب والادم ، وبسعر كل مأكول وبكل مايقضى به القاضى فى نواحيهم ، وبما يعمل الوالى ، وبما يرد بيت المال ، وكل حدث .. فإذا أوردت كتبهم نظر فيها ، فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك ، وإن تغير شىء منها عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذلك عن سعره فإذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقته حتى يعود سعره ذلك إلى حاله »[3] .

---

(١) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ، ص ٢٩٧

(٢) متز ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (ترجمة أبو ريده) (١٩٥٧) ج ٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣١٤

وبلغ من انتظام البريد فى عهـــد أبى جعفر المنصور أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم ، فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا اليه بما جرى فى الليل من أمور (١) . واستطاع الخليفة أن يحقق هدفه الاقتصادى وهو توفير الرخاء للناس ، حتى قال أحد معاصريه « رأيت فى زمـن أبى جعفر المنصور كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة روانق ، والتمر ستين رطلا بدرهم ورأيت ستة عشر رطلا بدرهم . والسمن ثمانية أرطال بدرهم . »(٢)

ونقلت طرق البريد المتفرعة من بغداد إلى سائر بلدان الخليج العربى صـورة زاهرة عن هذا الرخاء الاقتصادى الذى ساد تلك الأرجاء ، وهزم رجال الادارة هناك إذ دأب العباسيون على تعيين كبار العمال فى بلدان الخليج من أبنـاء البيت العباسى نفسه أو من كبار رجالات الدولة المشهود لهم بالولاء للبيت العباسى والقدرة على تحقيق سياسته. وغدت بلدان الخليج العربى تشعر بالترابط والمودة لأول مرة فى تاريخها ، حتى صار الخليج العربى بحيرة عباسيه ينعم أهله فى ظل الادارة العباسية بالطمأنينة ويأتيهم رزقهم رغدا .

ووصف الجغرافيون والرحالة المسلمون هذه الروح الجديدة التى سرت فى بلدان الخليج العربى ، وما اقترن بها من تنمية اقتصادية واسعة النطاق إذ جعل النظام الادارى العباسى من مقطاعات الخليج العربى وحدة مترابطة أشبه بالطائر له صدر وجناحان. أما الصدر فهو مقاطعة العراق ، والجناح الأيمن ضم عمـــان والبحرين التى صارت مقاطعة واحدة حاضرتها البصرة فى العراق أما الجناح الأيسر فانتظم مقاطعات الساحل الفارسى للخليج والتى ظلت تحمل نفس أسمائها وتعدادها القديم وهى : خوزستان وفارس ثم كرمان .

---

(١) Von Kremer, Orient under the Caliphs, P. 233.

(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ج١ ، ص٨٠ ؛ الجهشيارى، الوزراء والـكتاب (تحقيق السقا) ، ص١١٧

أولا : العراق أو السواد :

انتظم العراق فى ظـل النظام الإدارى للدولة العباسية نفس المقاطعة البحرية التى أنشأها الفرس الساسانيون حين نقلوا عاصمتهم إلى المدائن من أجل السيطرة على طول الخليج العربى وعالمه [١] . فـكانت بلاد العراق تعنى نفس اشتقاقها اللغوى من الملوسة وهو الأراضى الواطئة [٢] إذ جرى سهل العراق الفسيح امتـــداد طبيعيا لحوض الخليج العربى نحو الشمال على شكل مستطيل منبسط ينحصر بين جبـــال زاجروس وكروستان من جهة الشرق وبين الهضبة الصحراوية من جهة الغرب غير أن العباسيين فضلوا أخلاق (السواد) على بلاد العراق إمعانا فى التمييز بين هـــذا الاقليم الخصيب الحافل بانحدار مجرى دجلة والفرات وفروعها المديدة نحو الصحراء الممتدة فى كل من بلاد العرب وجنوب الشام [٣] .

ووضع العباسيون لعاصمتهم بغداد نظام إداريا يدعم روابطها مع أرض السواد باعتبارها جزء من عالم الخليج العربى . ذلك أن بغداد كانت بفضل شبكة الملاحة النهرية التى أقامها العباسيون تطل بوجهها نحو الخليج العربى وتعتبر مدينة من أهم مدنه ، ومعلما كبيراً فى حياتة الاقتصادية . ولذا حرص العباسيون فى نظامهم الإدارى على جعل بغداد إحدى حواضر إقليم السواد ، فضلا عن مكانتها باعتبارها مقر الخلافة وعاصمة الدولة العباسية . فـكان القسم الشرقى من بغداد حيث قصور الخلافة تحت إشراف الخلفاء أنفسهم : أما باقى أرجاء العاصمة فـكانت تتبع إداريا طسوج بادورايا [٤] ، أشهر نواحى العراق خصوبة وزدهارا بالزراعة .

---

(١) Wilson . op cit. 60.

(٢) حتي : تاريخ العرب — مطول (بيروت ١٩٦٥) ج ١ ، ص ٢١٠

(٣) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩ ، ٦٢٥) .

(٤) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٢٤٢ ، متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٧٣

واقتضى هذا الوضع الإدارى لبغداد ، فضلا عن نظرة العباسيين إلى العراق باعتباره أرض السواد أن تكون الزراعة والثروة الزراعية موضع الاهتمام الرئيسى للخلفاء وعمالهم . واستطاع العباسيون تنمية الزراعة بالعراق عن طريقين ، أولهما تنظيم وسائل الرى والثانى توسيع رقعة الأراضى الصالحة للزراعة . أما عن الأولى فكانت مجارى دجلة والفرات لا تطلب إلا شق الترع والقنوات لتوصيل المياه إلى الأراضى الزراعية . وتولى دجلة رى مساحات واسعة من الجانب الشرقى للبلاد وتحويلها إلى حقول لزراعة الحنطة والشعير والأرز . وتولى نهر الفرات رى معظم أراضى السواد ومساهمتها فى الميدان الزراعى بانتاج حاصلات جديدة ، مثل العلس وهو نوع من الحبوب والجاروسى وهو نوع من الدخن(١) .

وتتطلب العامل الثانى وهو توسيع رقعة الأراضى الزراعية صيانة السدود والمسنيات والبثوق . وكان هذا الأمر شاقا ، لأن أرض السواد تعرضت كثيراً للفيضانات وانسياح الماء فى البطائح وتخريب الأراضى الزراعية وكانت المحافظة على السدود تتطلب بدورها سهرا مستمرا لأنها كانت شىء من القصب والتراب الذى يعجز أحيانا عن مقاومة اندفاع الماء . وكان يكفى أن ثغرة يسيرة على إحدى نواحى السد حتى يتولى الماء الهدم والتخريب فربما أنسد فى ساعة تمب سنة أو نحوها (٢) وخصص العباسيون لهذا الغرض طائفة من العمال قائمة بذاتها ، لا مهمة لها إلا حماية الجسور وتوفير السلامة للاراضى الزراعية . وإلى جانب ذلك أقيمت قناطر عديدة على مجارى الأنهار لتنظيم توزيع المياه ومنعها من تخريب الأراضى الزراعية .

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ٢٩٧ وصالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة (بيروت ١٩٦٩ ، ص ١٨٦) .

(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

وحرص العباسيون على تخفيف الأعباء عن كاهل الفلاحين وإتاحة السبل أمامهم للعمل فى طمأنينة وعدالة . وكان من أهم الخطوات التى قام بها العباسيون فى سلك هذا السبيل إلغاء « نظام المساحة » الذى كان معمولا به منذ عهد عمر بن الخطاب — بل من قبل ذلك زمن الفرس الساسانيين وتطبيق « نظام المقاسه [١] » ومعنى نظام المساحة أن يكون هناك خراج مقرر معين على مساحة محددة من الأرض تجتبيه الدولة فى كل عام — جملة أو متجزأ — دون نظر إلى مايحدث من اختلاف كمية المحصول أو اعتبارات أخرى .. أما نظام المقاسة فهو أن تتقاسم الدولة والناس ماينتج من محصول بنسبة معينة : الثلث مثلا للدولة والثلثين للمزارعين دون اعتبار للمساحة . فيغير الخراج بطبيعة الحال بتغير المحصول الذى ينتج [٢] وجاء نظام المقاسة فائدة للفلاحين وتخفيفا للاجحاف عنهم . وقد طبق هذا النظام على جميع ماتنتجه العراق ليس فقط من الحبوب ، بل وعلى التمور والفاكهة أيضا .

وكان يزرع فى العراق أنواع كثيرة من التمور ونجاحه فى البصرة . وترتب على ذلك أن صارت العراق تحفل بالحبوب والفاكهة ، وغدت تجارة المواد الغذائية من أهم مصادر الثروة فى البلاد فصدرت العراق الحبوب ونجاحه إلى جهات الساحل العربى للخليج والجهات الداخلية من شبه الجزيرة العربية التى تفتقر إلى تلك المنتجات الهامة. واشتهرت بعض مدن العراق بأنواع خاصة من التجارة تتفق مع منتجاتها الزراعية، ومن ذلك الكوفة التى اشتغل أهلها بتجارة الزيوت المستخرجة من السمسم .[٣]

صحب الانتاج الزراعى تقدم صناعى كذلك ، فاشتهرت بلاد العراق بصناعة المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية حتى وصفها الجغرافيون والرحالة المسلمون

---

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية (مصر ١٢٩٨ هـ) ص ١٦٨ .

(٢) ضياء الدين الريس ، الخراج (١٩٦٩ ، ص ٤٣٠) .

(٣) متز ، نفس المرجع ، ج ٢، ص ٣٩٠ ، صالح العلى ، نفس المرجع ، ص ١٩٥، ١٩٦

بأنها أكثر الاقطار الإسلامية «صوفا وقزا»(٥) وكانت البصرة أهم مراكز تلك الصناعة وانتاج أنواع جيدة من الخز والبز. وأدى الازدهار الزراعي والتقدم الزراعي إلى قيام تجارة رائجة بالعراق ومع جيرانه كذلك. وسرعان ما ظهرت الحاجة إلى وضع كثير من التشريعات لتنظيم تلك التجارة وحمايتها من جشع التجار. إذ كان أولئك التجار يتلاعبون أحيانا في تجارة الحبوب، وذلك بشراء كميات كبيرة وتخزينها انتظاراً لارتفاع الأسعار ثم بيعها واضطرت السلطات العباسية إلى إغراق الأسواق بمقادير من الحنطة للقضاء على مثل هذا التلاعب وأصاب تاجران من تجار الحبوب على عهد المأمون خسائر فادحة أمام يقظة الإدارة ورقابتها الفعالة. فبعد أن توقعا ربحا مقداره عشرة آلاف درهم انخفض سعر الحبوب وخسرا ستة آلاف درهم (١).

ووضعت السلطات العباسية الأسواق تحت مراقبة دقيقة فبعد غروب الشمس تنتهي الحركة في الأسواق، ويحمل التجار سلعهم إلى المخازن وتخلو الأسواق من الناس عدا الحراس. وجلس في الأسواق رجل يسمى «الناقد» حرفته تمييز الدراهم وفحصها واكتشاف الزائفة منها وطبقت السلطات العباسية أيضاً الشريعة الإسلامية في المعاملات المالية بما يقضي على الربا وغيرة من وسائل التحايل حتى صار البائع والمشتري يتعاملان في ثقة وطمأنينة. وحمل الفقهاء لواء البصرة العباسيين باي خلل يصيب النواحي الاقتصادية وبخاصة عن مساوىء جباة الضرائب وكان أولئك الجباة يتخذون أماكنهم على طرق التجارة النهرية والبرية العديدة بالعراق، وينصبون حبالا بين صفتي دجلة والفرات ويوقفون السفن وتحصيل الضرائب منها حسبما تحمله

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٤٥.
(٢) متز، نفس المرجع، ج ٢، ص ٣٩٦.

من تجارة . وكانت السلطات العباسية تبادر إلى منع أى أذى ينزل بالتجار أو الناس ومراقبة الجباة مراقبة شديدة (١)

ونعمت بلاد العراق زمن العباسيين بذلك برفاهية جعلت وارداتها تزيد على صادراتها ، فكان أهل العراق مثلا يستهلكون كل إنتاجهم من التمر عدا أنواع جيدة تصدر إلى الخارج . وحملت هذه الظاهرة التجارية بلاد العراق على أن تدعم صلاتها مع بلدان الخليج العربى ، باعتبارها أقرب الأرجاء إليها ولتحصل منها على ما يسد حاجاتها ويوفر أسباب الهناء لسكانها . وبدأت حركة التبادل التجارى فى الخليج العربى تلقى قوة دافعة جديدة من مقر العباسيين الزاهر فى بلاد العراق .

ثانياً : ولاية الساحل العربى للخليج :

جعل العباسيون عمان والبحرين ولاية واحدة تشمل الساحل العربى للخليج ، وحاضرتها البصرة فى أرض العراق (٢) . وكان هذا التنظيم يتمشى مع سياسة العباسيين فى الحكم المركزى ، كما يتفق أيضاً مع الأوضاع الجغرافية والاقتصادية للساحل العربى للخليج . فكانت البحرين كما وصفها ياقوت « اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان » (٤) . وأوضح الجغرافى الاصطخرى طبيعة هذا الموقع القائم بنفسه من شبه الجزيرة العربية فقال : « وأما البحرين فإنها من ناحية نجد ومدينتها هجر ، وهى أكثر تمورا ، إلا أنها ليست من الحجاز وهى على شط بحر فارس . . . ولها قرى كثيرة وقبائل من مضر ذوو عدد قد احتفوها

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الدورى ، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى (بيروت ١٩٦٩) ص ٧٠ ، صالح العلى ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(٣) حتى ، نفس المراجع ، ج ١ ، ص ٤٠٧ .

(٤) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

(٥) الاصطخرى ، المسالك والممالك (تحقيق د . أحمد جابر عبد العال ١٩٦١ ص ٢٣

وأكمل الجغرافى ابن حوقل صورة البحرين قائلا : أنها تشمل على مدن ونواحى أهمها « هجر والاحساء والقطيف والعقير وبشة والخرج وأوال »(٥) .

ويتضح من أوصاف الجغرافيين المسلمين أن مدن البحرين ليست إلا أقسام لهذا الساحل اشتهرت بأسماء المدن الكبرى فيها . فهجر كانت المقاطعة الرئيسية ، واشتملت على عدة مدن صغيرة وقرى ، اشتهرت باسم أهمها وهى هجر . وكذلك الاحساء اشتملت على امتداد من الأرض على الساحل العربى للخليج ، قامت به مدن كان من أشهرها الاحساء نفسها التى فرضت اسمها على تلك المنطقة . وعلى هذا النحو جرت أسماء باقى النواحى التى اشتملت عليها بلاد البحرين طبقاً لتعريف الجغرافيين المسلمين . ويبدو أن السبب فى الجمع أو الخلط بين أسماء المدن والجهات المجاورة لها ، هو أن تلك الأرجاء من الساحل العربى كانت مهبط القبائل من وسط شبه الجزيرة العربية طلباً للاقامة بها والبحث عن أسباب العيش على ضفاف الخليج وغدت أماكن الاستقرار تحمل أسماء لا تلبث أن يتسع مدلولها إلى ما جاورها من النواحى ، وأحياناً يبقى الاسم علماً على المدينة التى تفوقت على ما عداها من المدن والقرى .

وقام إلى جوار هذا الساحل عدة جزر هى التى علق بها إلى اليوم اسم البحرين وكانت أشهر هذه الجزر هى أوال بالقرب من القطيف ، وهى فى البحر « على مسيرة يوم للريح الطيب عن القطيف . . . وبها كروم كثيرة للغاية ونخيل وأترج ومراعى(١) » . واشترك فى هذه الظاهرة من الحياة النباتية سائر بلدان البحرين بمعناها عند الجغرافيين المسلمين . فكانت جهات الاحساء نظراً لطبيعتها تحتوى

---

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

على موارد من المياه الجوفية تساعد على قيام نوع من الزراعة البسيطة وبخاصة فى الحبوب إلى جانب النخيل . واشتهرت مقاطعة هجر بانتاجها فى التمر حتى صار يضرب بها المثل المشهور « كناقل التمر إلى هجر » (١) .

وارتبطت بلاد عمان ارتباطا وثيقا بالبحرين بسبب موقعها الجغرافى ، إذ كانت أشبه بجزيرة تحيط بها الصحراء الشهيرة بالربع الخالى من جانب والبحر من جانب آخر ، وهو الأمر الذى جعلها تطل على الخليج العربى وتتلمس فيه بدورها أسباب العيش لأهلها ، ووصف الاصطخرى هذا الموقع الجغرافى لعمان وطبيعة الحياة فيها فقال : « عمان مستقلة بأهلها ، وهى كثيرة النخيل والفواكه الجرومية من الموز والرمان والنبق ونحو ذلك ، وقصبتها صحار وهى على البحر » (٢) . وقد أشار الجغرافيون القدامى من اليونان والرومان إلى أن عمان كانت مدلولا واسعاً ، يمتد غرباً إلى اليمن وشمالا إلى البحرين (٣) . ويبدو أن تلك الأوصاف القديمة هى دلالة على الاتصال البحرى لعمان بكل من اليمن والخليج العربى ، حيث كان البحر هو السبيل الوحيد لاتصالها بالعالم الخارجى وميدان لنشاط أهلها .

وكان العباسيون بذلك موفقين فى ضم كل من عمان والبحرين واعتبارها ولاية واحدة عاصمتها البصرة . وكانت وسائل الاتصال ميسورة بين البصرة وكل من البحرين وعمان بحراً وبراً ، وكذلك المحطات على امتداد تلك الطرق ، والزمن الذى تقطع فيه تلك المسافات أيضاً . ومن ثم علا شأن هذه الولاية الجديدة بالنسبة لدورها فى شبكة المواصلات البحرية والبرية على امتداد طريق الخليج العربى . فكانت المدن التى عددها الجغرافيون المسلمون على البحرين وجزرها مراكز

(١) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٢٧ .
(٣) جواد على ، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام (بيروت ١٩٦٨) ، ج ١ ، ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

هامة للسفن وتموينها، فضلاعن اشرافهاعلى نهاية طرق القوافل البرية عبر الجزيرة العربية، ومن أمثلة ذلك جزيرة أوال نفسها ،وميناء القطيف على ساحل الاحساء ثم ميناء صحار ببلاد عمان .

وحبت الطبيعة الساحل العربى للخليج بمصدر هام من مصادر الثروة الطبيعية ، كان له بدوره أثر عظيم فى عملية التنمية الاقتصادية على عهد العباسيين ، اذاشتهر الخليج العربى بمغاص اللؤلؤ والتى انتشرت أيضافى اجزاء عديدة من المحيط الهندى .غير ان ساحل الخليج العربى عند البحرين أمتاز بانتاج اجودأنواع اللؤلؤ ، والذى تهافتت كل البلاد فى الحصول عليه وبخاصة الصين بالشرق الاقصى .[1] اذ ارتكزت جزيرة البحرين على شط اللؤلؤ العظيم الذى يتألف من تكوينات جيرية من الشعاب المرجانية ، وتوجد على عمق قليل فى مياه الخليج .[2]

وكان العمل يجرى بنشاط واهتمام من أجل استخراج اللؤلؤ فى البحرين حيث كان لتجارة اللؤلؤ دورعظيم فى بناء اقتصاد تلك النواحى .وكان الصيف هو الموسم الغوص على اللؤلؤ حيث يخرج الغواصون لذلك من أول ابريل الى اخر صبتمبر .وجرى استخراج اللؤلؤ على قاعدة هامة ،فكان التجار يؤجرون الغواصون شهرين، ويدفعون لهم أجورهم بانتظام،وفى بعض الاحيان يدفعون لهم مبالغ مقدما ،مقابل استغلال جهدهم . وكان الغواصون يلقون متاعب جمة ، لم تزل منذ اقدم العصور ، أهمها تعرضهم لاخطار البحر [3] .

ووصف المسعودى حياة أولئك الغواصين على اللؤلؤ فأوضح انهم لايتناولون شيئا

---

(١) السعودى ،مروج الذهب ومعادن الجوهر(تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد) ١٩٥٨ ،ج ١ ، ص ١٤٨

(٢) محمد متولى ،حوض الخليج العربى (القاهرة ١٩٧٠) ،ص ٢٧٠

(٣) متز ، نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٢٥ .

من اللحم الا السمك ، ويأكلون التمر ونحوه من الاقوات ، وتشق اصول اذانهم ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين «لان المنخرين يجعل عليها شيء من الذبل وهو ظهور السلاحف البحرية التي تتخذ منها الامشاط ، او من القرن يضمها كالمشقاص لامن الخشب ووما يجعل في آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن ، فيعصرون من ذلك الدهن اليسير في الماء في قعرة ، فتضيء لهم بذلك في البحر ضياء بينا ، وما يطلبون به أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفا من بلع دواب البحر اياهم وبنفورهم من السواد وصياح الغاصة في قعر البحر كالكلاب وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح بعض .(١)

ووصف الرحالة الجغرافيون اهمية هذا اللؤلؤ وتجارته بالنسبة للبحرين، فقال عنها ناصري خسرو «والبحرين ايضا اسم لمدينة هامة، تحيط بها مزارع النخيل وتمارس عملية الغوص على اللؤلؤ في بحر البحرين ، ونصف اللالىء التي يخرجها الغواصون تخص زعماء الاحساء، وكان اسطول الصين يخرج في عدة مراكب تحمل الغواصين، ويتقدمهم القائد ، فاذا وجد شيئا القى مراسي سفينته ، والقى الاخرون مراسي سفنهم حوله ، ثم يستعد الغواصون بملابسهم . ويأخذ كل منهم سكينا ومخلاة، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزل الى قرار البحر، واذا اشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبوه الى السطح (٢)

وكان اللؤلؤ يفرز بواسطة غرابيل ثلاثة متفاوتة اتساع الخروق ، بعضها فوق بعض . وتعتبر احسن أنواع اللالىء المستديرة تمام الاستدارة . وقد اشتد الطلب على لؤلؤ البحرين زمن العباسيين لقلة ما كان يستخرج من النواحي الاخرى بالمحيط الهندي

---

(١) المسعودي ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) متز ، نفس المرجع ، ص ٣٢٠

فضلا عن جودتها . وكثر تهريب اللؤلوء الى البحرين ،وحق ان التجار الاجانب الذين قصدوا الصين كان من عادتهم ان يخبئو اللؤلؤ فى بطائن ملابسم أو مقابض مظلاتهم، هربا من دفع المكوس. (١)

واشتهرت ولاية البحرين بنوع من الصناعات الوطنية البسيطة الى جانب تجارة اللؤلؤ وكان اهم تلك الصناعات هى صناعة نوع من من الفوط التى اشتهرت بها الاحساء،وزاد الطلب على فوط الاحساء ، وصارت تصدر الى البصرة بصفة خاصة ،حيث عاصمة ولاية عمان والبحرين. وجرت عملية الصفقات التجارية فى البحرين على نطاق واسع و وبمقادير كبيرة .وأعد من اجل ذلك قفاف (سلال او أكياس) تزن كل منها ٦٠٠٠ درهم، تعتبر الوحده التى يتم بمقتضاها البيع والشراء، فاذا ماتم الاتفاق على سلعة من السلع تقوم بمايعادل ثمنها من تلك القفاف. ولم يكن مسموحا بتصدير هذه النقود حفظا لموارد الولاية (٢)

واستطاعت عمان والبحرين أن تسهم بمقـــدار كبير فى دخل الدولة العباسية فذكر قدامه بن جعفر أن خراج هذه المقاطعة بلغ فى ميزانية سنة ٢٣٧ هـ/ حوالى ٥١٢,٠٠٠ دينار(٣) . وشهد هذا المقدار على مدى الثراء الذى تدفق على ولاية عمان والبحرين ، إذ كان هذا الخراج هو الفائض عن حاجة المقاطعة بعد سداد نفقاتها ورواتب عمالها جريا على العادة التى سار عليها بيت المـــال المركزى فى الدولة الاسلاميه .

---

(١) متز ، نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .

(٢) Wilson, op cit, P.88.09.

(٣) قدامه بن جعفر ، نبذه من كتاب الخراج (ليدن ١٨٧٩ ، ص ٢٤٩) -

مقاطعات الساحل الفارسى للخليج :

شهدت مقاطعات الساحل الفارسى للخليج تطوراً هاماً فى العصر العباسى أدى إلى دعم الطابع العربى للخليج ، وإعطائه الشخصية التى جعلته حريا أن يدعى باسم الخليج العربى . وكان قوام هـــذه الظاهرة هو استقرار القبائل العربية التى تدفقت منذ الفتح الاسلامى زمن الراشدين والامويين على بلاد فارس ، وتطور كثير من المعسكرات الحربية إلى أماكن دائمة ومدن زاهرة . وكانت هذه الظاهرة من أهم المميزات التى سادت الخليج العربى فى العصر العباسى ، وجعلته يدخـــل فى مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ونشاطه . ذلك أن الفرس الساسانيين برغم سيادتهم أحيانا لبعض السواحل العربية للخليج ، لم يترتب عليه هجرة فارسية إلى تلك السواحل أو تغيير فى بنائها البشرى . ولـكن الهجرات العربية القديمة التى دأبت على الانتقال إلى الساحل الفارسى للخليج وجدت فى الفتوحات الاسلامية حافزا ودافعا ، وأخيرا وجدت فى العباسيين سندا وسبيلا للاستقرار واضفاء الطابع العربى بدوره على تلك السواحل الفارسية ، حتى غدا الخليج عربى الوجه واليد واللسان .

وكانت أهم خطوات العباسيين هو أنهم أتاحوا فى ظـل نظامهم الادارى السبيل أمام العرب للانتقال من حياة المعسكرات والفتوح إلى حياة التغلغل فى المدن والأشتغال بشتى الأعمال الزراعية والتجارية . وترتب على ذلك امتزاج العرب بأهالى مقاطعات الساحل الفارسى للخليج والاشتراك معا فى عجلة التنمية الاقتصاديه وبناء التـكامل الاقتصادى بين سائر أرجاء الخليج وبلدانه . فـكان عصر العباسيين هو عصر الحضارة العربية وبناء أركانها وبخاصة فى الميدان الاقتصادى ، وخلق الوسائل التى تـكفل لجميـع ابناء الدولة على اختلاف أجناسهم التعاون فيما يحقق لهم الاطمئنان والاستقرار واقتسام أسباب الرزق عن عدالة فى التوزيع وكفاية فى الإنتاج .

الأهواز (خوزستان) :

وتجلت فى مقاطعة الأهواز أولى مظاهر هذا التطور الجديد فى الساحل الفارسى للخليج ، من حيث تعريبه وتنميـة موارده الاقتصادية . وتقع هذه المقاطعة شرق العراق ، حيث تتلاقى فى حدودها مع كورة واسط . وأطلت هذه الولاية على رقعة من الركن الشمالى الشرقى للخليج ، تمتد مياهها حتى ميـاه البصرة والأبله (١) ، واشتهرت تلك المقاطعة بزراعة قصب السكر وسميت من أجل ذلك باسم خوزستان(٢) ، أى ولاية القصب . غـير أن الاسم الذى شاع زمن العباسيون هو ولاية الاهواز نسبة إلى أكبر مدنها وهى التى اشتهرت بسوق الاهواز (٣) . إذ تدفقت القبـائل العربية على تلك المدينة وغيرها من مدن المقاطعـة ، وصارت مراكز استقرارها علما يميز تلك الولاية كلها . وأخيرا صارت تعرف باسم عربستان أى أرض العرب لكثرة القبائل العربية التى استقرت بها (٤) واتخذتها مأوى لها .

وساعد على تعريب الاهواز حتى اشتهرت باسم عربستان هو جوارها المباشر للعراق وسهـولة اتصالها بأرضه جغرافيا وبشريا واقتصاديا . ووصف الاصطخرى تلك المظاهر الجغرافية الطبيعية والبشرية قائلا : « وليس بجميع خوزستان جبـال ولا رمال إلا شىء يسـير . . . . والباقى من خوزستان كأنه أرض العراق . .

---

(١) بن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٢٥ ، لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٢) المقدسى، نفس المرجع ، ص ٤٠٥

(٣) ياقوت ، نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣٨٠ .

(٤) على نعمه الحلو ، الأحواز (عربستان) بغداد ، ج ١ ، ص ٢١٧

وأما ترابها فان مابعد عن دجلة إلى ناحية الشمال أيبس وأصح ، وما كان إلى دجلة أقرب فهو من جنس أرض البصرة فى التسبيخ ؟ وكذلك فى الصحة ونقاء البشرة فى الناس . . وأما لسانهم فان عامتهم يتكلمون بالفارسية والعربية . . وزيهم زى أهل العراق فى الملابس من القمص والطيالسة والعمائم [١] » .

وانتقلت القبائل العربية بذلك من العراق إلى أولى مقاطعات الساحل الفارسى للخليج دون أن تجد فارقا جغرافيا أو بشريا ،فغلبت على تلك الأنحاء من الأهواز الأشجار من النخيل،ولأهلها « عامة الحبوب من الحنطةوالشمير والباقلاء ، وأكثر حبوبها هو الحنطة الشمير والأرز فيخرجونه ، وهولهم قوت ، وكذلك فى رستاق العراق . [٢]» .

وقد لقيت الأهوازمن العباسيين نفس العناية التى لقيتها أرض السواد من حيث تنظيم وسائل الرى . وكان يجرى فى الأهواز نهر قارون الذى سماه المسلمون باسم دجيل،وكان الشبه بينه وبين دجلة والفرات قويا من حيث جريان مياهه وانسيابها قرب للمصب وضرورة الاهتمام به كوسيلة من وسائل الرى والمواصلات كذلك .

وحافظ العباسيون على تراث الساسانيين هناك من أجل النهوض بدجيل واستثمار الأراضى الزراعية حوله . وكان على هذا النهرمدينة تستر التى شيد عندها سابورسدا اشتهر باسم« الشاذروان » . وكان « امتداده بقرب من ميل قد بنى بالحجارة كله حتى تراجع الماء فيه ، وارتفع إلى باب تستر » ذلك أن الهدف من هذا السد هو الحصول على المياه المختزنة خلفه للرى . ولذا أقيم خلف السد ثلاث قنوات عليها فتحات

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٢ — ٦٣ .
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ص ٦٣ .

لتنظيم تدفق المياه فيها إلى الأراضى الزراعية . وصارت المدينة بذلك محاطة بحدائق الأعناب والبرتقال والنخيل ، فضلاعن أن الأراضى صارت خصبة جدا « لدرجة أن كل ما تحتاجه الأرض هو حراثة على الحمير وتنمو فيهـا الذرة والقطن وقصب السكر بشكل ممتاز أو تـكاليف ذلك دائما رخيصة » (١) .

ويجرى من ناحية تسترنهر آخر عرف باسم المسرقان وصفه الاصطخرى قائلا : « تجرى فيه السفن العظام ، وقد ركبته أنا من عسكر مكرم إلى الاهواز ، والمسافة ثمانية فراسخ . فسرنا فى الماء ستـة فراسخ . . ولايصنع من هذا الماء شىء « وإنما تسقى به أراضى قصب السكر ومافى أضعافه من النخيل والزروع . وما بخوزستان كلها على كمال عمارتها بقعة هى أعمر وأزكى من المسرقان (٢) » وقام إلى الجنوب من تستر على بعـد ستين ميلا تقريبا مدينة الاهواز التى اشتهرت باسم سوق الاهواز وإليها نسبت القاطعة زمن العباسيين . واستمدت هـذه المدينة شهرتها من موقعها الممتاز الذى جعلهـا مركزاً تتجمع به متاجر شتى أرجاء القاطعة ، ثم تنقل منها بعد ذلك إلى التصدير وبخاصة إلى البصرة بالعراق . (٣)

وكانت صادرات الاهواز تـكشف عن قدر كبير من القيمة الاقتصادية فى شتى الميادين الزراعية والصناعيـة . وقامت صناعة السكر على المنتجات الزراعية لهذه القاطعة ، واشتهرت مدينـة جنديسابور بانتاجها من السكر الذى حمل إلى شتى البلاد (٤) . غير أن صنـاعة الحرير كانت من أقدم وأشهر الصناعات ببلاد الاهواز زمن العباسيين ، وتنقل من مدنها إلى سـائر الأرجاء . فاما تستر « فان بها يتخذ

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٤ — ٦٥
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ٦٢ — ٦٣
(٣) المقدسى ، نفس المرجع ، ٤١٠
(٤) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٣

الديباج الذى يحمل إلى الدنيا ، وكسوة مكة من الديباج يتخذ بها ، وبها للسلطات طراز . وأما السوس فانه تعمل بها الخزوز ومنها تحمل إلى الآفاق ... وبقرقوب السوسنجرد الذى يحمل إلى الآفاق [1] » .

وأشار الجغرافيون والرحالة إلى ظاهرة طريفة ، وهى أن صناعات كرمان اشتهرت بتهافت الأسواق عليها حتى لجأ الكثيرون إلى تقليدها ، أو وضع علامة مدن كرمان التجارية على بعض المنسوجات ، مثل صناعة مدينة كذا ، من باب التحايل وتصريف السلع . فقال الاصطخرى عن مدينة بصنى بالأهواز أنه تعمل بها الستور: « التى تحمل إلى الآفاق ، المكتوب عليها عمل بصنى ، وقد تعمل بيرذون وكيلوان وغيرها من تلك المدن ستور يكتب عليها بصنى وتدلس فى ستور بصنى ....ونهر تيرى تكون بها ثياب تشبه ثياب بغداد ، وتحمل إلى بغداد فتدلس بالبغدادى وتقصر ببغداد [2] » وتشير عبارة الاصطخرى الاخيرة إلى التجاء أهل الأهواز بدورهم إلى تقليد صناعات العراق وأن التكامل الاقتصادى كان قائما بين سلع كل منهما بطرق مشروعة وغير مشروعة كذلك .

وصارت الأهواز بذلك ، وهى أولى مقاطعات الساحل الفارسى ، حلقة وثيقة الاتصال ببلاد العراق ، وتكمل الروابط بين سائر بلدان الخليج على عصر العباسيين . ودعم هذه الروابط تيسير أسباب المواصلات بين الأهواز والعراق ، والعناية بالطرق المؤدية إلى كل منهما . واشتهر من الاهواز إلى العراق طريقين عظيمين : أحدهما إلى البصرة ثم إلى بغداد ، والآخر إلى واسط ثم إلى بغداد . وحددت كتب الجغرافيين

---

(١) الاصطخرى ، نفس المراجع ج٢ ، ص ٦٤ . ابن حوقل ، نفس المرجع ص ٢٣١

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٤ .

والمسالك معالم هذين الطريقين[1] ، مما يدل على نشاط حركة التبادل التجارى بين مقاطعات الخليج فى ظل الادارة العباسية وحزمها ويقظتها .

مقاطعة فارس :

امتدت مقاطعة فارس من الأهواز شرقا ، وشغلت تقريبا كل الساحل الشرقى للخليج حتى مشارف مضيق هرمز[2] . واشتهرت هذه المقاطعة فى التاريخ بسعتها وثرائها وأنها مهد الأكاسرة الذين أسسوا امبراطورية الفرس قبل الميلاد وبعده . وقد أطلق اليونان القدامى اسم هذه المقاطعة على جميع البلاد التى خضعت للاكاسرة ، وصارت علما على دولة الفرس لدى جيرانها وفى كتب التاريخ كذلك . غير أن أكاسرة الفرس حرصوا على الاهتمام بهذه المقاطعة والاقامة فى عاصمتها اصطخر يستمدون منها مقومات سلطانهم وقوتهم . ولكن بقيام الفرس الساسانيين على العرش انتقلت العاصمة من اصطخر إلى المدائن على دجلة[3] ، حيث صارت بلاد مابين النهرين هى قاعدة طريق الخليج العربى وحلقة الربط بين سواحله الثلاث وما يطل عليها من منافذ تجارية .

وتابع أكاسرة الفرس الساسانيين من المدائن سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس حيث حرص كل واحد منهم على جعلها مددا يرودهم بالثراء ويعزز سلطانهم الجديد فى بلاد مابين النهرين . وتجلى ذلك فى تقسيم تلك المقاطعة إلى خمسة كور كبرى ، خص الأكاسرة كل منها بالمشاريع الزراعية والصناعية العظمى ، ووضعوا الانتاج الزراعى

---

(١) ابن خرداذبه ، نفس المرجع ، ص ٦٠ ، ٦١ .
ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٢ .

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

(٣) ارثر كرستيسن ، ايران فى عهد الساسانيين (ترجمة تيحى الخشاب) ص ٨٢ ، ١٠٥ .

والصناعى فى خدمة تجارة تلك المقاطعة على الخليج[1] . وعندما أعتلى العباسيون العرش ورثوا هذا التراث الهام فى مقاطعة فارس ، ولم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الاحتفاظ بأوضاعها وتقسيمها الادارى كذلك ، ضمانا لاستمرار دورها كإحدى المقاطعات البحرية الكبرى على الخليج .

واحتفظت مقاطعة فارس بذلك بمقوماتها الاقتصادية على عهد العباسيين ، وأخذت تنطلق مرة أخرى فى ميدان الازدهار والتقدم الاقتصادى . وساعد على ماحفلت به من انطلاق وثاب فى تلك الميدان ظاهرة استقرار القبائل العربية على نحو ماحدث طوال العصر العباسى على الساحل الفارسى للخليج ، وازدياد تعريبه وتحول مراكز الجيوش العربية بفارس إلى مدن زاهـــرة أيضا . ولقيت مقاطعة فارس اهتماما كبيراً من العباسيين بسبب طبيعة أرضها الجغرافية . فـكانت تلك المقاطعة تمتد على ساحل الخليـج امتدادا طوليا بسبب مزاحمة سلاسل جبال زاجروس لارضها ، حتى صارت مقاطعة فارس « بلد إلا وبه جبل ، أو يكون الجبل منه بحيث تراه إلا اليسير »[2] .

وفرضت هذه هذه الظاهرة الجغرافيه على القبائل العربية أن يتركز استقرارها على النطاق الساحلى لمقاطعة فارس وما جاوره من جهات معينة من سفوح الجبال . ذلك أن مقاطعة فارس انقسمت قسمين متباينين ، على نحو ما وصفها به الجغرافيون المسلمون ، وكما اتسم به فعلا مناخها ، القسم الأول الجنوبى فهو كما سماه الجغرافيون المسلمون « جروم » أى مناخ المناطق المدارية الحارة ، والقسم الثـانى الشمالى فهو « صرود » أى للناخ البارد . « فأما الصرود فإن منها أماكن يبلغ من شدة البرد فيها ألا ينبت عندهم شيء من الفوا كه سوى الزرع كالأرد ... وأما الجروم فان

---

(١) ابن حوقل . نفس المرجع ، ٢٣٦ .

(٢) اصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٦٧ .

بها ما يبلغ من شدة الحر فى الصيف الصائف ألا ينبت عندهم شيء من الطيور من شدة الحر (١) . وترتب على ذلك تركز استقرار العـــرب فى الجهات المعتدلة على الساحل لقربها من البحر، وكذلك فى الجهات الواقعة بين الجروم والصرود لاعتدال مناخها أيضا . وصارت جبال زاجروس تمثل الحد الذى وقفت عنده العروبة وتركت مقاطعة فارس الساحلية تدخل فى نطاق التعريب الذى استقرت مظاهره على امتداد الخليج زمن العباسيين .

وعلا شأن كثير من العرب الذين استقروا فى مقاطعة فارس ، وغدت لهم أسر عريقة ، ربطوا نسبها بالهجرات العربية قبل الإسلام إلى الساحل الفارسى للخليج، إمعاناً فى الاعتزاز بموطنهم الجديد وسلطانهم هناك . وامتزج أولئك العرب بالسكان المحليين فى مقاطعة فارس مما أتاح السبيل لـكثير من الأسر الفارسـية أن تعتنق اللسان العربى وتشارك مع العرب المستوطنين فى دعم اقتصاد مقاطعتهم وتنميته باعتباره ملـكا مشتركا للجميع . وشرح الجغرافى الاصطخرى فى إسهاب هـــذه الظاهرة الهامة فقال :

« والعرب الذين توطنوا فارس وصاروا من أهلها . . . فمنهم آل عمارة ويعرفون بآل الجلندى، ولهم مملـكة عريضة وضياع كثيرة وقلاع على البحـر بفارس متاخمة كرمان ويزعمون أن ملـكهم هناك قبل موسى عليه السلام . وأن الذى قال الله عز وجل (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً) هو الجلندى . وهم قوم من أزد اليمن ولهم إلى يومنا هذا منعة وبأس وعدد . . وإليهم أرصاد البحر وعشور السفن . . . ومنهم آل أبى زهير المدينى ينسب إليهم ابن زهير ، وهم من سامة بن لؤى

---

(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢
ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٥٢

ملوك ذلك السيف ، ولهم منعه وعـدد . . . وجعفر بن أبى زهير الذى قال فيه الرشيد وقد وفد عليه فى ملوك فارس : لولا طرش به لاستوزرته . . . ومنهم آل حنظلة بن تميم من ولد عروة بن أدية الذين عبـروا من البحر إلى فارس فى أيام بنى أمية بعد قتل عروة بن أدية فسكنوا اصطخر ونواحيهاوملـكوا الأموال الـكثيرة والقرىالنفيسة . وكان منهم عمرو بن عيينة ، وبلغ من يساره أنه ابتاع بألف ألف درهم مصاحف فوقفها فى مدن الإسلام)[1] .

وترتب على انتشار العرب بفارس شيوع اللسان العربى والتدوين باللغة العربية حتى أن أهالى فارس المحليين احتاجوا إلى من يفسر لهم اللغـة الفهلوية التى دونت بها « كتب العجم وأيامهم ومكاتبات المجوس فيما بينهم »[2] ونبغ كثير من أهـل فارس فى اللغة العربية ، اشتهر منهم عبد الحميـد بن يحيى ، وعبد الله بن المقفع وكان فارسيا أقام بالبصرة ، وسيبويه « وكان مقيما بالبصرة ، ويقال أنه من أهل أصطخر فاقام بالبطرة . . وله (الـكتاب) المنسوب إليه فى النحو » واعتمد العباسيون على كثير من أهـل فارس فى إدارة دولتهم الجديدة لاجادتهم اللغة العربية وسائر فنون الأعمال الإدارية والسياسية . وشرح الاصطخرى هـذه الظاهرة الهامة فى تطور مقاطعة فارس فقال : « والفرس هم شحنـة دواوين الخلافة والعمال الذين بهم قوام السياسة ، من الوزارات وسائر أعمال الدواوين ، منهم البرامكة وآل ذوى الرئاستين وإلى يومنا هذا من المادرائيين والفريابيين وسائر شحنة الخلافة من الأولاد الفرس وبفارس قوم يقال لهم أهل البيوتات ، يتوارثون فيما بينهم أعمال الدواوين،منهم آل حبيب،وكان مشايخهم مدرك وأحمد والفضل بنو حبيب وأصلهم من كام فيروز ومنشؤهم

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٢
(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٠٣

شيراز ، قطنوها وتقلدوا الأعمال الجليلة الشريفة وكان المأمون الخليفة استدعى مدرك بن حبيب إلى بغداد للحساب وغيره من وجوه الخدمة ، وحظى عنده وقرأ عليه ومات ببغداد أيام المعتصم . وآل أبى صفية من موالى باهله ، منهم يحي وعبد الرحمن وعبد الله بنو محمد بن اسماعيل ، ناقلة توطنوا بها فى زمان المأمون وتقلدوا أعمال الديوان بها . وأما آل المرزبان بن ازادية فانهم كانوا من أهل شيراز . فهؤلاء مع آخرين لم نذكرهم أهل بيوت يتوارثون هذه الأعمال » (١) .

وغدت شيراز عاصمة مقاطعة فارس مرآة لهذا التعريب الذى ساد تلك المقاطعة البحرية ، فكانت هذه المدينة فى الحد بين الجروم والصرود ، أى فى المنطقة المعتدلة بمقاطعة فارس ، والتى أحبها العرب . وكانت هذه المدينة معسكرا للمسلمين حين اتجهوا لفتح اصطخر ، وبناها القائد محمد بن القاسم بن أبى عقيل بن عم الحجاج . وسميت هذه المدينة بشيراز تشبيها لها بجوف الاسود ، وذلك أن عامة المير بتلك النواحى تحمل إليها ، ولا تحمل إلى مكان (٢) » وحافظ العباسيون على تلك المدينة وجعلوها عاصمة لمقاطعة فارس وعنوانا على العهد الجديد الذى ساد الساحل الفارسى للخليج . إذ تابع العباسيون سياسة الاهتمام بمقاطعة فارس وتنمية مواردها الاقتصادية وتشجيع حركة التجارة والملاحة بها . وتمتعت مقاطعة فارس بعدد من من الأنهار التى تتدفق مياهها من الجبال إلى الخليج ، وعدد ابن حوقل تلك الأنهار قائلا : « وأما أنهارها الكبار التى تحمل السفن إذا اجريت منها فانها نهر طاب ونهر شيرين ونهر الشاذكان ونهر درخيد ونهر الخوبذان ونهر رسى ونهر سكار

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٨

(٢) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ٢٥٦
المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤١١

ونهر جرشيق ونهر كر ونهر فرداب ونهر برزه فهذه المعروفة المشهورة »[١] .

واستلزم الاستفادة من مياه تلك الأنهار للرى وبخاصة فى الجهات المرتفعة القريبة من الجبال نظاما خاصا فى بناء السدود والقناطر ، فكانت تعمل فى جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر ، وقد يبلغ طول القنوات خمسين كيلو مترا واحتاج هذا التنظيم إلى مهارة كبيرة ، فكان على القائمين أن يعالجوا الطبقات الأرضية التى يجرى عليها الماء ، كما كان عليهم أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلا يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده[٢]. واشتهرت كور فارس بذلك بوفرة الإنتاج الزراعى وبخاصة منتجات كل من المناطق الحارة والباردة معا ، مثل النخيل والكروم والزيتون والجوز والأترج[٣] . وانتشرت فى مقاطعات فارس زراعة الحدائق والزهور ، وعلا شأن بعض نواحيها مثل ناحية النوبندجان التى عاش بقربها شعب بوان « ويكون مقدار فرسخين قرى ومياها متصلة ، فقد غطت الأشجار القرى حتى لايكاد يراها الإنسان إلا أن يدخلها ، وهو أنزه شعب بفارس »[٤] .

واشتهرت مقاطعة فارس أيضا بكثرة المراعى على سفوح الجبال وسهولة انتقال الرعاة عليها صيفا إلى الجهات العليا ، وشتاءا إلى الجهات السفلى. ولتشابهت حياة أولئك الرعاة مع حياة البدو العرب ، حتى أنهم « دعوا الانتساب إلى أصول عربية . وأشار إلى ذلك ابن حوقل قائلا : عن مناطق أولئك الرعاة « ويخرج من الحى

---

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٢) متز ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢
(٣) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٣٤ .
(٤) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٨

ألف فارس وأكثر وأقل ينتجعون في الشتاء والصيف المراعي وللصائف والشاتي ».
ويزعم ابن دريد أنهم من العرب، وأن أكثرهم من ولد كرد بن مرد بن عمرو بن عامر في حماسته . وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ممن يستبطن علوم العرب واخبارها يحتج بقوله ويسلم له ما يدعيه من هذا الباب وغيره »(١) .

ونعمت أرض فارس بثروة معدنية أضافت إلى جانبها الزراعى والرعوى. وعدد الاصطخرى أنواع تلك المعادن ، فذكر « ويكون بأرض فارس عامة المعادن من الفضة والحديد والانك والكبريت والنفط ، وأشباه ذلك مما يستقل به أهلها عما يكون في سائر الأقطار . إلا أن الفضة بها قليلة بناحية يزد بموضع يعرف بنائين ولا أعرف بها معدن الذهب . ومعدن الصفر بالسردان يحمل منها إلى البصرة وسائر النواحي والحديد يرتفع من جبال اصطخر ، وبقرية من كورة اصطخر تعرف بدارا بجرد معدن الزئبق(٢) » .

وقامت على هذه الثروة الزراعية والطبيعية نهضة صناعية باهرة فى مقاطعة فارس جعلت من الساحل الفارسى للخليج مصدرا هاما من مصادر التجارة الإسلامية على عهد العباسيين . واشتهرت مقاطعة فارس بمراكز صناعة المنسوجات من الكتان وصناعة البسط وصناعة الروائح العطرية . واشتهرت مدينة كازرون بصنع ثياب الكتان حتى أنها كانت تسمى « دمياط الأعاجم » لاستيرادها الكتان من مصر أحياناً

---

(١) ابن حوقل ، نفس المرجع ، ص ٢٤٠
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣
(٣) ابن حوقل، نفس المرجع، ص ٢٦٢

ولطريقة صنعه من عهاله أيضاً[1] . ولم تلبث كازرون أن صارت مركزا هاما لهذه الصناعة وتجارتها كذلك ، بفضل صلاحية البيئة المجاورة لها من مياه الأنهار . فكان الكتان يبل فى البرك القريبة من المدينة ثم يفصل بعضه عن بعض ويغزل . ثم يغسل خيوطه فى ماء نهر الرهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلا شحيحا فإن له خاصية بتبيض خيوط الكتان ، مع أنها لا تبيض فى غيره من الماء[2] .

وارتبط بتلك الصناعة نشاط تجارى عند أهل كازرون . وتولى تلك التجارة جماعة من السماسرة يأخذون الأقمشة ، ويختمون اللفائف قبل تسليمها التجار الأجانب وكان هؤلاء التجار يثقون بالسماسرة ، ويشترون اللفائف من غير أن يفكوا حبالها ، بل يأخذونها كما هى . وكانت إذا وصلت اللفائف إلى أى بلد اعتراها التجار من غير أن يفتحوها واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون . وكثيرا ما كان يحدث أن ينتقل الحمل من لفائف كازرون ، حتى تتداوله عشر أيد ، من غير أن يفك وثاقه[3] .

وعلا شأن مقاطعة فارس فى إنتاج الفرش الصوفية ومنافستها لغيرها من تلك الصناعة بالأقاليم الأخرى . وكان أحسن البسط الفارسية يصنع فى مدينة سوسنجرد حتى صار أهلها وأعمالهم نماذج يحتذيها سائر المشتغلين بتلك الصناعة . وعزز صناعة البسط أشتهار سوسنجرد أيضا بالمهارة فى الجمع بين الصوف وخيوط الكتان فى النسيج وتجميل كل ذلك بالوشى . وحاولت بعض مدن العراق مثل قرقوب

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجم ، ص ٩٢ ، المقدسى ، نفس المرجم ، ص ٤٣٣ .

(٢) متز ، نفس المرجم ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ، ٣٤٩

(٣) متز ، نفس المرجم ، ج ٢ ، ص ٣٤٩

تقليد صناعة سوسنجرد ، ولكن هذه المدينة ظلت محتفظة بتفوقها الصناعى كما قال الاصطخرى « لأن القرقوبى ابريسم ، وهذا صوف ، والصوف أجود من الابريسم في الصنعة »(١) .

وراجت فى مدن مقاطعة فارس صناعة روائح العطر ، والادهان . « فأما ما يرتفع من بلدان فارس عما ينقــل إلى الأمصار ، وما يفضل فى جنسه على سائر مايرتفع فى البلدان فمن ذلك ماء الوردالذى يرتفع من جور ، فإنه يفضل فى جنسه وينقل إلى البحر فيفرق فى الحجاز واليمن والشام ومصر والمغرب وخوزستان والجبال ويرتفع من زجور ما هو أجود إلا أن معظم الجهــاز منه . ويرتفع بجور ماء الطلع وماء القيصوم الذى لا نعرفه فى بلد غير جور ، وماء الزعفران الموس وماء الخلاف الذى يفضــل على جسه فى سائر البلدان واختصت سابور بصناعة الأدهان وتصديرها كذلك إلى سائر الجهات واشتداد الإقبال عليها (٢) .

وانتقل الانتــاج الزراعى والصناعى من مدن فارس وكورها برا وبحرا إلى سائر بلدان الخليــج ، وتدفقت بصــــفة خاصة على بلاد العراق ، حيث كان نصيب الخلافة مثلا من ماء الورد قدراً هائلا ، سجلته قوائم الخراج على عهــد العباسيين وساعد على نشاط التجارة استتباب الأمن على امتداد الطرق وتوافر الراحة أيضا . ووضع العبـاسيون نظاما لذلك ، فـكان على سائر النواحى بفـارس عمـال « الزموا اقامة البزرقة (٣) القوافل وحفــظ الطرق »(٤) وكان أهل القرى بفـارس يختــارون

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٢
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .
(٣) البزرقه ، هى الخفارة والحراسه .
(٤) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٧١ .

من بينهم رجلا مهمته توزيع الصوف على أهل القرية ، وكانوا يسمونه الحرير ، كما اشتهر نفر من كبار رجال بيوتاتهم باقامة الربط وإعداد أناس بها العمل على راحة المسافرين من التجار . واشتهر أهل فارس بذلك بالتفوق فى ميدان التجارة على عهد العباسيين وتقلد أعنة مقاليد الشئون الاقتصادية فى شتى النواحى ، وقد اعطوا من ذلك ، كما قال الاصطخرى « حظا جزيلا حتى أن أحدهم ليبلغ ملكه . وهم أهل صبر على الغربة وحرص على جمع المال ، وفيهم اليسار ظاهرا حيثما كانوا ، وما علمت مدينة فى بر ولا بحر فيها قوم من الفرس مقيمون إلا وهم عيون تلك المدينة ، والغالب عليهم اليسار واستقامة الحال والعفة »(1) .

مقاطعة كرمان :

قامت هذه المقاطعة عند الطرف الجنوبى للساحل الفارسى للخليج إلى الشرق عن مقاطعة فارس . وعلا شأن كرمان بسبب موقعها الجغرافى الممتاز على المدخل الجنوبى للخليج ، وطبيعة التضاريس الأرضية هناك . ففى أرض كرمان يتأثر امتداد سلسلة جبال زاجروس ببعض التغيرات ، تجعلها تنبعج إلى الشمال ، بحيث تتسع التقويس كبير من الساحل يمتد بدوره إلى مسافات عميقة بالداخل . وهذا التقويس الساحلى لكرمان يختلف بذلك عن التقويس الجنوبى لمقاطعة فارس ، بحيث صار تقويس كرمان صالحا لنمو الموانى الهامة وسيطرتها على التجارة والملاحة بالخليج العربى . ووصف الجغرافيون المسلمون هذه الظاهرة لأرض كرمان بأنها عبارة عن امتداد فى حد فارس « مثل الكم ، ومما يلى البحر لها تقويس »(2) .

(1) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٨٤ .

(2) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٣ .

وزاد فى أهمية جدا « المكر » أو الدخلة الأرضية لساحل كرمان وجود بعض الممرات فى النطاق الجبلى ، أتاح الاتصال المتين بين الساحل وداخل البلاد . وغدت كرمان تنعم بموقع برى على الطريق إلى بلاد السند خلال ممر بولان ، وذلك فضلا عن إشرافها على الطريق البحرى . وأضفت الطبيعه أخيراً مزاياها على كرمان حيث جعلت جزءاً من ساحل عمان ينطلق كالسهم نحوها على هيئة شبه جزيرة مسندم وخلقت بالتالى فى جوف التقويس الساحلى لسكرمان مضيقاً بحرياً هاماً ، اشتهر باسم أكبر مدن كرمان وهو مضيق هرموز ، وهيأ هذا المضيق لسكرمان التحكم فى الملاحة بين كل من الخليج الفارسى وخليج عمان ، والمساهمة فى نفس الوقت مع عمان فى تقوية حلقة للواصلات البحرية مع الساحل العربى للخليج(١) .

وصارت كرمان بذلك وثيقة الصلة ببلاد العرب ، ولقيت بدورها الكثير من الهجرات العربية التى انطلقت فى سهولة ويسر من عمان عبر رأس مسندم ، ودعمت مظاهر التعريب على الساحل الفارسى للخليج . وتركت هذه الهجرات العربية التى استقرت بدورها زمن العباسيين أسماءها على جهات عديدة من كرمان وبخاصة على بعض الجزر القريبة من الساحل ، مثل جزيرة قيس ، التى يتفق اسمها مع اسم من الأسماء العربية الشائعة . وشاهد العصر العباسى تطوراً هاماً أيضاً فى حياة سكان كرمان الأصليين ، إذ ظلوا على « المجوسية أيام بنى أمية كلها . . . فلما ولى الأمر بنو العباس أسلموا »(٢) وصار السبيل مفتوحاً أمامهم للمساهمة فى إدارة بلادهم والدولة العباسية كذلك .

واختصت كرمان بسبب طبيعتها الجغرافية بموارد طبيعية عديدة ، كان لها شأنه

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٩ .

عظيم فى التنمية الاقتصادية على عهد العباسيين . فجمعت بعض أنحائها بين منتجات الجروم (الجهات الحارة) والصروة (الجهات الباردة) . ولكن كرمان اشتهرت بمنتجات خاصة بها وهى زراعة شجر النيل الذى يستخدم فى صناعة اللون الأزرق ، وصدرت كميات كبيرة منه إلى الهند والعراق ، وكذلك ازدهرت كرمان بزراعة السكون الذى « يحمل منها إلى الآفاق » . وأسهمت كرمان بدورها فى إنتاج التمر الذى صار أحد الغلات الرئيسية ببلدان الخليج العربى كلها . وكثرت التمور فى تلك المقاطعة حتى إن أصحابها لم يمنعوا أحداً من الحصول على ما يريدون ، فكانت لهم سنة حسنة ، لا يرفعون من تمورهم ما أسقطه الريح ، فيأخذه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح فيصير إلى الضعفاء من التمور فى المقاطعة إياها أكثر مما يصير للأرباب . واتبع أهل كرمان أسلوباً تجارياً فريداً فى تشجيع تجارة التمور الخاصة ببلادهم لم يعرف فى جهة أخرى من جهات الخليج ، إذا أعفوا الحماليين لنقل التمر إلى خراسان مناصفة تشجيعاً لهم ، وضماناً لزيادة الدخل . ومن ثم قصد كرمان كل سنة مائة ألف جمل : « يدخلونها على غفلة ويكثر الزنا والفساد فى هذه القوافل »(١).

وكانت ظاهرة اشتداد الرياح على كرمان ، وإسقاطها للتمر سبيلا دفع الأهالى إلى الإفادة منها فى خلق نهضة صناعية قوية ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها وبخاصة زمن اشتداد تلك الرياح ابتداء من منتصف يونيو إلى نهاية شهر أغسطس. وكان للرحى الواحدة ثمانية أجنحة ، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودى أيضاً ، طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر . وزودت هذه الأرحاء بمنافس تغلق وتفتح حسب الحاجة .

---

(١) المقدسى ، نفس المرجع ، ص ٤٦٩ .

واشتهرت كرمان بصناعة « الفانيذ » وهو نوع من السكر الأبيض ، وصدرت منه كميات كبيرة إلى جيرانها . وأسهمت مدورها كذلك فى استخراج الحديد والفضة ، حيث توافر هذان المعدنان فى أرضها . على أن شهرة كرمان الصناعية بلغت أوجها فى صناعة المنسوجات التى شاعت أيضاً فى سائر بلدان الخليج العربى . وكان لا بد من قيام تنافس بين سائر تلك البلدان ، ومحاولة كل منها أن تتميز بنوع معين من تلك الصناعة . واشتهرت مدينة بم بشرق كرمان بصناعة الثياب القطنية الفاخرة والتى كانت محببة إلى الناس لملاءمتها الجو الحار . « وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالسة المقورة التى تنسج بزارف ، يبلغ الطيلسان منها المشرب الرفيع ثلاثين ديناراً . وكانت تحمل إلى أقطار الأرض وتباع بخراسان والعراق ومصر »[1] . وغدت ثياب بم تتفوق على ماجاورها من صناعات البلاد الأخرى وبخاصة مدينة مرو التى كان يصنع فيها نوع من الثياب القطنية « لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه ، ولذلك يسميه المتنبي لباس القرود . ويقول أبو القاسم لقوم يهجوهم : « على أبدانكم ثياب بمت ، خشن ، مروى ، غليظ ، من غزل البيت ، طاقة ضرطة ، وغزول مطابقة ، منها قمصانكم ومنها عمائمكم »[2] .

وصارت مقاطعة كرمان تسهم مع سائر مقاطعات الخليج العربى فى إنتاج المنسوجات الجيدة وتضع مواردها كذلك فى خدمة التكامل الاقتصادى لبلدان الخليج . ونالت مقاطعات الساحل الفارسى للخليج شهرة فائقة زمن العباسيين حيث صارت تدعى « خزانة العراق » لكثرة واردات العراق من هناك . وتحقق لبلدان الخليج العربى على عهد العباسيين رخاء اقتصادى صار نموذجاً للحضارة الإسلامية ورفاهية أهلها مادياً ومعنوياً إذ اقترن رأس المال فى بلدان الخليج

---

(١) الاصطخرى ، نفس المرجع ، ص ٩٩ ، ١٠٠

(٢) متز ، نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٣٥١

باستثماره فى ميدان الزراعة والصناعة ولتشجيع حركة التجارة . ونجم عن ذلك اشتغال كبار التجار وأصحاب الصناعات فى بلدان الخليج بتجارة الترف والنعيم (الكماليات) التى تنهض دليلا على أن أهلها تخطوا مرحلة الضروريات إلى مرحلة الحياة الرغدة الهنية . وتردد صدى هـذه الحقيقة فى كتب الرحالة والجغرافيين المسلمين الذين جابوا بلاد الدولة الإسلامية . فينصح المقدسى بنصيحة يعرف بها الإنسان خفة ماء بلد أو ثقله فيقول : إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد ، فاذهب إلى البزازين والعطارين ، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ماترى من نضارتهم. أما إن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطامنى الرؤس فعجل الخروج منها » فالمقدسى يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم هم البزازون والعطارون ، وهم طبقة كثر انتشارها فى بلدان الخليج العربى نتيجة التنمية الاقتصادية التى سادت تلك البلدان على عهد العباسيين .

وسجلت لغة الأرقام مدى رفاهية بلدان الخليج ونشاطها الاقتصادى زمن العباسيين . إذا أوضحت قوائم الخراج التى جاءت عن العصر العباسى أن بلدان الخليج العربى أسهمت بنصيب وافر فى بناء ميزانية الدولة العباسية وتلك القوائم أربعة وهى : ١ — قائمة الجهشيارى فى كتابة « الوزراء والكتاب » ٢ — قائمة ابن خلدون فى مقدمته — ٣ — قائمة قدامة بن جعفر فى كتابه « الخراج » ٤ — قائمة ابن خرداذبه فى كتابه « المسالك والممالك » فهذه « هذه كلها وثائق تاريخية نادرة ، وهى تبين حالات الخراج بالتفصيل فى مدى نحو نصف قرن من عهد الرشيد إلى عهد الواثق أو المتوكل »(١) .

---

(١) ضياء الدين الريس ، الخراج ، ص ٥٠٩ ، ٥١٠ .

وتتطابق قائمة الجهشيارى مع قائمة ابن خلدون فى بيانها لدخل الدولة العباسية زمن الخليفة هارون الرشيد[1] . وكان نصيب بلدان الخليج العربى فى الخراج العام أو دخل الدولة العباسية إذ ذاك كما يلى :

---

(١) ناقش الدكتور الريس فى كتابه الخراج كلا من قائمة الجهشيارى وابن خلدون وأثبت أنهما ترجعان إلى عهد الرشيد ، وفند الأخطاء التى وقع فيهـا المؤرخون الذين نقلوا عن هاتين القائمتين . واعتمدت لذلك على النتيجة التى وصل إليها الدكتور الريس فى بحثه القيم ، وأثبت عنه الجدول المذكور إلى أعلى بالمتن عن مقدار خراج مقاطعات الخليج العربى . أنظر الريس . الخراج ص ١١٥ .

اسم المقاطعة	مقدار الجباية من الأموال			الأمتعة والعروض
١ — اثمان غلات «السواد»	...	٧٨٠	٨٠ درهم	
٢ — أبواب المال بالسواد	...	٨٠٠	١٤ درهم	الحلل التيجرانية ٢٠٠ حلة الطين المختم : ٢٤٠ رطلا.
٣ — كور دجلة	...	٨٠٠	٢٠ درهم	
٤ — الأهواز	...	...	٢٥ درهم	السكر: ٣٠ ألف رطل
٥ — فارس	...	...	٢٧ درهم	ماء الزبيب الأسود ٢٠ ألف رطل الانبيقات: ١٥ ألف رطل الطين السرافى ٥٠ ألف رطل . الزبيب بالكسر الهاشمى ٣ أكرار
٦ — كرمان	...	٢٠٠	٤ درهم	المتاع اليمنى والصينى ٥٠٠ ثوب التمر ٢٠ ألف رطل الكمون ١٠٠ رطل

وتتقارب قائمة قدامة التى جاءت فى كتابه « الخراج » مع قائمة ابن خرداذبه عن دخل الدولة العباسية[١] ، سواء من حيث الزمن أو المقادير المبينة منها ، فكل منهما تشير إلى خراج الدولة زمن الخليفة المأمون وأوائل عهد الخليفة

---

(١) الريس ، الخراج ، ص ٢٥٨ ، ٥٣٢

المتصم[1] ويتضح منهما أن نصيب مقاطعات الخليج العربى فى خراج الدولة العباسية كان على النحو التالى :

اسم الإقليم	مقدار الجباية بالدراهم
١ — السواد	١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهم
٢ — الأهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٣ — فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٤ — كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم
٥ — اليمامة والبحرين	١٥٠ ٠٠٠ درهم
٦ — عمان	٣٠٠ ٠٠٠ درهم

ويتضح من استعراض قوائم الخراج السالفة الذكر على عهد العباسيين أن التنمية الاقتصادية لبلدان الخليج العربى خلقت رأس مال ضخم أتاح للاهالى استثماره فى ميدان التجارة العالمية والسيطرة على مقاليدها، فظهرت طبقة هامة من كبار التجار من ابناء الخليج العربى استطاعوا بثرائهم بث الثقة فى المعاملات التجارية وتحويل نشاطها إلى الطريق الذى تطل عليه بلادهم ،ذلك أن التجارة تقترن دائما فى نشاطها برأس المال ولا تزدهر إلا فى ظل حمايته وقوته .

---

(١) وازن الدكتور الريس بين هاتين القائمتين فى كتابه الخراج ، ودرس الأرقام التى وردت فى كلا منهما وبخاصة عن إقليم « السواد » وخرج بنتائج أثبتها فى الجدول الذى أنقله عنه فيما يتعلق بخراج بلدان الخليج العربى ، على النحو المثبت بالمتن الى أعلى .

أنظر الريس ، الخراج ، ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

وترتب على هذه الظاهرة الجديدة فى بلدان الخليج انقلاب هام فى الأحوال الاقتصادية للدولة العباسية وطريق الخليج العربى كذلك . إذ أصبح التاجر الغنى هو ممثل الحضارة الإسلامية التى صارت من الناحية المادية كثيرة المطالب باعثة على الاستطالة فى ذلك . وكان تجار الخليج العربى هم القادرون على توفير تلك المطالب المادية وجلب كل مقوماتها من شتى مصادرها العالمية . ومن ثم غدت تجارة الخليج العربى فى العصر العباسى من مظاهر أبهة الإسلام ، كما صارت هى السيدة فى بلادها وبلاد العالم المجاور كذلك . فكانت سفن أبناء الخليج وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، حيث مصادر التجارة العالمية وأسواقها كذلك ، وجعلت الدولة الإسلامية هى المتقلدة لأعنة تلك التجارة العالمية والمهيمنة على تصريفها وتوزيعها[1] بما يحقق العالم المعروف إذ ذاك شرقا وغربا الرفاهية والطمأنينة والاستقرار .

(١) راجع قائمة المتاجر الخاصة بهذا النشاط فى كتاب :
HUZAYYIN, Arabia and the Far East (CAIRO 1942) p. 189-214.

نشأة القاهرة وامتدادها فى ايام الأيوبيين

بقلم

د . عبد الرحمن زكى

١ ـ القاهرة فى أيام الفاطميين

(٩٦٩ — ١١٧١)

بعد أن نجح الخليفة المعز لدين الله فى دولته الإفريقية التى أسسها جـده أبو عبيد الله ، ومن حدودها إلى ساحل الأطلسى ، عزم على فتح مصر ، وكان أبوه وجده قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى المعز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، وكانت مصر فى ذلك الحين عرضة للغزاة ، فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التى سببها انخفاض النيل والطاعون .

وكان المعز لدين الله ملما بحالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودى الذى هاجر من مصر .

طلب الخليفة المعز إلى قائده جوهر الصقلى أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملة لفتح مصر ، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات والدواب وأرسل معهم المؤن والعتاد وكل مايحتاجه هـذا الجيش الجرار . وبدأت الحملة مسيرها من القيروان فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩) ، فوصلت إلى

الإسكندرية واستولى جوهر عليها . ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت فى يده فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو (١) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وهزم الجيش الذى أعـد للدفاع على الشاطئ الشرقى للنيل . وفى أعقاب ذلك دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند منيب الشمس وعسكرت فى السهل الرملى الواقع إلى الشمال ، وكان يحد هـذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج(٢) الذى يصل بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خاليا من المبانى إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور الإخشيد ، ودير فسيح اسمـه دير العظام وكان يشغل مكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

تأسيس القاهرة

وفى مساء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، اختط جوهر موقـع القصر الذى قرر أن يستقر فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التـالى لتهنئته وجدوا أن أساس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى سورا خارجياً من من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليهـا جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافورى ومثلها للميادين والباقى قدره مائتان فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانب قصبة القاهرة (١) ، ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل

---

(١) مذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر ، ويسمى الشارع الآن شارع الخليج المصرى .

(٣) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك جـ ٢ ص ٨١ .

فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه ، لـكنه قال : « قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تألف منها جيشه خطته فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر[1] وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تـكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعا وقصراً واحتفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنـع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائهـا[2] أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذى رما إليـه جوهر ،فقال أنه بناه لمولاه حتى يـكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . ويمـكن تتبع حـدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بفضل المعلومات التى أمدنا بهـا المقريزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه . وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقـع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيدا عنه بنحو ٣٠ مترا .

وقيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى للمدينة فى أول الأمر المنصورية تيمنا باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان المنصور

---

(١) الخطط المقريزية طبعة النيل ج ٢ . ص ١٧٩

(٢) الخطط المقريزية طبعة النيل ج ٢ . ص ١٧٩

بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصرفا طلق عليها القاهرة[1] وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها[2] . ومن الواضح كما أشارت «رايثماير» أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشىء المنصورية مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساى لباريس أو وندسور للندن .

ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكرى من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثانى باب الفتوح وقد أطلق هذان الأسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية .

وفى يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه فى توابيت . وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت

---

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزى ـ بيت المقدس ـ ١٩٠٨ .

(٢) قيل فى سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الاساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم إخشب بين كل قائمتين جعل فيها اجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الاجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجاره فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابا وقع على حبل من الحبال التى فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فالقوا ما بديايهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهرة فى الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة ـ الخطط المقريزية ج ٢ ص ٣٠٤ .

لأول مرة بالجامع الأزهر فى يوم الجمعة لست خلون فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢)[١] .

فكأن القاهرة المدينة المسورة لم يقصد جوهر من إنشائها فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجىء إليه[٢] . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينا بعد قيامها مدينة خليفية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا فى القصر الشرقى الكبير واتخذ الخليفة مصر موطنا له . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣)[٣] .

---

(١) ذكر المقريزى فى الخطط (بولاق ج ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان من يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يوافق يوم السبت ـ كما جاء فى التوفيقات الالهامية. وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام فى أية مدينة اسلاميه منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا بالجامع الأزهر يوم الجمعه لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ الموافق يوم ٢١ يونيو ٩٧٢ .

(٢) الخطط المقريزية ، طبعه النيل ـ ج ٢ ـ ص ١٨٤

(٣) أن تصميم القاهره الأصلى يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه فى أفريقيا ـ الشماليه من التخطيط الرومانى فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكارد وماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتهيا إلى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها قصر الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والبسيوم والاوديون الرومانى . وأما الطريق الثانية فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيده المتعدده بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد اعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن تخلصت نهائيا منها .

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

وبعد بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها فى ظل الخلفاء الفاطميين وتبوأت مكانتها العظيمة برونقها وبهائها ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية فى العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية(١)

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن الماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سورا سميكا من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

وبعد مضى حوالى القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيرا للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ، لاسيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويسارا وفتح فيه أبوابا أمام الأبواب القديمة لتكون عوضا عنها .

---

(١) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات المرحوم المؤرخ محمد بك رمزى

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ ٩٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبدالله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التى كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة فى غربيها إلى النيل (بسبب ماطرحه النهر من الأرض) وفى جنوبها إلى مصر القديمة ، واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها مبنية بالحجر أمتن بناء وأروعه .

السور الأول :

لما تكلم المقريزى فى خططه على سور القاهرة[1] ذكر أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل فى دائرة سور القصر بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز ورتب فى القصر جميع مايحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فإنه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالى - يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور على جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوسايعة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير

---

(١) الخطط المقريزيه ج ١ ص ٣٧٧

إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين مترا إلى شمال جامع الحاج محمود الحتو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القدس الذى كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح، ثم يمتد السور فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى، وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة.

كان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى مكان الوجهة الغربية للمبانى الواقعة بشارع الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزيدية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوبا إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً خنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع الناخلية سابقا) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان

اللذان أنشأهما جوهر فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

أما السور الشرقى فكان يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، وليس لهذا السور أثر اليوم .

السور الثانى :

لما تكلم المقريزى فى خططه عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية ذكر أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليين ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقريزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويله وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى الموجود الآن الذى

يبدأ من النقطة الذى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح ، وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر ، وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

أما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبيـة من سور جوهر ، فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهـذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصـل إلى النقطة حيث يقع باب زويله الحالى، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخه أيدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الاحمر الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عنـد البرج الذى يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى .

أنشأ بدر الجمالى أسـواره باللبن ماعدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى البابين المذكورين وعلى جانبى باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى سـوره الثالث الذى سيأتى ذكره فى قاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

كان للقاهرة ثمانية أبواب ، لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففى الجنوب باب زويلة وكان بابين فى الأصل بإسم قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد أبى البناء وعند الحجارين[1] .

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت فى حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فإنشاء صغير به ضريح لمن يدعى « سيد فرج » وهو ليس سوى باب الفرج ،وفى الجهة البحرية التى يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : موضعه الأول بالرحبة التى أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى . وقد ذكر المقريزى أنه رأى جزءا من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم .

باب الفتوح : ذكر المقريزى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة

---

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخليه وتسميها العامة زاويه سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله وما ابن البناء سنة ٥٩٨ هـ وقد ازيل بابا زويله الإصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلهما باب زويله الكبير القائم إلى اليوم . وتسميه العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبه القاهره ــ تعليق محمد بك رمزى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) محمود أحمد : مجلة المهندسه ــ ١٩٣٤ ص ٣٣٢

الـكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى[1] .

وكان فى الجبهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما:

باب القراطين (المحروق) : يمكن تعيين موقع هذا الباب تعيينا أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفا باسم الباب المحروق[2] ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى[3] .

وباب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقريزى أبواب القاهرة وقف عند باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بباب الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : أول أبواب السور الغربى من الجنوب . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة

---

(١) الخطط المقريزية : ج ص ٢١٠ و ٢١١ ـ طبعة النيل

(٢) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهره عند ما علموا بقتل الفارس الامير اقطاى فى ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ ففى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما كانت العادة فى ذلك العصر إذا كانت تغلق أبواب مدينة القاهره فى الليل فاوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق المقريزى — طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) **K.A.C. Creswell : The Foundation of Cairo, P. 272**

نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة ودخلها من هـذا الباب، فعرف به وقيل له باب سعادة ويحدد موقع هـذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : عرف بذلك الإسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية[1] . وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقريزى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف فى أيامنا باسم الحروبى والعدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكان أول أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هو لما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونية ٩٧٢م)[2] ويعدالأزهر أول عمل فنى معمارى بناه الفاطميون فى مصر لايزال قائماً اليوم .

---

(١) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٩

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٤٩ ، صبح الاعشى للقلقشندى جـ ٣ ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات جـ ٢ ص ١٠٤ .

بني الجامع الأزهر فى شرق المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الديلم وحى الترك . وكتب جـوهر بدائرة القبة فى الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصه فى الخطط المقريزية وقد اندثر هذا النقش .

ويعد التخطيط الأصلى الذى أنشىء هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التى لا يمكن الإهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف المستنصر والحافظ فى بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع فى القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لايفسر الإسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة فى المسجد وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة الشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحى العالم الإسلامى .

---

(١) نص هذا النقش : مما أمر ببنائه عبدالله ووليه أبو تميم معد ، والامام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى فى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) .

ننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التى اشتملت عليها القاهرة المعزية :

سبق القول أنه فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تالف منها الجيش الفاطمى خطه عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتى :

١ ـــ حارة الروم : كانت حارتين : وهى التى لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الإسم بقسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ ـــ حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر فى أيام العزيز بالله نزار العبيدى . وصار فى أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله فى أحد قصوره .

٣ ـــ حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة أحدى قبائل البربر التى وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ ـــ حارة الجودرية : وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدى أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلا .

٥ ـــ حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة[1] وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين ، وكانت بها دار الوزير عباس

---

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة فى أول شارع خان الخليلى على يسار داخله من جهه شارع القمصانجيه من شارع بين القصرين ـ تعليق محمد رمزى ـ النجوم الزاهرة جـ٤ ، ص ٣٦ .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمى الذى تغلب على الشام فى عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطهوكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك .

٧ — حارة الباطنية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » فسمو الباطلية(١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافورا لأخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذة الحارة إلى ملوخية أحد فراشىالقصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارةالعطوف منسوبة إلىالخادم عطوف أحد خدمالقصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أوالمسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

وعلى مر الأيام زاد عددهذهالخطط وتطورت كثيراًفى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلا(٢) .

---

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنيه فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصله — كالمقريزى وعلى باشا مبارك ورافيس .

وصف المقريزى قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتى صفحة . وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩) واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين . واشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزرد والنسيم والبحر والحريم .

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة.

وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين .

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨ وقد قال المسبحى عنه « لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب » وكانت له عدة بوابات أهمها باب الساباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض وكان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات للقصر.

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا فى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م فى خلافة المستنصر وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة, ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة (الدار الأفضلية) أمير

الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتوالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم فى مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده دار الحكمة .

وفى أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى ، وقد افتتحت فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ ، وأستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالى، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة المعزية ما جاء فى تلك الوثيقة التى تثبت عظمة العصر الفاطمى وأبهته حين زار الخليفة رسولا الملك عمورى (أماريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م ليعقدا معه باسم سيدهما تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما واعجابهما بعظمة ما رأوه وروعته، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم فى هذا الصدد ، كما لخص لين بول بعضه فى كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢)

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان وفيه زخارف أنيقة نضرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة ، ووجدوا فى القصر حراساً عديدين وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج فى ممرات

(١) الخطط المقريزية نقلا عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ـ طبعة النيل
(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ ــ ٧٥

طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بعث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

كان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائقاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إلى أن يقف للاعجاب به ، وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجاباً بها ، ودون أن يقول أن الطبيعة كانت تموج وتلعب حين كونت هذه المخلوقات ومن هذه الطيور ما كان يلازم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذن الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت فى الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية أشد جمالا وإبداعا ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها ، ورأوا فى هذه الحديقة

أنواعــا من الحيوانات ذوات الأربع غريبــة بحيث يتهم المرء بالــكذب إذا وصــفها وتحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصــور أن يتخيل أو أن يحلم بمثــل هذه الكائنات العجيبة ، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال .

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجابا . وصل الفرنج إلى القصــر الــكبير حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ماشاهدوه قبل ذلك . وكانت أفنيتـــه تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الــكنوز.

وأدخل المبعوثون فى قاعةواسعة تقسمها ســتارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صــور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القــاعة أحد ، لــكن شاور خر راكعا فور دخوله ونهض واقفا ثم قبل الأرض ثانيا وخلع السيف الذى كان يلمع فى عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة فى ذلةوخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الحبال فجأة وانــكشفت الستارة الحريرية الذهبيةبسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضــد) لأعين الفرنج للبعوثين ، وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهبمرصع بالجواهر والأحجار الثمينــة .

المعز لدين الله وبناء المقس

كان الخلفاء الفاطميين من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المعز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان نزيها عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذى اعتمد عليه فى الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأ جديدا للسفن فى المقس شمال مرفأى الروضة ومصر (بالقرب من موقع ميدان — رمسيس الحالى) ، ولقد ظلت المقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه — وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصر خسرو » عدة سفن للمعز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ اقدام .

ومع أن المعز كان حازما محبا للعمل فقد كان ميالا إلى المظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفل قطع الخليج . وكان يغدق فى الانفاق على كسوة الكعبة فى مكة المكرمة . وكان يهتم لكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى وقد صرفت زوجه مبلغا على مسجدها فى القرافة والذى وضع تصميمه « الحسن ابن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة ، وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائما إلى أن احترق فى السنة التى أحترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « اماريك » ملك بيت المقدس القاهرة اثناء حصاره لها .

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من اتباعه وما دعت إليه مظاهر الترف تجبى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسعد مجدها مبلغا يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفى المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيرا له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » فى عدة معارك بالشام وقد عرف عهده فى مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعا باقتناء الكتب فجمع منها مكتبة كبيرة خصص لها قاعات فى قصره سماها «خزانة الكتب» وبذل الأموال فى تشجيع كتابة المؤلفات المهمة فى التاريخ والآدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبرى[1] .

ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذى أمر ببنائه فى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد اتم جانبا كبيرا منه فى مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة فى اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومئذنته . فبدأ عمله فى عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه فى عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه استارا ديبقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيرا من القناديل الفضية كذلك ، وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

جامع الحاكم بأمر الله

عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالازهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام ما لا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة فى سنة ١١٦٧ حولوا جانبا منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمى للدولة .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٩٣٧ ـ القاهرة

وفى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكمي بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالى مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه . وفى العام التالى أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه — واعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فعاد جديدا .

ولما كتب المؤرخ المقريزى خططه المشهورة فى ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والخراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه وكانت الفترة السعيدة التى مرت عليه لما أقيمت فى بعض اجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على جمال فنه .

وجامع الحاكم عمل أثرى نادر ، ومئذنتاه جددهما أثر زلزال عام ٧٠٣ هـ بيبرس الجاشنكير . قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مثمن الاضلاع ويتطور إلى شكل أسطوانى يخترقها سلم لولبي من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن .

تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره أحد عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير من أحواله وحوادثه . ومما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك المتناقضات نراه فى جامعه المظيم يراقب زخرفته ونقوشه ، أو فى دار العلم التى أنشاها بجوار القصر الغربى فى سنة ٣٩٥ هـ — والتى حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أماكن ينفق من ريعها ، وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والادب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى علوم الدنيا والدين .

ولما مات الحاكم تولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح ما منعه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفا إلى اللهو وكثرت فى أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنه حتى تعقبها أخرى وضاقت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء فصاح الناس « الجوع يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فالله الله فى أمرنا » .

ولما توفى الظاهر تولى ابنه المنتصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ) وكانت سنه عند مبايعته لاتزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلا كما شهد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عند زيارته لمصر بين عامى (١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) فقد قال أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يغلقوا أبوابها فى أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت فى القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهريا . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيها فى السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن قد ابتدىء فى بناء السور الثانى (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التى وصفها الرحالة مشيدة على نسق الاستحكامات . وكل قصر منها يشبه قلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد ، تتناثر فيها البساتين ومناظر الضواحى وتغمرها مياه النيل فى أثناء الفيضان .

وفى أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن الوزير القادر اليازورى استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التى نشبت أظفارها بخزنه كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيرا من وزارئه فى مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطاردوا الجنود السود من القاهرة . وتبت هؤلاء أقدامهم فى بعض نواحى الوجه القبلى فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا مسالك الرى ليفتكوا بالفلاحين حينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من الجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ماوجدوه فيها من التحف ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلافا من الكتب فى جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل أن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مغلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصر النيل فى فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالت القلاقل التى اقتضت الإسراف فى الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقط ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين ، فلم يبق من يزرع . وأخيراً لما لم يجد الناس حيوانا يقتلونه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الإنسان ، ثم جاء الطاعون فكان يحصد أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة فى الحمامات العامة واضطر الخليفة فى نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غيرأن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قامت مصر فى أثنائها مالم تره فى أشد عصورها ظلاما وكان المستنصر قد التجأ

إلى حاكم سورية الأرمنى « بدر الجمالى » فكتب إليه ليجيء على رأس، جيشه إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المجيء إليها وكان عبدا رفعته كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية ، فولى إمارة دمشق ثم عكا .

أبواب بدر الجمالى

وصل بدر الجمالى إلى القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأول سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ وقابل الخليفة . وفى ليلة من الليالى دعا أمراء البلاد إلى وليمة أولمها لهم فى منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المنتصر والطيلسات وقلد وزارة السيف والقلم وزيد فى القابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ولما أعاد النظام إلى نصابه فى القاهرة اتجه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنتها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب ، وأعاد الطمانينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المنتصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بامر الله العباسى فى بغداد .

تنفست القاهرة الصعداء مدة حكم الوزير بدر الجمالى . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة المعز القصر الشرقى ومنظرة اللؤلؤة لم يضف إلا الشيء القليل على عمارته، وجاء المستنصر ففضل الإقامة فى القصر الذى شيدة بالمطرية حيث أقام جوسقا .

وكان أول ماوجه اليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية

أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم أمام نمو مساحة المدينة التى ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الشمالية والجنوبية التى بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ ـ ١٠٩١) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذحى الروم فى الجنوب إلى داخل السور وكان فى خارجه ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد ـ وزاد عند باب القصر الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا ـ غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكى يتسع لبناء مئذنتى جامع المؤيد فى أثناء القرن الخامس عشر ـ الميلادى وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من من أعظم آثار العصر الفاطمى ، وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أدسا المدينة الأرمنية الأصل التى عرفها بدر فى أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم شيد بابا .

وتمتعت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالى إلى أن توفى فى القاهرة وهو فى الثمانين بعد حكم دام عشرين سنة ، وخلفه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على أبيه وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التى كانت لأبيه أمير الجيوش وظل فى منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الآمر فى عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه « أبو على » فى عام ١١٣١ . ولما قتل وهو فى طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه « يانس » (١) ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحى الذى تربع فى كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

---

(١) ينسب إليه حى (حارة) اليانسية وكانت واقعة خارج باب زويلة وتتصل اليوم بالدرب الأحمر .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الآمر فى ذى القعدة (٥٢٤هـ) وهو فى طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية فى جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التى تذكر له بنائه مسجد الأقمر بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية من الأجر اقيمت على أعمـــدة من الرخام وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه ٥١٩ هـ .

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمـونين بمجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز فى عام ٥٥٥هـ وأقام الصالح بن زريك فى الخـلافة العاضد لدين الله ، وقـد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسيا لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . قد مات ضحية نساء القصر اللاتى أوسلن إليه بعض رجالهن فـكمنوا له فى دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر مافاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقـدس من أيدى الفرنج ونصيحته لابنه أن يحـــذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحـذر فى محلهما إذا خلع شاور بن الملك الصالح واسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور فى عام ١١٦٣م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع أخر أجمـل جامع أنشىء فى عهـد الدولة الفاطمية ووجهته الغربية الفاطمية لانظير لها فى جميـع مساجد القـاهرة من حيث تصميمها ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة. وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالـكتابات الـكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ماوصـل اليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد .

تكلمنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشآتها الهامة ، وسنصف ما لحق بها من ثغور ونمو حتى نهاية الفواطم. كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة) متصلة بعمرالق امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسمين : ماحاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر , وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع ، والقشاقشين وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحزيين وحارة بنى سوسى إلى الشارع وبركة الفيل والهلالية والمحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأما ماحاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرب الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرميلة والميدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التى فيها الخليج الكبير فهى من باب القنطرة إلى المقس وماجاور ذلك فانها كانت بساتين فى غربها النيل ، وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر فى المقس إلى المكان الذى يقال له الجراف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها . وكان فيما بين باب سعادة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابنيان فيه . والناظر تشرف على مافى غربى الخليج من البساتين التى خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أماخارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران ، ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة أخرى . أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم

بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور ليمنع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التى عرفت بكيمان البرقية .

ولكى نوضح مراحل نمو القاهرة بإيجاز نذكر مايلى :

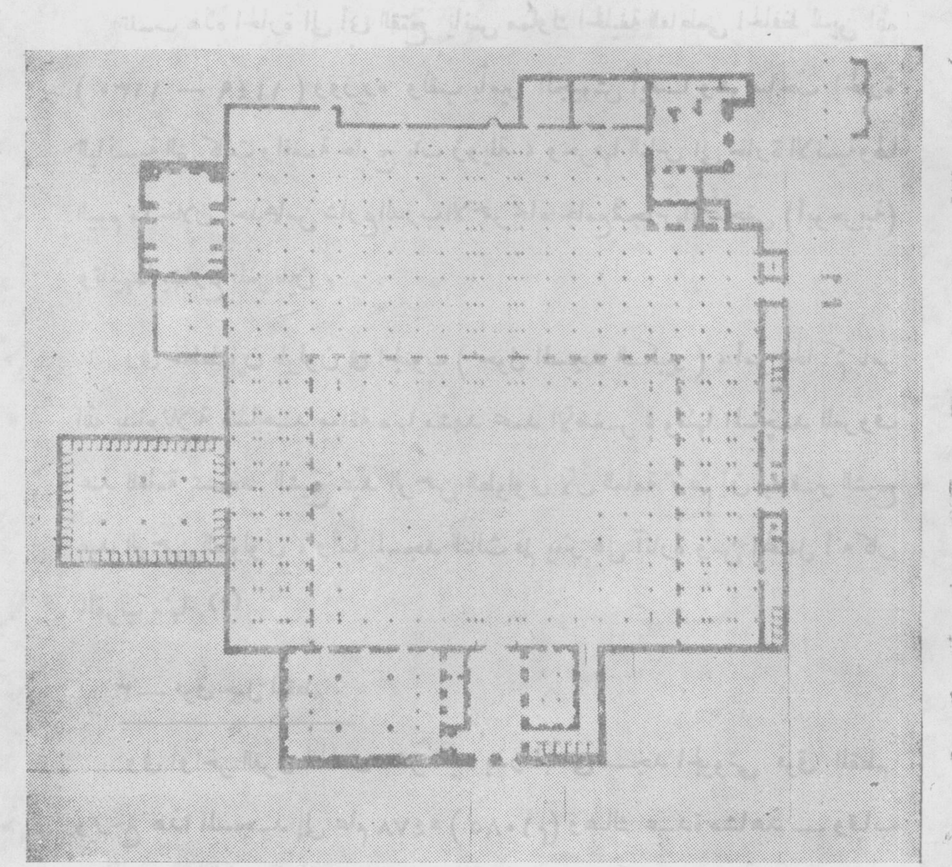
١ — توسعت القاهرة فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ و ١٠٢٠ م) من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففى الشمال خارج باب الفتوح ذكر المقريزى [١] أن الطائفة الحسينية وهى إحدى الطوائف الفاطمية سكنت حارة (خطة) الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات يتوسطها اليوم من الجنوب الى الشمال شارع الحسينية وشارع البيومى من باب الفتوح الى ميدان الجيش .

ويقول المقريزى فى الخطط عن الحسينية : احداهما ماخرج من باب الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى قرية الخندق [٢] وهذه الشقة هى التى كانت مساكن للجند فى أيام الخلفاء الفاطميين ، والشقة الأخرى ماخرج من باب النصر ، وامتد فى الطول الى الريدانية (العباسية) ، وهذه الشقة لم يكن بها فى أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر وما بين المصلى الى الريدانية فضاء لا بناء فيه , وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك ثم صارت هذه المنطقة مقابر أنشئ حول قبر بدر الجمالى الذى أقامه خارج باب النصر واستمر ذلك الى مابعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفى زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالى جنوب السور الجنوبى يعمرون ويبنون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادى

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى / ج ٤ ص ٤٥ .
(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٤٢ .



الأزهر :مسقط أفقي

عشر غير عامرة بالمبانى حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرعان مانهضت «ضاحية» امتدت تدريجيـــا حتى عظمت زمن المجاعـة العظمى فى أيام المستنصر لدين الله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) حينما بدأ نجم الفسطاط فى الأفول .

٢ — حارة اليانسيـة :

تنسب هذه الحارة الى أبى الفتح يانس مملوك الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (١١٣٠ — ١١٤٩) ووزيره ولقب بأمير الجيوش أيضـا وهو صاحب الحارة اليانسية التى كانت واقعـة خارج باب زويلة ، وحرفها الناس الى حارة الانسية ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الاحمر تجاه جامع قجماس الأسحقى (أبو حريبة) وثانيهما بشارع المغربلين .

وفى خطط ابن طولون فى الجنوب (حول المسجد الـكبير) ، أمر الحاكم بامر الله ببناء ثلاثة مساجـد معلقة منها مشهد محمد الأصغـر ، ومنها المسجـد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولونى لأن العامة تزعم أن به قـبر الشيخ عبد الرحمن الطولونى ، وأما المسجد الثالث فلم يعثر على آثاره ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها .(١)

٣ — فوق جبل المقطم :

وفى أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع هذا المسجـد إلى عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وهناك عـدة مشاهد ـــ وقباب شيدت أيضا خارج قاهرة النواطم فى القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المبانى الفاطمية التى شيدت خارج باب زويلة فى عام ١١٦٠ .

---

(١) على مبارك : الخطط جـ٢ ص٤٢ .

ولنرجع إلى ماذكره المقريزى فى خططه عندما أشار إلى ما بناه ، الفاطميون فى ظاهر القاهرة : « توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية (العباسية اليوم) وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما تقال له القاهرة وآخر يقال له مصر » .

(٤) ويبدو أن المقريزى نسى أن يذكر تاريخ هذا التوسع العمرانى ومتى حدث ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمى التالى ، فيذكر لنا أنه فى عهد الخليفة الأمر باحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودى لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بان « من كان له دار فى الخرائب أو مكان فليعمره ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه « فلما نادى الوزير المأمون عمر الناس ماكان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة ، ولم يبق من المعسكر ماهو عامر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون [٢] . ولكن فى أيام صلاح الدين الأيوبى حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل الساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت تهابه تلك البساتين الخضراء .

---

(١) المقريزى : خطط ، ج ١ ص ٣٠٥

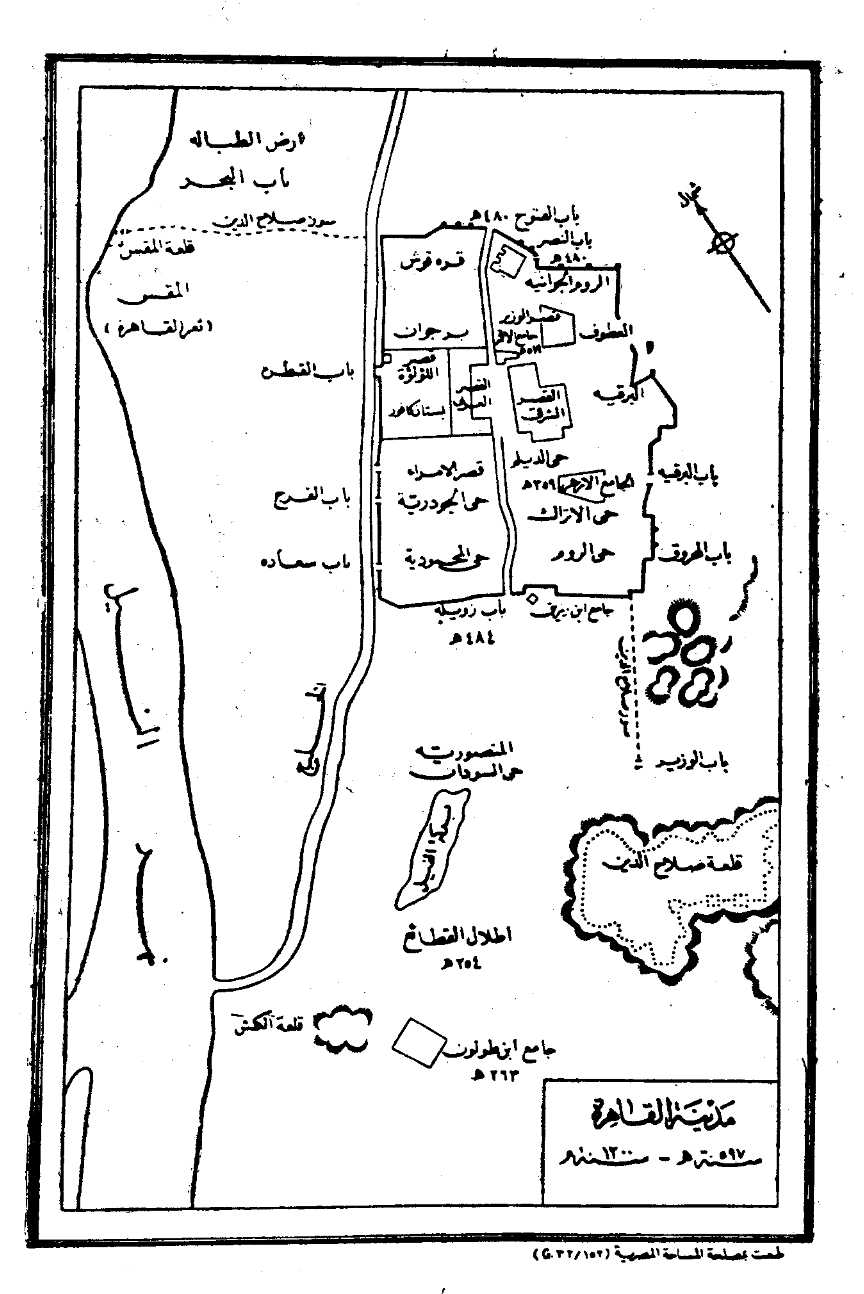
٥ — جزيرة الروضة :

وهناك فى أقصى الجنوب ، وأمام مدينــة الفسطاط حيث يجرى النيل تقابلنا جزيرة الروضة التى تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها وفى أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ – ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصــونها (٨٧٦ م) وجعلها مقرا لخزائن أمواله وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة السفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهد . وفى أيام محمـــد بن طغج الأخشيد أنشا بستانا وداراً سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضــة نسبة إلى البستان الذى أنشا فى نهايتها البحرية البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وبدر الجمالى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحـــد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التى مابرحت متنزها ملـكيا ومسكنا للاهالى .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

طرأ على ساحل النيل الشرقى فى المسافة الممتــدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع تغيرات على الأقل فيما بين عام ٦٨٨ م أى فى زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ فى أثناء حكم محمد على . ويهمنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة فى العصــر الفاطمى أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذى ظهر حول سنة ١١٢٦ م فى أيام الدولة الفاطمية ، إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد فى عمرانهـــا ، وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى للمرة الثــالثة إلى الغرب فى المســافة التى بين جامع الطيبى بشارع الديورة . وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشــارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح المنطقة التى تقع فيها اليوم كلية تجارة عين شمس . ومبانى وزارة



طبعت بمصلحة المساحة المصرية (G.٣٢/١٥٢)

أحياء القاهرة الفاطمية وامتدادها فى أوائل العصر الأيوبى

ملحوظة : صحة موقع باب الفرج فى السور الجنوبى وليس فى السور الغربى .

التموين القديمة) ووزارة البحث العلمى والرى والصحة ومجلس الشعب والجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية اليسية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلى ويمر فيها شارع شريف وامتداده إلى ميدان عرابى .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة فى أيام الأسرة الأيوبية ، وفى أيامها أخذت المدينة تتنازل عن مكانتها الارستقراطية التى تمتعت بها خلال فترتين .

٢ـ امتداد القاهرة أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية فى آخريات القرن الثانى عشر ومستهل الثالث عشر تتميز عن ذلك المقر الملكى الفاطمى . وأضحت تشغل مساحة قدرها عشر أمثال ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المبانى ذات الطابع الهندسى المستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم ، وكان الفضل فى هذه الانجازات لصلاح الدين الأيوبى . غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبناؤه وأحفاده وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا العاهل ، فقد شاهد فى الشام أن لكل مدينة قلعة حصينة تحميها ، فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ، كما لها سورها ...

وهنا ننقل ما كتبه عمادالدين كاتب السلطان صلاح الدين فى هذا الشأن :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة كل واحدة منها سور يحميها ، فقال : أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها . وأنى أرى أن أدير عليها سورا واحدا مع الشاطىء . وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد أسد الدولة على جبل المقطم » :



قطعة من سور القاهرة الشمالى

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة فى عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشى بهاء الدين قرة قوش الأسدى أحد أمرائه المخلصين ، ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة النص التذكارى لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينتهى بناء جميع أسوار القلعة فاهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فأتم البناء

سور حول القاهرة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع والقلعة سورا واحدا يحيط المدينة الكبرى بأسرها فبدأ عمارة هذا السور الأيوبى (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله وفى عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قرقوش الأسدى لعمل هذا السور . فبناه بالحجارة . وزاد فى سور القاهرة الغربى الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة المقس فى نهاية السور الشمالى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك [1] ثم زاد فى سور القاهرة الشمالى الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر فى أقصى الشمال الشرقى للقاهره . ومن هذا البرج الذى مازال باقيا فى مكانه إلى باب البرقية فى السور الشرقى . ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع لوفاة صلاح الدين .

---

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت مجرى المياه.



باب النصر

السور الغربي :

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربي للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصري في محاذاة سور بدر الجمالي وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربي امتدت في النهاية الغربية لسور بدر الجمالي الشمالي واتجهت نحـــو الغرب إلى باب القنطرة الذي انشأه صلاح الدين في السور الغربي تجاه باب القوس الذي كان يعرف بباب الرماحين . لـكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد في سور القاهرة الشمالي ويمده إلى الغرب إلى شاطيء النيل الشرقي .

السور الشمالي :

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالي غربي البرج المستدير الذي يقع على بعد ١٠٣ مترا غربي باب الفتوح ، وتمتد هـــذه القطعة عند برج كثير الاضلاع ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقي قريبا بشارع الخليج المصري ، وقد ازيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش منذ ثلاثين سنة تقريبا . وتستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت اجزاء متناثرة من هذا السور وبرج ، يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالي إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقي المجاور للبرج المذكورة .

السور الشرقي :

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب لبرقة وباب لبرقة وباب القراطين

(الباب — المحروق) ولايزال باقيا إلى اليوم اجزاء كثيرة من لسور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبى برج الظفر بطول أربعمائة متر ويقع فى هـــذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتختفى اجزاء كثيرة تحت كيان التراب ومن السور المذكور القطعة التى تبدأ من برج درب المحروق وتسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الاجزاء الباقية من السور الشرقى وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانقاه النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع المهيع سلاطين (خرب) وطــول هــذه الجزء ١٢٥ م . وأما الباقى من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتهيأ للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبى :

لـــا مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبى القاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ثم التحقت بسور بدر الجمالى وباب زويلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبى الغربى للقلعة إلى الفسطاط فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة ابراج لم يكشف عنها جيدا من الناحية الاثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الاماكن المعقودة السقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولايزال واحـــد منها قائما على بعد سبعين مترا جنوبى باب القرافة الذى فتحه الظاهر بيبرس فى حائط مجرى المياه وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القرافة (جبانة المماليك وسيدى جلال والإمام الشافعى)

أبواب القاهرة الايوبية

نوجز الكلام الآن على أبواب قاهرة الايوبيين على ترتيب الأسوار :

١ ـــ أبواب السور الغربى ، من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤هـ ـــ ١١٦٩ م) :

(ا) باب القنطرة الثانى ٢ ـــ باب الخوخة ٣ ـــ باب سعادة .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦ م) :

١ ـــ باب البحر (هدم حوالى ١٨٤٧) ٢ ـــ باب الشعرية (هدم حوالى ١٨٨٤) .

(ج) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦) :

١ ـــ الباب الجديد ٢ ـــ باب البرقية (تحت كيان الدراسة)

٣ ـــ الباب المحروق وبرجاه الجانبيان باقيان .

(د) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٦٤ هـ ـ ١١٦٩ م) :

باب الفرج الثانى (لايعلم متى خرب)

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ هـ ـ ١١٧٦ م) :

١ ـــ باب القرافة (بعض اجزائه باقية) ٢ ـــ باب الصفاء (خربه الظاهر بيبرس) .

٣ ـــ باب الفسطاط (بعض مداميك ابراجه الجانبية باقية) .

وننتقل إلى الكلام على كل منها : ـ

باب القنطرة الثانى

شيده صلاح الدين فى عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م على الحافة الشرقية الخليج، وعرف بهذا الاسم لأنه يقع تجاه القنطرة التى بناها جوهر القائد على الخليج الكبير فى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م (الخطط المقريزية - ج ٢ ص ١٤٧)

باب الخوخة

شيد فى واجهة باب الخوخة الفاطمى ، ولا تعرف الظروف التى اختفى فيها هذا الباب . وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بباب جامع القاضى يحيى زين الدين .

باب سعادة

عرف باب سعادة الأول بهذا الاسم لنسبته إلى أحد قادة المعز الدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

باب البحر

كان يعرف هذا الباب بباب القس لوقوعه فى قرية المقس التى كانت يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من الحديد ، ونسب اليه ميدان باب الحديد وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالى عام ١٧٤٧ .

باب الشعرية

كان يقع بين باب البحر والخليج فى السور ، وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقريزية ج ١ ص ٣٨٢) ورسم هـذا الباب

على خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هـذا الباب فى عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وكان يعرف أخيرا باسم باب العدوى . لوقوعه تجاه جامع العدوى .

الباب الجديد

أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى عرف باسم الباب الجديد لأنه كان أول باب أنشىء فى سور القاهرة الشرقى من الناحية الشمالية بعد باب النصر وله بدنتان كبيرتان. وقد كشفه الأستـاذ كريز ويل الأثرى المعروف .

باب البرقية

من الأبواب الصلاحية ذكره المقريزى (ج ١ ص ٣٨٠) وتـكلم القلقشندى (صبح الأعشى ج٣ ص٣٥٤) بقى مدة طويلة مختفيا تحت كيمان التراب حتى اكتشفه المرحوم على بهجت مدير الآثار العربية . ولا يزال هذا الباب موجودا بأكمله ومحتفظاً بشكله الأصلى من الأساس إلى الشرفات وقد نسب الى جنود برقة فى الجيش الفاطمى ، وعرف أيضا بباب الغريب .

الباب المحروق

ذكره المقريزى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندى (ج ٣ ص ٣٥٤) وكان يعرف قديمـا باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق للواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسيم .

يمـكن أن نوجز أهم معالم القاهرة فى أيام الأيوبيـين فيما يلى :

(١) قلعة الجبل والسور :

كان لبناء القلعة والسور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعى ، وجامع عمرو بن العاص ، وفى القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسر توسيع القاهرة فى ذلك الاتجاه الجديد .

(٢) بركة الفيل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق فى أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان وكانت تروى من الخليج المصرى وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية . تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) فى العصر الأيوبى ، ولم يبق من أرض البركة بغير بناء إلى عام ١٨٠٠ إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول والى مصر وهى المعروفة بسراى الحلمية وحديقتها وفى عام ١٨٩٤ قسمت أراضى الحديقة وفى عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيه وبيعت وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التى تحد اليوم شمالا بسكة

الجبانية ومن الغرب بشوارع درب الجماميز واللبودية والخليج المصرى، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى الشارع الألفى ، ومن الشرق تكملة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبد الرحمن بك وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى (محمد رمزى : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٣٦٦-٣٦٧) . وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة عمرت فى القاهرة على أيام الأيوبيين ثم ازدهرت كحى أرستقراطى فى أيام المماليك وبقيت على هذه الحال على أيام العثمانيين .

(٣) جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم الكبش على الركن الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث النقطة الواقعة غربى جامع ابن طولون ولا تزال هذه المنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش بشارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا) سابقا . وفى أثناء سلطنة الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على ذلك الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التى فى بر الخليج الغربى من المقس إلى فم الخليج ، والتى فى بره الشرقى من باب زويلة إلى الصليبة ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت منتزهات جميلة يقصده الناس وقد تانق الملك الصالح فى بنائها . ومازالت بعد وفاة الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين فى عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

(٤) جزيرة الروضة :

وفى أقصى الجنوب ، وفى مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩م) قلعة الروضة أو قلعة الصالحية وقد شرع فى حفر أساس القلعة فى يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ ، وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب مقياس النيل وأدخلها فى القلعة وانفق فى عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا وأقام بها جامعا وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليهما من الغلال — والازواد خشية محاصرة الفرنج ، فانهم كانوا حينئذ فى عزم أن يقصدوا بلاد مصر .

وذكر المقريزى أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية وموجز القول أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا فى جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد أن نقلهم من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فامر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المعزية التى كانت برحبة الجنة بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه فاتخذوا كثيرا من سقوفها ونوافذها وغيرها ، وبيع أخشابها ورخامها وأشياء جليلة .

٥ — قبة الإمام الشافعى :

لما توفى الإمام الشافعى فى سنه ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم وفى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين تربة الشافعى وبنى بجوارها المدرسة الإصلاحية ، وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندى المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوبة عليها الآيات القرآنيه وترجمة حياة الشافعى واسم الصانع الذى قام بعمله وذلك بالخط الكوفى والنسخ الأيوبى . ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعى وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الايوبية ثم أوصل الماء إليها من بركة الحبش وكان الفراغ من إنشائها فى يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوت من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعى .

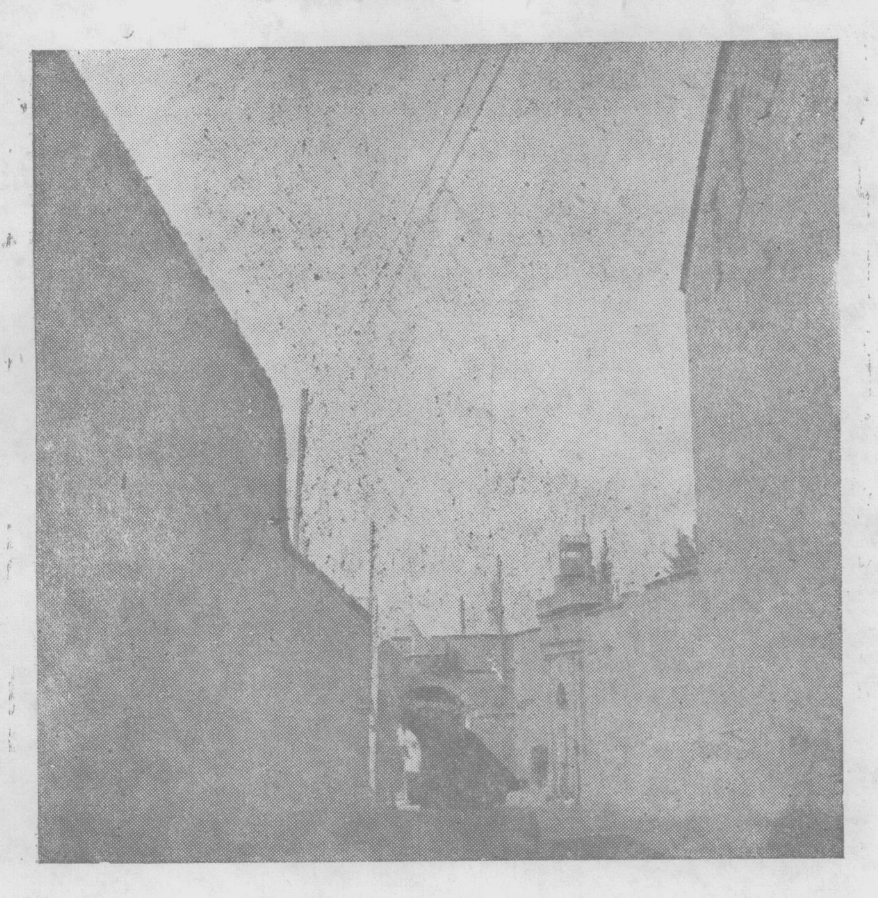
والملك الكامل محمد هذا هو منشىء دار الحديث الكاملية الجليلة فى النحاسين وكان ذلك فى عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥) وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربى لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق أمام منشآت الملك الصالح نجم الدين .

وتنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى المدرسة الصالحية التى وضع أساسها فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيها فى العام التالى بالرغم من ضخامة بنائها وقد أقيمت على موضع القصر الفاطمى الشرقى ، وأول من درس بها قاضى القضاة شمس أبو بكر .

ومئذنة المدرسة نموذج فريد للمآذن الأيوبية ولها مكانتها من ناحية التطور المعمارى المئذنة .

تلك ، كانت القاهرة الأيوبية الكبرى حينما استقبلت حكم دولة المماليك الأولى فى أعقاب انتصار الأيوبيين فى معركة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

د . عبد الرحمن زكى



قلعة الجبل : ممر يؤدى الى باب العزب

صور من مجتمع
القاهرة فى العصور الوسطى(*)

بقلم

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة

يمتد تاريخ القاهرة فى العصور الوسطى من سنة ٩٦٩م حتى سنة ١٥١٧ م . وفى هذه الحقبة التى قاربت خمسة قرون ونصف تعاقبت على حكم القاهرة ثلاث دول كبرى لكل دولة منها طابعها الخاص المميز ، هى دولة الفاطميين ، ودولة الايوبيين ، ودولة سلاطين المماليك .

والمعروف أن الحياة الاجتماعية تتصف دائما بنوع من الثبات والاستقرار وبطء التغيير بخلاف ما عليه الحال فى الحياة السياسية أو الحياة الاقتصادية .

وإذا نحن نظرنا إلى مجتمع القاهرة اليوم فإننا لا نرى وجها للمقارنة بين الأوضاع السياسية والاقتصادية السائده فيهـــا ، وتلك التى كانت سائده أيام الفاطميين أو الايوبيين أو المماليك . ومع ذلك فإننا نلمس بعض الأوضاع الاجتماعية والعادات والتقاليد التى نحرص عليها اليوم والتى حرص عليها أهل القاهرة أيام الفاطميين والايوبيين والمماليك .

(*) محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ ضمن موسم القاهره الثقافى بمناسبة مرور ألف عام على انشاء مدينة القاهرة — وذلك مساء الاثنين ٢٩ ابريل ١٩٦٩ بمقر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

ومن هذه المقدمة نخرج بحقيقة كبرى هى أن مجتمع القاهرة احتفظ بقدر ثابت من صورته طوال العصور الوسطى ، رغم تعاقب ثلاث دول عليه فى تلك العصور . ولا نقصد بذلك مطلقا اتفاق مجتمع القاهرة فى تفاصيله أيام الفاطميين مع ما كان عليه أيام ـ الايوبيين أو أيام المماليك ، فلكل دولة من هذه الدول الثلاث ظروفها الخاصة السياسيه والاقتصادية وربما العقائدية والمذهبية التى عكست صورتها على حياة العاصمة وتركت أثرا فى مجتمعها ، مما جعل هناك قدرا متفاوتا من التباين فى بعض الأوضاع الاجتماعية بين الدول المشار إليها . وإنما كل ما قصدناه هو تأكيد حقيقة هامة هى وجود قدر كبير مشترك من الأوضاع الاجتماعية ظل سائدا فى مجتمع القاهرة طوال العصور الوسطى ، بل ربما العصور الحديثة . وترجع بعض هـــذه الأصول المشتركة إلى ظروف البيئه التى تمتد بعيدا فى بطون التاريخ ، فى حين يرجع البعض الآخر إلى الطابع العام للمجتمع العربى الاسلامى و ماساده من تقاليد اجتماعيه مشتركة فى جميع انحاء الوطن الاسلامى الكبير تحت تأثير تعاليم الاسلام وآدابه .

ولا يعنينى فى هذا البحث ذلك الطابع العام للحياة الاجتماعية فى القاهرة طوال العصور الوسطى أو ذلك القدر المشترك من التقاليد والعادات التى كيفت الحياة العامة فى القاهرة فى تلك العصور ، بقدر ما تعنينى الاشارة إلى الطابع الخاص للحيـــاة الاجتماعية فى القاهرة على عصر كل دولة من الدول الثلاث التى تعاقبت فى حكم مصر فى العصور الوسطى، مع بيان العوامل التى تحـكمت فى تـكييف الحيـاة الاجتماعية بالقاهره أيام الفاطميين أو الايوبيين أو سلاطين المماليك ، كل على حدة

ولعل اهم ما يميز الحياة الاجتماعية فى القاهرة على عصر الخلفاء الفاطميين المبالغة فى احياء الاعياد والمواسم ، وهى ظاهرة تستحق منا وقفه خاصة لتعليلها . لقد قال البعض أن ثراء الخلفـــاء الفاطميين ـ وخاصة فى العصر الأول لتلك الدولة ـ كان

الدافع الاساسى لذلك الاسراف وتلك المبالغة ، ولكننا نسمع عن بعض حكام مصر السابقين واللاحقين ممن كانوا لايقلون ثروة عن الخلفاء الفاطميين الأوائل ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا فى إحياء الاعياد واقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثلما أسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض الوان الطعام وبعض العادات والتقاليد المرتبطة بالاعياد والحفلات والتى ماتزال قائمة فى مجتمعنا حتى اليوم إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين بالذات فما هو التعليل العلمى السليم لهذه الظاهره ؟ ؟

أن الأمر فى نظرنا لم يكن مجرد ثروة وافره نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يجدوا مجالا لتبديدها سوى المبالغة فى إحياء الحفلات ومد الاسمطه واقامة الحفلات . وإنما كان الأمر – من وجهه نظرنا – أبعد من هـذا بكثير . لقد قامت الدوله الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لاتدين بهذا المبدأ ولاتأخذ بذلك المذهب . وكان لابد لنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك العصور . وهل هناك طريق للدعاية لاولئك الحكام الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أيسر من أشباع البطون وإحاطة الخلفاء بهالة من العظمة والمجد، وأشاعة جو من الفرح والحبور يجعل الناس – وخاصة فى العاصمة – لايرون فى ذلك التحول الجديد إلا كل حبيب إلى نفوسهم وبطونهم ؟ ؟

وهكذا اتخذت الدولة الفاطميه من الاعياد والمواكب والاسمطة سبيلا للدعاية والنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولائهم ومحبتهم وإعجابهم بالنظام الجديد . هـذا فى الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس من طريق نشر مبادىء المذهب الجديد ، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهـذه الدعوة الفكرية . ومن الاعياد التى جرى الفاطميون على المبالغة

فى إحيائها ما هو عام بالنسبة للمسلمين جميعا مثل عيد أول العام الهجرى وعيد مولد النبي (ص) . ومنها ما أدخله الفاطميون فى مصر مثـــل مولد على بن طالب ومولد الحسن ومولد الحسين، رضى الله عنهم . وكذلك الاحتفال بليالى الوقود الأربع وهى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه ، فضلا عن الاحتفال بعيد الندير — أى غدير خم — وهو المكان الذى يقول الشيعة أن النبي (ص) ولى عليا بن أبى طالب عهده فيه وجعله منه بمنزلة هارون من موسى . أما يوم عاشوراء — وهو عاشر المحرم — وقـــد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيرا تعطل فيه الأسواق ، ويخرج أهل القاهره إلى الطرقات يبكون وينوحون حزنا على الحسين بن على الذى استشهد فى ذلك اليوم . وكان يمد فيه سماط أطلق عليه اسم سماط الحزن ، لا يقدم فيه إلا الخبز الشعـــير والعدس والملحات والجبن ونحوها . وهناك من الاعياد التى شهدتها القاهره فى العصر الفاطمى ما اتخذ صبغة قوميه مثل عيد جبر الخليج - أى وفاء النيل - وعيد النوروز - وهو عيد الربيع - ، فضلا عن خميس العهد وهو أحد الاعياد المسيحية ، يأتى قبل الفصح بثلاثة أيام ، واحتفل به الفاطميون مشاركة النصارى فى أعيادهم[1] .

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا فى مواكب فخمه يشقون شوارع القاهرة وسط افراح الناس وزغاريد النساء ومظاهر الزينة . وبعض هذه المواكب كانت تسمى المواكب العظام ، وتتم فى أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والاضحى ، وجبر الخليج . أما المواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندى أسم المواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ، ويكون ذلك عادة أيام السبت

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤١٧

والثلاثاء[1] . وفى بعض هذه المواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجمال ، وعليها المودج المزركشة تتهادى فى شوارع القاهرة ، ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، فى حين يحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق[2] .

واشتهرت أعياد القاهرة فى عصر الفاطميين بما كان يقام فيها من ولائم وما يمد من أسمطه صارت مضرب المثل فى التاريخ . واشهر الاسمطة التى كان يقيمها الخلفاء الفاطميون هى تلك التى كانت تمد فى أول العام الهجرى وفى مولد النبى (ص) وفى غرة رمضان وفى عيدى الفطر والاضحى . ويكفى للوقوف على فخامة هـذه الاسمطة ، وما كانت تحويه من كميات ضخمة من ألوان الاطعمة أن نشير إلى أن السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف[3] ويذكر القلقشندى أن السماط الواحـد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلثمائه وخمسون من الطير ، ما بين دجاج وحمام ، هـذا عدا الفطائر والحلوى[4] . وبعد أن يفتتح كبار القوم السماط ، يباح لعامة أهل القاهرة ، فيأكلون ملأ بطونهم ، ويسمح لهم بحمل ماتبقى وبيعه فى الأسواق . وفى مولد النبى (ص) كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع فى الأزهر على عامة أهل القاهره[5] .

وهـكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون أهل القـاهرة ، عن طريق

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٠٣ ـ ٥٢٠ .
(٢) ناصرى خسرو ، ص ١٣٦ ـ ١٤٢ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٦٦٢
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

إشباع بطونهم ، فظل الدعاء للخلافة الفاطمية طالما هى فى يسر ، حتى إذا ما أدبرت الدنيا فى وجهها ، وساءت أحوالها الاقتصادية ، انفض عنها كثيرون ، وهذه هى سنة التاريخ .

أما الدولة الايوبية فقد جاءت من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فى القاهره طوالهما بالاسراف والمبالغة فى أحياء الحفلات ، وهما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية . ولكن دولة بنى أيوب أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الايوبية فى وقت صار الصليبيون بالشام أشد مايكونون قوة واتساعا ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس فى الشام فحسب ، بل أيضاً فى مصر، فضلا عن الحجاز والعراق وبعض أجزاء المغرب . لذلك لم يكن هناك مجال أمام الايوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الايوبى لمباشرة حياة الترف فان المال لم يتوافر ، لأن حراسة القوافل ، وتحصين المدن ، وشحن القلاع ، واعداد الجيوش ، وبناء السفن والأساطيل ، وصناعة العدد وآلات الحرب . . كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد آخر درهم فى خزانة سلاطين بنى ايوب .

وبينما نقرأ فى مصادر التاريخ أن أول ما شرع فيه جوهر الصقلى فور تأسيسه مدينة القاهرة هو بناء قصر كبير لمولاه الخليفة المعز لدين الله ، إذا بابن شداد يروى عن صلاح الدين أنه « قنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة[1] » . وبينما يحكى المقريزى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه انجب

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

بنتين إحداهما رشيدة وقد تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب، والأخرى عبدة وقد تركت عـــددا من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على أكياس الزمرد والدنانير والثياب الفاخرة[1] ، إذ بنا نسمع عن صلاح الدين أن الجهاد استنفد كل دينار فى خزائنه بحيث لم يترك عند وفاته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجرام واحد من الذهب[2] .

ووصل الخليفة للمعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، فكان أول ما شرع فيه هو تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفـــلات والمبالغة فى فخامة المواكب . . . أما صلاح الدين الايوبى فكان أول ما أهتم به عندما تمت له الأمور فى مصر هو بناء قلعة الجبـل وتشييد سور القاهرة واتخـاذ كافة الاجراءات لحماية البلاد والعباد من خطر العدو الصليبى .

وليس معنى ذلك أن الحيـاة الاجتماعيه فى القـاهرة على عصر بنى ايوب صارت مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، خالية تماما من مظاهر الأفراح والليـالى الملاح . إذ الواقع أن الايوبيين حافظوا على أحياء الاعياد الدينية وغير الدينية ، ولـكن فى غير أسراف ودون مبالغة أو تهتك . فالمقريزى عندما يشير إلى بعض الإحتفالات فى العصر الايوبى لايتعرض لالوان الاباحية وصنوف المنـكر التى انتقدها فى مرارة عند كلامه عن الاحتفالات فى العصرين الفاطمى والمماليـكى[3] . ذلك أن ـالايوبيين اقتصروا فى الحفلات ، وألغوا بعض ما ارتبط منها باعياد الشيعة ، فى حين حوروا البعض الآخر ، بما يتفق وإحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى .

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

من ذلك مثلاأن عاشر المحرم – وهو يوم عاشوراء – كان يوم حزن عند الفاطميين ، تغلق فيه الأسواق ، فجعله الايوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ، ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب(١) . وهكذا لم تحرم القاهرة فى عصر الايوبيين من أحياء الحفلات والاعياد ، ولكن فى غير تبذل أو إسراف ، فنسمع عن الاسمطة السلطانية فى العصر الأيوبى ، ونسمع أن أول من ركب بشعار السلطنة فى القاهرة كان السلطان صلاح الدين الأيوبى نفسه ، ولكننا لانسمع عن الاسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والموا كب الفاطمية أو المماليكية(٢) .

حقيقة أننا نجد فى المراجع إشارات إلى أن بعض خلفاء صلاح الدين بالغوا أحيانا فى إقامة بعض الحفلات . من ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الاسمطة الكبرى لاعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر(٣) . كذلك روى عن السلطان الكامل إنه قام سماطا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق فى ذلك السماط أموالا باهظة(٤) . وتكرر ذلك فى عهد السلطان العادل الصغير الذى أقام سماطا فى الميدان الأسود تحت القلعة ذبح لأجله ألف رأس من الغنم ، فضلا عن البقر والجاموس والإبل(٥) . ولكن هذه كلها كانت حالات فردية ، لاتعبر بحال من الأحوال عن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة فى الشطر الأول من تاريخها .

ومهما يكن من أمر نشاط الحياة الاجتماعية فى القاهرة على عصرى الفاطميين

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر ، ص ٥٩

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٠٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٤) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩ (مخطوط) .

(٥) المرجع السابق ، ورقة ٦٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ – ٢٩٠

والأيوبيين ، فإن الحقيقة الكبرى التي لا يرقى إليها شك هي أن القاهرة في عصر سلاطين المماليك شهدت أزهى حلقات نشاطها الإجتماعى وغير الاجتماعى فى العصور الوسطى . حقيقة أن سلطنة المماليك قامت عند منتصف القرن الثالث عشر للميلاد وخطر التتار قد ابتلع فعلا بلاد الشام وبلغ غزة مهددا بابتلاع مصر ووادى النيل . هذا بالإضافة إلى خطر الصليبيين الذى كان لا يزال رابضا على أرض الشام عند قيام سلطنة المماليك. ولكن المماليك استطاعوا فى مستهل دولتهم كسر شوكة التتار وطردهم نهائيا من بلاد الشام والوقوف لهم بالمرصاد لردعهم كلما حدثتهم أنفسهم بعبور نهر الفرات لتهديد الشام . أما الخطر الصليبي فقد صار أضعف من أن يشكل خطرا حقيقيا على المماليك ودولتهم ، ولم يلبث سلاطين المماليك فى مدى أربعين عاما من قيام دولتهم أن قوضوا أركان البناء الصليبي بالشام ، واستولوا على المدن والمعاقل الصليبية واحدة بعد أخرى حتى انتهى الأمر بطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام سنة ١٢٩١(١).

وهكذا لم تشعر القاهرة وأهلها فى عصر سلاطين المماليك بإحساس الخطر الذى أحسوه فى عصر الأيوبيين . ويكاد لم يخل يوم فى ذلك العصر إلا وشهدت القاهرة حفلا أو موكبا ، لاستقبال سلطان وقد عاد من الشام منتصرا على التتار أو على الصليبيين(٢) ، أو احتفال بشفاء سلطان من مرض ألم به(٣) ، أو إحياء لعيد أو لمناسبة دينية أو قومية(٤) أو لمشاهدة موكب السلطان وقد نزل من القلعة فى طريقه إلى سرحة الصيد أو ملعب الكرة أو شاطئ النيل طلبا للراحة وتغيير الهواء(٥) . وفى جميع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي فى مصر والشام ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٨
(٣) تاريخ ابن الفرات ، حوادث ٧٩٩ هـ
(٤) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣) ص ٧٤
(٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٨٦ — ٨٧ .

هذه المناسبات كانت القاهرة كلها تلبس حلة زاهية مشرقة ، فيقوم أصحاب الحوانيت بتبييضها وتزيينها، وتصطف المغانى من النساء فى الدكاكين ، وتفرش الشوارع بشقق الحرير ، وتضرب الكوسات بالقلعة والطبلخانات بدور الأمراء . ويتبارى الناس فى إقامة أقواس النصر — التى عرفت باسم القلاع — فى الشوارع ، وفى الليلة السابقة للموكب يخرج النـاس إلى الشوارع الرئيسية التى يمر بهـا موكب السلطان لاستئجار الأماكن التى يقضون بها الليل استعدادا للفرجة فى اليـوم التـالى . وهـكذا تقضى القاهرة ليلتهـا مضاءة بالشموع والقناديل ، وتختلط فيها أصوات المغـانى بدق الدفوف وزغاريد النساء ودعاء الرجال(١) . فإذا مر يوم على القاهرة دون الاحتفال بعيـد دينى أو قومى أو بموكب سلطـانى ، فإنه كان لا يخلو غالبا من احتفال عائلى فهـذا شوار عروس تحمله الجمال والبغال التى قد يصل عددها إلى ثمانمائه جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال لتشق شوارع القاهرة فى موكب حافل إلى منزل الزوجية(٢) وهـذا رجل شفى من مرضه فاتجه إلى الحمام وسط موكب من الأهل والأحباب التفـوا حوله ابتهاجا بشفائه(٣) . وهذه مغنية شهيرة تغنى فى مكان معين ، فيتدافع أهل القاهرة صوب ذلك المـكان للاستمتاع بصوتها وغنائها(٤) .

على أنه إذا كانت الحيـاة الاجتماعية فى القاهرة قد بلغت ذروة نشاطها فى العصور الوسطى على أيام سلاطين المماليك ، فإن ذلك يستدعى منا وقفة قصيرة لتفسير أسباب هذه الظاهرة . وهنا يصح أن نشير إلى أن نشاط الحيـاة الاجتماعيـة فى أى مجتمع

---

(١) أبو المحاسن : النجـوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية ج ٤ ق ٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن حجر : الدرر الـكامنة ، ج ١ ص ٤١٨

(٣) أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧

(٤) السخاوى : الضـوء اللامع ج ١٢ ص ٣٣ ، ابن حجر : الدرر الـكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

إنما يتوقف على طبيعة هـذا المجتمع وخاصة من ناحيـة حجمه وبنائه ومدى ثرائه .
فإذا نظرنا إلى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك من هذه الزوايا الثلاث وجدناها قد استوفت جميع أركان النشاط الاجتماعى الخصب .فمن ناحية الحجم ، فاقت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك مثيلاتها من مدن العالم من حيث السعة وكثرة السكان . وحسبنا أن ابن بطوطه ـــ وهو الرحالة الذى طاف بمعظم أركان العالم المعروف فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلاد) ـــ وصف القاهرة بأنها « أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية فى الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط الضعيف والقادر ، بهـا ما شئت من عالم وجاهل وجاد وهازل ، تمـوج موج البحر بسكانها وتـكاد تضيق بهم على سعة مكانها(١) وذكر جيهان تنود الذى زار مصر سنة ١٥٢٢م أن القاهرة تبلغ ثلاثة أمثال باريس(٢) ، فى حين قال برنارد دى بريدنباخ أنه لا يعتقد فى وجود مدينة أخرى فى العـالم كله تضاهى القاهرة فى كثرة سكانهـا واتساعها وعظمتها وثروتها ، وأن جميـــع سكان إيطاليا لا يضاهون فى الـكثرة القاهرة وحدها(٣) .

أما عن بناء مجتمع القاهرة فى ذلك العصر ، فـكانت غالبية سكانها من المواطنين ومن هؤلاء كان العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعامة من المسلمين وأهـل الذمة سواء ولـكن امتازت القاهرة فى عصر ســلاطين المماليك باكتظاظها بالمماليك ـــ وهم الطبقة الحـــاكمة السائدة فى البلاد ـــ ومعظمهم من الترك ثم الجركس . هذا كله فضلا عن الأجانب من التجار والسفراء والرحالة وغيرهم الذين وفدوا على مصر من مشارق الأرض ومغاربها ومن البلاد الإسلامية والمسيحية سواء .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ٦٧ .

(2) Carré : Voyageurs et Ecrivans Francais en Egypte, 8. 4.

(3) Clerget : Le Caire, Tome I, pp.152—153

وأخيرا ، فإن القاهرة صارت عاصمة العالم التجارية في عصر سلاطين المماليك ، بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب في ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقى طريق مصر والبحر الأحمر وحده بعيدا عن تهديدهم ، الأمر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار تجارة الشرق وخاصة تجارة التوابل . وهذا عاد عليهم وعلى مصر بثروة فائقة ، ظهرت صورتها في مجتمع القاهرة في ذلك العصر(١) .

وكان أن اكتظت القاهرة في عصر سلاطين المماليك بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس . والمنشآت الاجتماعية كالسبل والبيمارستانات والحمامات والمؤسسات التجارية كالأسواق والفنادق والوكالات . وعنى سلاطين المماليك بتجميل عاصمتهم وكنس شوارعها ورشها بالمياة منعا لإثارة الأتربة(٢) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل أطفاء ما يحدث من الحرائق(٣) واختص المشاعلية بأسربة البيوت والحمامات وخزاناتها فقاموا على نزحها وتنظيفها بين حين وآخر(٤) . كذلك أمر بعض السلاطين — مثل بيبرس وبرقوق — باخراج البرصاء والمجذومين من القاهرة ، واندروا من يظل منهم داخل أسوارها بالقتل(٥) . هذا فضلا عن عنايتهم بتطهير العاصمة من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها ، فامروا بامساكها ونفيها بعيدا خارج المدينة(٦) .

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٨٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٣) المقريزى : المواعظ ، ج ٣ ص ١٧٤ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٤٨ .

(٥) تاريخ ابن الفرات ، حوادث سنة ٧٩٤ هـ ، العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ، ج ١ ص ١٢٥ .

وهكذا رأت القاهرة مجتمعا صاخبا فى عصر سلاطين المماليك ، فبالاضافة إلى الاحتفالات والمواكب العديدة التى سبق ذكرها ، اتصفت الحياة اليومية فى شوارع القاهرة بكثرة الباعة الجائلين ، وأصحاب الحرف الصغيرة كالحلاقين الذين يطوفون الشوارع ومراياهم معلقة فى رقابهم يصيحون بأصوات مرتفعه ليسمعهم الراغبون فى قص الشعر والزينة(١) . هذا عدا المارة من النساء اللائى تمتعن بحرية واسعة فى الخروج من بيوتهن ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن ، أو يترددون على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يأنسن ببعضهن ويقضين الساعات الطوال بتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات(٢) . يضاف إلى ذلك كله كثرة الدواب ، فالخيول المطهمة يركبها المماليك وقد ارتدوا ملابسهم المزركشة ، وأخذوا يركضون وسط الدروب والأسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين إذا سقط بعض المارة تحت حوافر خيولهم(٣) والجمال العديدة تحمل القرب ويطوف بها السقاؤون على المنازل والأسواق لامدادها بما تحتاج إليه من الماء . وقد قدر البلوى المغربى هذه الجمال فى القاهرة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) بمائتى ألف جمل(٤) . أما السقاءون فقد بلغ عددهم خمسة آلاف سجلوا اسماءهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل السماح لهم بالمتاجرة فى ماء النيل(٥) . أما الحمير فبلغت عددا كبيرا لأنها قامت فى قاهرة عصر المماليك بدور سيارات الاجرة ، فمن أصحابها برشمها وتطهيمها ، وقدر ابن بطوطه

---

(١) Tafur : Travels, p. 101.

(٢) سيرة الظاهر بيبرس ج ١ ص ٦٦ ، ابن الحاج : المدخل ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٣) Schefer : Le Voyage d' Outremer, p. XXX III

(٤) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ .

(٥) Dopp.: Le Caire Vu, Tome 23, p. 144.

عدد المكاريين فى القاهرة بثلاثين ألف مكارى[1] .

وإذا كان أهل القاهرة فى عصر سلاطين المماليك قد تعرضوا أحيانا لبعض الضيق والشدائد نتيجة لتسلط طائفة المماليك على عامة الأهالى من المصريين[2] ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء[3] ، أو نتيجة لفتنة بين طوائف المماليك وعصبياتهم[4] فإن هذا كله لم يفقد أهل القاهرة روح المرح التى عرفوا بها فى كل زمان ومكان . وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس عند أهل القاهرة فى عصر المماليك ، منها خروج الناس إلى الحدائق والمتنزهات والبرك مثل الازبكية وبركة الحبش وبركة الرطلى وغيرها[5] . وكان نهر النيل دائما ملهى أهل القاهرة ، فزرعوا الحدائق على شواطئه واستأجروا القوارب والسفن فيه ، وخاصة فى فصل الصيف[6] .

وبالاضافه إلى ذلك فقد عرف أهل القاهرة خيال الظل واعتبروه تسلية شعبية[7] هذا كله فضلا عن الألعاب التى تلهى بها الناس والتى اتخذ بعضها طابع المقامرة ، مثل تطيير الحمام والمناطحة وبالكباش والمناقرة بالديوك فيراهن الشخص على هذا أو ذاك من الكباش أو الديوك ، فإذا فاز كسب الرهان[8] كذلك عرفت

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ص ١٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ٩٢ ، ج ٥ ص ٤٠١
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨
(٤) سيرة الظاهر بيبرس ج ٤٩ ص ٢٠ ، السلوك ج ٣ ص ١٦٤ .
(٥) المقريزى : المواعظ ج٣ ص ٢٤٧ وما بعدها .
(٦) ابن الحاج : المدخل ، ج ١ ص ٢٤٦ ، المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٣٣ .
(٧) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٤٧ .
(٨) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤١ .

القاهرة فى ذلك العصر ألعاب البهلوانات والحواة والدبابة الذين يعبلون بالدبية والقرادة الذين يلعبون بالقرود[1] . وهكذا اكتسبت القاهرة فى ذلك العصر شهرة واسعة فى اللهو والمرح ، حتى أن الناصر ابن صاحب اليمن عندما أراد العودة إلى بلاده سنة ٧٥٥ هـ بعد أن قضى بمصر بضعة أشهر « أخذ معه كثيرا من الصناع والمساخر وأرباب الملاهى[2] » .

على أن حب أهل القاهرة للمرح واللهو لم يقلل أبدا من المسحة الدينية الواضحة التى اتصفت بها القاهرة ومجتمعها فى عصر سلاطين المماليك . وحسب القاهرة فى ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت فى بغداد على أيدى التتار ، الأمر الذى جعل القاهرة محورا لنشاط دينى فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية الضخمة مثل الجوامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها[3] وترجع أفخر العمائر الإسلامية التى تزدان بها القاهرة اليوم إلى عصر سلاطين المماليك بالذات .

ويميل بعض الكتاب والباحثين إلى القول بأن مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك كان ذا وجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدين وباطنه الاثم والفساد . ذلك أن طبيعة المماليك وحكمهم ونظامهم ، فضلا عن روح العصر نفسه ، كل ذلك ساعد على انتشار كثير من الأمراض الخلقيه مثل الزنا والشذوذ الجنسى وتعاطى الحشيش والخمر والرشوة وغيرها . ومهما يقال من أن موجه الانحلال الخلقى سادت بقية البلاد الإسلامية فى تلك الحقبة من التاريخ ، فإننا

(١) سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ص ٤١ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٦٤٢ ،
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧ .
(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر السلاطين المماليك ص ١٥٣ وما بعدها .

نرى أن المماليك أنفسهم مسئولون إلى حد بعيد عن تفشى الأمراض الخلقية في القاهرة طوال مدة حكمهم لها . فالسلطان برقوق الذى وصفه المؤرخون بحب الخير والعلم واحترام الفقهاء ، لم يتحرج من ارتكاب الفواحش وتقريب « المماليك الحسان لعمل الفاحشه فيهم[1] ويعبر المقريزى فى مكان آخر من كتابته عن هذه الظاهرة الخطيرة فيقول بأنه « فشى فى أهل الدولة محبة الذكران » ، ومن الواضح أنه يقصد بأهل الدولة طبقة المماليك بالذات[2] أما عن الحشيش فقد انتشر تعاطيه فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، وعبر عن ذلك المقريزى بقوله « فشت هذه الشجرة الخبيثة فى وقتنا هذا فشوا كبيرا ، وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا وتظاهروا بها من غير احتشام[3] » واشتهرت أرض الطبالة بالقاهرة بزراعة الحشيش فى ذلك العصر ، كما اشتهر به باب اللوق[4] . ولم تكن الخمور أقل انتشارا من الحشيش بين مختلف طبقات الناس فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك . وقد ابتكر بعض أمراء المماليك أنواعا مستحدثه من الخمور نسبت إليهم مثل التمر بغاوى نسبة إلى الأمير تمربغا والبشتكى نسبة إلى الأمير بشتك ، كما عرف فى عصر المماليك نبيذ التمر ويعمل من لبن الخيل.وقيل عن السلطان فرج بن برقوق أنه كان أحيانا يشق شوارع القاهرة وهو لايكاد يثبت على فرسه من شدة السكر[6] ! وكان من الطبيعى أن ينتشر شرب الخمر بين عامة المصريين فى القاهرة ، حتى أعتبرت الخمور

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٩

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٩ .

(٥) المقريزى: ج ١ ص ٦٠٧ ، ج ٣ ص٧٤١ ، ابن حجر : إنباء الغمر ج١ص٣٨١

(٦) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٥٠ ، ابن حجر : إنباء الغمر ٢ ص ٢٧ .

متممة للمغانى فى الحفلات والأفراح[1] . وكذلك انتشر البغاء فى القاهرة على عصر سلاطين المماليك ، حتى وقفت البغاة بالاسواق تحت أعين المارة ، واعترفت بهن الدولة ففرضت عليهن ضرائب مقررة[2] .

لاشك فى أن فشو هذه الأمراض وغيرها فى مجتمع القاهرة على عصر سلاطين المماليك إنما كان نتيجة طبيعية لا كتظاظ مدينة كبيرة مثل القاهرة بالسكان، ووفود نسبة كبيرة من الاعراب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها ، فضلا عن الثروة الكبيرة المفاجئة التى هبطت على ذلك المجتمع والتى أعتبرها ابن خلدون مسئولة عن تلك الانحرافات[3] .

ولكن هذه الانحرافات لم تغير أبدا من الطابع العام للقاهرة ، وهو الطابع الذى عبر عنه السيوطى فى عصر المماليك بأنها « صارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء[4] .

دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
استاذ كرسى تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٣ ص٤٢٦ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ .
(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٦ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

السلطنة الفنجية الإسلامية

فى سودان وادى النيل

بقلم الشاطر بصيلى عبدالجليل

لقد جاءت هذه السلطنة إلى حوض النيل الأزرق بالسودان ، حيث اتخذت لها عاصمة من بلدة سنار التى تقع على مسافة مائة وسبعين ميلا جنوب الخرطوم . واستمرت فى إدارة شئونها حتى العام الأول من العشرينات من القرن التاسع عشر . وقد كانت هذه البلدة مقراً لنائب السلطان الفنجى ويرجع اختيارها إلى موقعها على ملتقى طرق ملاحية ومحطة للقوافل التى تسير إلى الحبشة ، وساحل البحر الأحمر كما تمتد أسفارها إلى داخل السودان .

ومن الواضح أن هذه السلطنة كانت تبسط سيطرتها على منطقتى النيل الأزرق والبطانة من عاصمتها جنوب غرب الأرتيريا حيث كانت تمارس سلطانها وكان السلطان يقوم برحلات شهرية إلى مختلف نواحى مملكته كما أشار إلى ذلك الرحالة داود روبينى(1) . ويبدو أن سبب انتقال هذه السلطة من مركزها الذى احتلته فى الأرتيريا منذ زمن طويل يرجع إلى حالة الحرب بين المسلمين والأحباش والتى نشبت

---

(1) Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London 1931. See also Hillelson, S., David Reubini, An early Visitor to Sennar, Sudan Notes & Records Vol.XVI, p. 56—66.

لأسباب اقتصادية بحتة ، وقد انتقلت المعارك حتى اقتربت من الإقليم الذى تسيطر عليه السلطنة من الأرتيريا ، ولم يكن هناك بد من الإخلاء والهجرة نحو الغرب .

ومما يؤسف له أنه لم تصلنا وثائق تاريخية أو غيرها عن فترات حكم السلطنة تغطى قيامها وتطورها ، ربما تكون هناك أشجار الأنساب ، وهذه عمليات روتينية يقوم بها الفقهاء . وقد وصلت إلينا مخطوطة طبقات ود ضيف الله ، التى كتبت فى أوائل القرن التاسع عشر ، وجاءت بعدها مخطوطة كاتب الشونة أحمد بن الحاج أبو على ، الذى كان فى خدمة الحكومة الجديدة فى الخرطوم وجاءت بعد هذه المخطوطة مخطوطتان لا يعرف كاتبهما . وقد وجدت أكثر من نسخة من هذه المخطوطات تختلف الواحدة عن الأخرى بالإضافة والتعديل والتبديل وهذه المخطوطات قد تم وضعها فى زمن غير بعيد حيث جمعت فيها الروايات المتداولة . ويجد الباحث أن المعلومات التى جاءت فى هذه الوثائق تتناقص كلما بعدت فترة الزمن ونجد أن ذكر السلاطين الأوائل لا يزيد عن الإسم وتاريخ اعتلاء العرش والنزول عنه .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود فإن مشكلات تاريخية وغيرها ، قد بقيت تطرح نفسها ، أمام الباحثين ، وتشمل هذه المشكلات أصول البيت السلطانى ، وتطور هذه السلطنة فى مراحل انتقالها ، كذلك عن تنظيمات الحكم والعلاقات بين السلطنة والمشيخات المتحدة معها كونفدراليا عن طريق زعامة العبد اللاب أيضاً ما زالت العلاقات بين السلطنة والحاكم العثمانى على ساحل البحر الأحمر عدا ما أشار إليه الرحالة أوليا شلبى وهى كلمة مقتضبة لحد كبير لكنها تشير إلى وجود تلك العلاقات .

ويبدو أن كل هذه المشكلات ناجمة عن حقيقة هامة وهى التى تتصل بإغفال الأخذ بدراسة وصفية للمجتمع وذلك عند دراسة تاريخ السودان ، بوضعه فى دار الإسلام ولهذا يحتم إجراء البحث بالكشف عن العلاقة بين أقاليم دار الإسلام فى

هذا الجانب من أفريقيا . وقد كانت أقاليم السودان تشغل مركزاً استراتيجياً له أهميته البالغة فى التجارة والقوافل والهجرات التى تمتد طرقها إلى مناطق بعيدة من داخل القارة ، ومن المعروف أن دار الإسلام تمتد من ساحل شرق أفريقيا وتمتد إلى الداخل حتى هضبة البحيرات وقد تمتد إلى الغرب وإلى الشمال وتحتل جانباً من الأراضى التى تتكون منها الحبشة الآن ويقدرها البعض أنها كانت تضم المنطقة الواقعة جنوب أديس أبابا .

وكما أشرنا أعلاه فإننا نجد أن موضوع أصول البيت السلطانى مادة النقاش والجدال فى الثلاثينات من هذا القرن وبصورة خاصة على صفحات مجلة السودان فى رسائل ومدونات التى تصدر بالإنجليزية فى الخرطوم وقد توقفت هذه الناقشات بسبب تقاعد الأطراف المعنية من خدمة إدارة السودان . وقد فشلت هذه المحاولات ووصلت إلى طريق مسدود وقدر لى أن أواصل البحث فى هذه المادة ، وقد توفر لى ذلك بعد أن عملت بمعهد الدراسات السودانية (الأفريقية فيما بعد) بجامعة القاهرة حيث أمضيت ستة عشر عاماً .

وعملت باهتمام فى مراجعة النشاطات السابقة . وكان هدفى أن أجمع المعلومات واضعها للباحثين ، دون أن أسمح لنفسى بإبداء رأى أفرضـه ، لأن ذلك ليس فى قدرتى عمله . لأن عرض الحقائق التى أتحقق من صحتها لحد ما كافية للكشف عن الوضع . فلذلك لا أتحمل رأياً ولا أستطيع أن أعدل ذلك الرأى أو أتخلى عنه .

وقد كان على أن اتخذ منهجاً للبحث ، وبعد مقارنات متباينـة ، وجدت أن المشكلة لا تحل إلا بدراسة تنازلية وأن تمتـد تلك الدراسة إلى مناطق أقاليم دار الإسلام المختلفة ، وقد تتكون إقامة سلطنة فى جنوب غرب الأرتيريا كما شهدها

داود روبينى فى العشرينات من القرن السادس عشر الميلادى نقطة البداية بالمسيرة التنازلية . ووجدنا أن نقوش دار الفنج الموجودة على النحاس، الذى نشره روبنسون(1) لها مغزى هام حيث يغطى الفترة السابقة لقيام السلطنة فى الأرتيريا ، وتعتبر هذه الفترة هى الجسر الذى يربط بين طرفى الشكلة .

وعلى هذا أخذنا بإعداد جدول مرحلى يبدأ من منتصف القرن السابع الميلادى على الوجه التالى .

المرحلة الأولى من عام ٦١٥/٦٥٠ إلى عام ٩٥٠:

تسمية	أ	من ٦١٥/٦٦٠ إلى ٧٠٠ م
»	ب	من ٧٠١ إلى ٧٥١ سقوط الدولة الأموية
»	جـ	من ٧٥١ إلى ٨٠٠
»	د	من ٨٠١ إلى ٨٥٠
»	هـ	من ٨٥١ إلى ٩٠٠
»	و	من ٩٠١ إلى ٩٥٠

المرحلة الثانيـة من ٩٥١ إلى ١٢٥٠ :

تسيمة	أ	من ٩٥١ — ١٠٠٠
»	ب	من ١٠٠١ إلى ١٠٥٠
»	جـ	من ١٠٥١ إلى ١١٠٠
»	د	من ١١٠١ إلى ١١٥٠
»	هـ	من ١١٥١ إلى ١٢٠٠
»	و	من ١٢٠١ إلى ١٢٥٠ م

(1) A. E. R., The Fung Drum or nehas, Sudan Notes & Records Vol. IV P. 211—212.

المرحلة الثالثة من ١٢٥١ إلى ١٥٥٠ :

قسيمة	أ	من ١٢٥١ إلى ١٣٠٠
»	ب	من ١٣٠١ إلى ١٣٥٠
»	ح	من ١٣٥١ إلى ١٤٠٠
»	د	من ١٤٠١ إلى ١٤٥٠
»	ه	من ١٤٥١ إلى ١٥٠٠
»	و	من ١٥٠١ إلى ١٥٥٠

المرحلة الرابعة من ١٥٥١ إلى ١٨٢١ :

قسيمة	أ	من ١٥٥١ إلى ١٦٠٠
»	ب	من ١٦٠١ إلى ١٦٥٠
»	ح	من ١٦٥١ إلى ١٧٠٠
»	د	من ١٧٠١ إلى ١٧٥٠
»	ه	من ١٧٥١ إلى ١٨٠٠
»	و	من ١٨٠١ إلى ١٨٢١

وليس فى هذا التقسيم ما يشير إلى تكوين وحدات تاريخية غير مرتبطة بل بالعكس هى تصور تاريخى مستمر تضم أحداثاً مستمرة .

ووجدنا بعد القيام بالعملية التنازلية لجمع المعلومات المتوفرة ، أن ضرورة البحث تقتضى عرض الوقائع التاريخية وغيرها فى تناسق تاريخى . فإذا افترضنا أن السلطان عمارة وهو السلطان الفنجى الذى انتقل على يديه كرسي الحكم إلى سنار فى نهاية الخمسة والعشرين عاماً الأولى من القرن السادس عشر ووجدنا أن والده السلطان عدلان كان متولياً العرش قبله ، فأخذنا بأن السلطان عمارة قد تولى الحكم فى نهاية القرن الخامس عشر ، وباحتمال ولاية والده السلطان فى النصف الثانى من القرن

الخامس عشر . وافترضنا عشرين عاماً لحكم السلاطين قبل ذلك ، خلال الفترة بين عمارة وجده الكبير ، نستطيع أن نقول أن الجد الكبير قد جاء من لول في أول القرن الرابع عشر أو آخر الثالث عشر .

وهذا التاريخ يتفق اتفاقاً تاماً مع الحقيقة التي تسندها المصادر التاريخية أن السلطنة قد امتدت سيطرتها على اقليمي البطانة والنيل الأزرق وذلك على أثر خروج ملك علوه المسيحي في هجرته إلى الغرب حيث أتخذ من بلدة « كوشة الواغلة » وقد بقي هناك بعض الوقت ولا يعلم مصيره . ويعتقد أنه قد استمر في سفرته نحو الغرب ، ويحتمل وصوله إلى الأقليم المعروف الآن بسيراليون حيث توجد هناك جالية من المهجرين من اقليم الجزيرة السودانية وهم الكسو Kasu ويعرفون الآن بالكسى Kissi [1] ، ويجدر بالباحثين الاهتمام بهذه الهجرات وهي التي قام بها :-

(أولا) هجرة ملك مرو (في القرن الثالث الميلادى) .

(ثانياً) هجرة قبائل الفجون من البطانة إلى الغرب (في القرن الرابع الميلادى) .

(ثالثا) هجرة ملك علوة إلى كردفان والغرب في القرن الثالث عشر .

(رابعاً) هجرة قبائل سودانية في مقدمتها الكسو Kasu من الجزيرة إلى الغرب وتحديد تواريخها .

* * *

---

(١) نشر الدكتور ابر إلبر Eber Elber النمسوى مقالا عن مشاهداته في سيراليون وأشار إلى هذه المجموعة السودانية الـ Kissi ولم يشر بطبيعة الحال إلى الوطن الأول لهذه القبيلة . وقد حققنا ما جاء في مقاله ومقارنته مع ما ذكره بن سليم الأسواني . وقد اتصل به المؤلف فعلم أنه قد كتب عددا من المقالات في دوريات الدول الاسكندينافية والدكتور البر هو طبيب لتشريح كان يعمل في غرب أفريقيا في دراسة للتطور بين القردة . وقد توفى في الأربعينات .

ويجدر بنا قبل اعطاء صورة عن تطور الهجرات الفنجية في الفترة من منتصف القرن السابع حتى القرن الثالث عشر، أن نوضح بعض المصطلحات الخاصة بالفنج . فلفظ الفنج الذى يطلق على هذه السلطنة ، نجد أن صورته الصوتية بكسر الفاء وسكون النون وفتح الجيم (فِنْجَ) وهو اللفظ الذى ينطق به فى الوطن الأول القبيلة التى تسكن وادي فيول فى عمان ، ولفظ «دونقس» وهو لفظ أثيوبي يتكون من دو وهى فى الأصل Djan ومعناها عظيم أو كبير . ولفظ نقس Neqs ومعناها النجاشى. ومعنى هذه الكلمة فى مجموعها النجاشى الكبير .

وفى اتخاذ هذا هذا اللقب ما يشير ضمناً إلى سابق علاقة بين الفنج والحبشة ، ولفظ مك وهو اللفظ المحلى فى السودان الذى يطلق على مستوى معين من الزعامات وهو يعنى السلطان أو الملك ، وأصل هذا اللقب يرجع إلى شرق افريقيا حيث يستخدم كلقب الزعيم وبخاص فى الصورة الصوتية فيقاو Maku أو Mku أما جماعة الهمج وصحتها الهامق والهمج نقل عن المصادر الاجنبية ومعناه التوحش أو البدائى ، ولفظ الهامق مازالت تعرف به جماعات فى بربر ودنقلة .

وهنالك أيضا جماعة الأونساب ، وتأتى هذه المجموعة فى الرتبة الثانية بعد بيت الفنج حيث تحتم التقاليد والعادات فى السلطنة أن تكون زوجة السلطان المنتخب من هذه الجماعة وأن هذه الزوجة لابد لها من مشاركة زوجها فى خلوته التى يجب أن يمر بها قبل ولايته للحكم . وهذه فيما يبدو لنا نقطة هامة جديرة بالبحث لأنها فيما يبدو قد ورثتها السلطنة فى ظروف محلية فى موطنها الجديد أى فى الارتيريا ولاشك كان فى ذلك النصيب الأكبر المصاهرة التى جعلت من الاونساب وهم خؤولة السلطان حتما له ، وتأتى بعد هؤلاء الهامق (الذين يعرفون فى كتب المؤرخين بالهمج) وقد كان وزراء السلطنة من هذا البيت أى بيت الهامق ، ويعرف الانساب أيضا

ببيت عين الشمس ، ولا شك فى أن ضرورة الاعتكاف للسلطان المنتخب وزوجته من عين شمس تقليد مأخوذ عن مصر القديمة .

وننتقل الآن إلى قضية الفنج ومراحل تطور حكمهم منذ القرن السابع الميلادى ؛ أى أن يعود البحث إلى السير فى ترتيبه التاريخى بعد أن تمت عملية البحث التنازلى وتركز اهتمامنا فى هذا البحث بمرحلة دخول الفنج إلى أفريقيا وتطورهم قبل القرن الرابع عشر .[2]

هاجرت جماعة من إقليم عمان مع مجموعات أخرى من العرب إلى ساحل شرقى أفريقيا ، وذلك بعد ظهور الدعوة إلى الإسلام ، طلبا للرزق . وقد ورد ذكر هذه الجماعات فى مخطوطة تعرف بكتاب الزنوج نشرها لشيرولى فى كتابه صوماليا[1]. فقد ورد فى المخطوطة (صفحة ٢٣٦) « وكان أهلها من طيوى وفنج . فمن فنج الى بعمان وواسين عربية أصلية ، واسين اعنى حزن هو معناه ، لأن أهل فنج كانوا يجيسون الناس هنالك . . . . وكانوا يجيثون بالسفائن وللواشى غالبهم وبالبر ، كانوا يجيثون لأجل الحرب من سواكن وبربره ... » والمقصود بالحرب هنا ممارسة القرصنة فى الجانب الأفريقى ـ خليج عدن والبحر الأحمر . وتغير الموقف بعد وصوله قوات الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى تولى الخلافة (من عام ٦٦٤/٧٠٥م) ، الى ساحل الزنج حيث اتخذت قاعدة لها فى جزيرة لامو .

(1) Cerulli, Enrics, Somalia. Vol. I., Roma 1957, Page 233/251 and Itabai Transtalion p. 253/325.

(2) Shaibu Faraji Bén Hamed al Bakariy al Lamuy: Khabar al Lamu, a Chronichle of Lamu, transtiterated and Transtated from the Surahili script and annoted of William Hichens, in Banu Studies Journal vol. I deel XII Maeh 1938 p. 8 ff.

وقد كان اهتمام الامويين بعد نزولهم إلى ارخبيل اللامو ، موجهـا إلى النشاط التجارى ، فأنشأوا عددا كبيرا من الموانى التجارية على الساحل الافريقى الشرقى ، وشجعوا التجارة بين الشاطئ وداخل القارة[1] ويبدو أنه قد حدث فى فترة سيطرة الامويين ، على ساحل شرق إفريقيا من مركز رياستهم فى اللامو، قد حدث مصاهرة بين جماعة فنج والامويين فى اللامو، وقد يؤيد ذلك ما جاء فى مخطوطة كاتب الشونة (نسخة القاهرة) حيث يقول « ما جاء فى ذكر نسب الفنج قيل أنهم من بنى أمية لما انتزع منهم الملك وهربتهم (كذا) بنو العباس جاء منهم رجلان إلى هـــذا المحل وأستولدوا النساء وأن الفنج من نسلهم وقيل غير ذلك » . (٢) أما القول بأن الأمويين قد دخلوا إلى السودان بعد سقوط دولتهم عن طـريق الشمال ، وجاء فى فى هذه الرواية أن ابنى مروان بن محمد ، آخر الامويين وهما عبد الله وعبيد الله هربا فى نحو الفين من اتباعهما لبلاد النوبة سنة ٧٥٠م ، ولم يسمح لهما ملك النوبة بالبقاء فى بلاده بعد أن دار بينهما وبين النوبة نقـاش حاد . وتقول الرواية انهما عادا إلى الحجاز عن طريق باضع ... غـــير أن هذه الرواية من نسج الخيـال لأنه لايوجد ما يدعمها .

وقد جاء الوقت الذى يتحتم علينا فيه العمل على تنقية التاريخ القومى من هذه الاساطير . وعلى أى فقـــد بقى الفنج فى اللامو مع الامويين حتى نهاية دولتهم فى عام ٧٥٠ م . ولم تتوفر لدينا أية معلومات مسيرة الاحداث بين نهاية دولة الامويين حتى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر . وقل ما هنـالك الذى نستطيع أن نفترض بصحته أو الاخذ به وهو نقوش نقارة الدار الفنجية التى نقش عليها .

---

(1) Stigand, C.H., the Land of Zing, London 1913 p. 113 ff, See also Prins, A.H.J. the Coastal Tribes of the North Eastern Banta London 1952.

(٢) مخطوطة كاتب الشونة — لأحمد بن الحاج أبو على تحقيق الشاطر بصيلى عبـد الجليل القاهرة ١٩٦١ ص ٤ .

نقارة الدار نقارة السلطان

عمارة بن السلطان عدلان

جدهم الكبير الجاه (١) من لول

نصره الله السلطان بادي من السلطان نول (٢)

وقد حدثت تغييرات هامة بعد نهاية الدولة الأموية وقيام العباسيين فقد اشتدت التجارة فى الدواخل ، واتسعت رقعـــة النشاط الاقتصادى فى مختلف بقاع القارة الأفريقية حيث دخـل المغامرون من العرب إلى داخـل القارة وعملوا فى التجـارة والمدن واسسوا المدن فى النقاط الاستراتيجية . وجاءت أيضا جماعات من النبهائيين والمزروعيين وأسسوا بيوتا تجارية أو بعض أدق نقابات . وأسسوا المدن والموانى وأدخلوا تعديلات كبيرة على المجتمع . وعملوا على نشر الاسلام ، الأمر الذى أوكل إلى الفقهـاء بطرق ميسرة وأنشأوا دور التعليم والزوارع لتعليم السكان المحليين الاخذ بهما وأدخال الزراعات الجديدة .

ويهمنا التعرف على مسيرة الفنج من موطنهم فى اللامو بعد سقط الدولة الأموية وقد ارتبطوا بها ارتباطا وثيقا . فهناك احتمال أو افتراض خروجهم من اللامو إلى الشمال عن طريق البحر . وعلى هذا فقد اخذنا بتقسيم الزمن فترات قد تبلغ الثلاثة قرون من الزمان . وتستطيع أن نتعقب هـذه الرحلة بالبحث عن مختلف المسالك . فيحتمل أنهم قد تنقلوا عبر البلاد الشمالية أى الصومال واقاليم سلطنات الطراز الإسلامى . ويحتمل أيضا أنهم قد انتقلوا عن طريق البحر الأحمر إلى أحد ميناءين فى الحبشه والارتيريا

---

(١) الجاه = الذى جاء .

(2) A.E.R. the Fung Drum or Nehas, Sudan Notes & Records vol. IV p. 211—212.

أولها ميناء عـدى والثانيه ميناء مدر ويبنى هـذا الافتراض على وجـود مقابر صندوقية (١) كثيرة العـدد وهى المقابر التى اعتاد أن يستخدمها الفنج لدفن موتاهم من السلاطين ومن فى درجتهم . وتمتـد هـذه المقابر الصندوقية حتى خور بركة فى الارتيريا .

وتواجه الباحث أيضاً مشـكلات تطرح نفسهـا لتحديد العلاقة بين السلطنات المحلية التى كانت قائمة وبين الفنج أو الفنج قبل تـكوين سلطانهم فقد كانت هناك سلطنة العجون التى حكمت لفترة طويله وامتدت سيطرتها حتى عيناب فى الشمال ، ونعلم أنها كانت محكومة بسلاطين من النساء منها الملكة صديقه ، وتعلم أيضا أخت الملك مكنز السماة قميوه دركت الوصاية على ابنه .

ولا شك فى أن البحث عن هذه السلطنة الفنجية فى مرحلة تكوينها موضوع له أهميته البالغة فهى أيضاً تكشف عن نشاطات العرب والمسلمين فى هـذه الجهة من أفريقيا .

---

(1) Kammerer, A., La mer Rouge, L'abyssinie et l'arabie aux XVII Seconde Partie XVII p. 315, p. 300—36.

مراجع البحث ومصادره

ابن بطوطه : رحلة

المسعودى : مروج الذهب

كتاب الزنوج بكتاب صوماليا لمؤلفة تشرولى طبع روما الجزء الأول

أحمد بن الحاج أبو على : مخطوطه كانت الشونه تحقيق الشاطر بصيلى عن اكليل

القاهره سنة ١٥٦١

Arkell, A.J., Cambay and Bead Trade : Antiquity X, 1936.

Axelson, E., South East Africa, 1940.

Badger, E., Historv of the Immams and Seyyids of Oman, 1871.

Freeman-Grenville, G.S.P., The Medieval History of the Coast of Tanganyika, 1962.

Kamerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie, Caire.

Prinns, A.H.J., The Coastal Tribes of the North Eastern Bantu, 1952.

Sergeant, R.B., The Portuguese off the South Arabian Coast, 1963.

Shaibu Faraji bin Hamed Al Bakariy al Lamy, Khabar al Lamu, translation by Hichens, Bantu Studies Journal, XII, No. I, 1938.

Stigand, C.H., The Land of Zing, 1933.

Strandes, J. The Portuguese Period in East Africa.

جرترود بل

أداة الاستعمار البريطانى فى العراق

دكتور محمود حسن صالح منسى

تكاد الأضواء تسلط على (ت . ا . لورنس) T.E. Lawrence وحده دون غيره ممن قاموا بتنفيذ مخططات بريطانيا فى الشرق العربى خلال الحرب العالمية الأولى والسنوات التالية لها ، إذ حظى دون غيره بكل الاهتمام سواء من جانب مادحيه أو قادحيه ، فقد كتب الكثير عن نفسه وعن نشاطه ، كما ظهرت مؤلفات عديدة عنه ارتفع فى بعضها إلى مرتبة الاسطورة الخارقة .

ومع ذلك فقد حفظت لنا سجلات التاريخ أسماء شخصيات أخرى لا يقل دورها أهمية وخطورة عن دور (لورنس) ، ومن هذه الشخصيات (جرترود بل) التى ظهرت على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالعراق مثلما ظهر (لورنس) على مسرح الأحداث أثناء العمليات الحربية والحوادث السياسية المرتبطة بالحجاز والشام .

ولما كان لم يصدر عنها مؤلفات كما حدث (للورنس) فإن مصدرنا الوحيد عن نشاطها تلك الرسائل التى كتبتها لعائلتها وأصدقائها ، وقد نشرت زوجة

والدها - ليدى بل - مجموعة من هذه الرسائل فى عام ١٩٢٧ ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها مجموعة أخرى، إلا أنه يؤخذ على هاتين المجموعتين أنهما حذفتا منها ما وجـــدت الناشرتان حرجا فى نشره . ثم جاءت (اليزابث بيرجين Elizabeth Burgoyne) وهى مدرسة إنجليزية للموسيقى فنشرت مجموعة ثالثة من الرسائل فى جزءين صدر أولهما عام ١٩٥٨ ويضم الرسائل التى كتبتها جرترود بل بين عامى ١٨٨٩ و ١٩١٤ وصـدر ثانيهما فى عام ١٩٦١ يـكمل قصة حياتها لأنه يتضمن رسائلها منذ عام ١٩١٤ حتى وفاتها عام ١٩٢٦ ، وهذا الجزء الأخير هـو عمدتنا فى كتابة هذه الدراسة عن جرترود بل بالإضافة إلى بعض المصادر الأصلية التى تناولت تاريخ العراق وبخاصـة الوثائق البريطانية .

حياتهـا الأولى :

ولن يتسع الحديث هنا عن حيـــاة (جرترود) الأولى سوى أنها ولدت عام ١٨٦٨ فى عائلة ارستقراطية ، ودرست التاريـخ فى جامعة اكسفورد ، ولذلك كانت (جرترود) — شأنها شأن (لورنس) — تهتم بالتاريخ والآثار ، وأين تجد كنوزها إلا فى الشرق ، فولت وجهها شطره باحثة فى آثاره ، فزارت طهران وجاست خلال إيران وتعلمت اللغة الفارسية حتى ترجمت ثلاثين قصيدة من ديوان حافظ الشيرازى. وفى طهران التقت بحبها الأول (هنرى كادون) الذى كان يعمل سكرتيرا أول بالسفارة البريطانية لـكنه مات بعد قليل ، أما حبها الـكبير فـكان لضابط بريطانى (دوتى — ويلى) الذى فقد حياته هو الآخر فى إحـدى معارك شبه جزيرة غاليبولى فى إبريل عام ١٩١٥ ، وهـكذا قدر (لجرترود) أن تقضى بقية حياتها عانسا .

وفى ديسبر عام ١٨٩٩ ـ وفى أثناء رحلة لها حول العالم ـ استقرت بعض الوقت فى القدس وبدأت تدرس اللغة العربية . وفى مارس من العام التالى قامت برحلة عبر صحراء الأردن تتعرف على قبائلها ، وكانت تعيش مع البدو وتسمر معهم وتأكل بيدها من إناء واحد معهم وتزيت بزى عربى وعقدت صداقات مع شيوخ جبل الدروز ، ثم اتجهت إلى دمشق وعبرت بادية الشام إلى تدمر ثم إلى لبنان فى طريقها إلى وطنها .

وعادت جرترود إلى الشرق عام ١٩٠٢ حيث تابعت دراسة اللغة العربية ، كما زارت الشام عام ١٩٠٥ وبعد عودتها إلى بلادها كتبت مؤلفها : سورية ـ الصحراء والأرض الزراعية Syria_The Desert aed the Sown الذى صدر فى عام ١٩٠٨ ولم تلبث أن عادت إلى الشرق عام ١٩٠٩ فزارت حلب ودمشق وكربلاء وآثار بابل، وبغداد والموصل وقرقميش حيث التقت (بلورنس) مع المستشرق دكتور (هوجارث) .

وفى عام ١٩١٣ قامت برحلة من دمشق عبر صحراء النفود إلى حائل وعادت عن طريق بغداد وتدمر، وقد رسمت للأماكن التى مرت بها خرائط تفصيلية بينت عليها الكثير من المعلومات عن القبائل وأماكن الماء ، وقد منحتها الجمعية الجغرافية الملكية ميدالية ذهبية .

من هذا تتضح لنا المؤهلات التى رشحت (جرترود) لكى تدخل فى خدمة السياسة والمخابرات البريطانية ، لتؤدى دوراً سياسياً هاماً على مسرح الأحداث فى الشرق العربى ، حيث قامت بجولات على مدى خمسة عشر عاماً تعلمت فيها اللغة العربية حتى لقد سحرت العرب بمقدرتها على التحدث بها ، وتعرفت على القبائل العربية الضاربة فى البادية وجالست شيوخها ووثقت صلاتها بهم وعرفت كل شىء من مضاربهم .

جرترود والحرب العالمية الأولى :

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس (آب) ١٩١٤ كانت جرترود فى انجلترا ، وقد كتبت فى سبتمبر (أيلول) من العام نفسه تقريراً إلى الكابتن ديدس Deedes فى إدارة العمليات العسكرية الذى رفعه بدوره إلى سيرادوارجراى Ed. Grey وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، وقد شرحت جرترود فى تقريرها الحالة السياسية فى شبه الجزيرة العربية والشام مما كان له أكبر الأثر على المسئولين الذين كانوا يخططون السياسة البريطانية ، لا بوصفه عرضاً للشخصيات والجماعات والاتجاهات السياسية فى الأقاليم العربية من الامبراطورية العثمانية وحسب ولكن لأن التقرير تضمن أيضاً رد الفعل المتوقع فى هذه المنطقة فى حالة دخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا ، وقد أوضحت جرترود فى هذا التقرير حاجة سالم بن مبارك الصباح شيخ الكويت ، وخزعل خان شيخ المحمرة وابن سعود أمير نجد إلى حماية بريطانيا ضد الترك .

وإلى جانب ذلك فقد اعربت جرترود عن اعتقادها بأن السوريين وخاصة فى الجزء الجنوبى من الشام (فلسطين) - واهميته لمصر معروفة - يميلون إلى بريطانيا ، وأن هذا الشعور قد تضاعف بسبب الكراهية التى يكنها السوريون النفوذ الفرنسى .

أما فى بغداد ، فقد كانت جرترود ترى — كما جاء فى تقريرها — أن كفة المصالح البريطانية ترجع كفة المصالح الألمانية ، وذلك لأهمية العراق بالنسبة الهند.

وتضيف جرترود أن والسيد طالب النقيب مصدر للمتاعب ، وهو لم يتلق عونا منا ، ولكن تجارنا كانوا على علاقات طيبة معه ، والكويت يعتمد فى حياته علينا ، أما ابن سعود فانه يتوق للحصول على اعتراف منا ومن الممكن كسبه كحليف

لنا ، واعتقد أنه يمكننا أن نحيل الخليج إلى منطقةساخنة بالنسبة للترك . وليس هناك أحد من الزعماء يحب الحكم التركى ، ويتمتع كل من الزعيمين العربيين عبد القادر باشا فى بغداد والسيد طالب فى البصرة بنفوذ كبير فى إقليمه يفوق نفوذ الباشا التركى كما أن شيخ المحمرة عامل له أهميته وهو حليف لنا ، وإذا حدث أن دخلت تركيا الحرب ، فإنه من الممكن أن ينتهز الوحدويون العرب هذه الفرصة للتخلص من الحكم التركى ، وليس من المرجح أن يبدأوا هم هذه الخطوة ولكن ليس من الصعب توجيههم هذه الوجهة .

أما المشكلة بالنسبة لسوريا فهى أن الفرنسيين قد احتجزوها لانفسهم على الرغم من أن الشعب — كما تقول جرترود — يريد بريطانيا لافرنسا » .

وقد أشار ديدس عند قدم هذه الرسالة لرؤسائه إلى أن ماورد بها « أكدته تماما التقارير التى يبعثها المفتشون البريطانيون فى الأقاليم العربية » . (1)

ولاشك أن تقرير جرترود صادف هوى فى نفس المسئولين البريطانيين وخاصة فى حكومة الهند ، الذين كانوا يبدون الاهتمام بالعراق والخليج قبل نشوب الحرب العالمية بفترة غير قصيرة . ولم يكن اهتمام البريطانيين بالعراق وليد ظروف الحرب العالمية الأولى وحسب وإنما كانت بريطانيا أكثر الدول الأوربية اهتماما بهذا القطر أثناء القرن التاسع عشر خصوصا بعد أن صارت بريطانيا تواجه خطر سياسة المانيا فى الاتجاه نحو الشرق Drang Nach Osten تلك السياسة التى أثارت قلق الحكومة البريطانيه وخوفها من وصول النفوذ الألمانى إلى المحيط الهندى عبر العراق والخليج ، ولذلك أسرعت بريطانيا باغلاق الطريق فى وجه النفوذ الألمانى بابرام اتفاقيتها المعروفة مع شيخ الكويت فى عام ١٨٩٩ ، فقد كانت بريطانيا تعتبر النفوذ الألمانى اشد خطرا من النفوذ الروسى ، واشتط سخط بريطانيا لأن منافسا كبيرا

يتوغل فى مجال بريطانيا التجارى ويقيم نفسه مواجهة مستمرة «يحسدنا الجميع على امتلاكها (٢).

وإذا كان للشروع الألمانى لمد خط سكة حديد بغداد سبباً من أسباب الحرب العالمية الأولى فإن ذلك يرجع إلى أهمية السياسة أكثر مما يرجع الى الأهمية الاقتصادية والى جانب ذلك فقد كان العراق أهمية أخرى ألا وهى مجاورته لحقول النفط فى أيران وخاصة عبدان حيث كانت توجد أعظم مصافى النفط البريطانية ، حتى أنه قبل اعلان الحرب رسمياً على الدولة العثمانية تواترت الاخبار عن احتمال قيام الترك بالهجوم على عبدان ، وكان من الممكن وصول القوات التركية اليها من البصرة

والى جانب ذلك فقد كان من رأى لورد كرو Crowe وزير الهند أن أهم ما كانت تستهدفه الحملة البريطانية على العراق هو التأثير المعنوى على الشيوخ العرب(٣) فقد كانت بريطانيا ترغب فى تقوية مركز الزعماء العرب الموالين لها فى منطقة الخليج مثل شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود وشد أزرهم بتقديم دليل مادى على قوة بريطانيا يهدىء من روع هؤلاء الحكام الصغار فى مواجهة الدعوة للجهاد والتى كان ينتظر أن يعلنها الخليفة العثمانى ضد دول الوفاق . وقد تأكد هذا فيما جاء فى خطاب اسكويت Asquith رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ أمام مجلس العموم البريطانى فى الثانى من نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ من أن الهدف من ارسال قوة الى العراق «هو ضمان حياد العرب وحماية مصالحنا فى الخليج وحماية حقول النفط وعلى العموم المحافظة على هيبة بريطانيا فى الشرق»(٤).

وفى ١٦ أكتوبر (تشرين أول) غادرت قوة الهند بومباى بقيادة البريجادير جنرال دالماين Dalmain وكانت التعليمات الصادرة اليه تنص على حماية أنابيب

النفط الى الأهواز ومصافيه فى عبدان وتأكيد معونة بريطانيا للزعماء العرب المحليين ضد الدولة العثمانية وفى ٢٣ أكتوبر تم احتلال جزيرة البحرين واتخذت قاعدة عسكرية للحملة، وفى اليوم التالى لدخول الدولة العثمانية الحرب ضد بريطانيا نزلت القوة الى البر عند الفاو حيث يصب شط العرب فى الخليج (٥) .

وتوالت الامدادت من الهند، وبعد سلسلة من الاشتباكات مع القوات التركية استطاعت القوات البريطانية القادمة من الهند بقيادة الجنرال باريت Barrett احتلال البصرة فى ٢٢/٢٣ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٤ حيث أذاع صير پرسى كوكس Percy Cox كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة بياناً باللغة العربية أعلن فيه أن الحكومة البريطانية على الرغم من حالة الحرب القائمة بينها وبين الدولة العثمانية — لا تحمل ضغينة للاهلين ، وأنهم سوف يتمتعون بالحرية والعدالة فى ظل العلم البريطانى والإدارة البريطانية طالما وقفوا موقف الحياد بين القوات البريطانية والتركية وامتنعوا عن حمل السلاح ضد بريطانيا. (٦)

وقد بدأت جرترود أعمالها فى الحرب فى الجبهة الغربية وذلك بتسجيل الجرحى والمفقودين ، وحتى فى أثناء عملها هذا لم تكف عن التفكير فى الشرق العربى عامة والعراق خاصة ، ففى ديسمبر (كانون أول) ١٩١٤ كتبت تعبر عن امنيتها فى أن تتواجد فى العراق ، وشوقها لسماع نبأ احتلال القوات البريطانية لبغداد واخذت تكتب إلى معارفها تطلب موافاتها باخبار حملة العراق .

ومع بداية نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٥ فتح أمام جرترود باب الشرق ، فانه نظرا لمعرفتها بقبائل شمال شبه الجزيرة العربية صار من الممكن الاستفاده من جرترود ومعلوماتها ، وتأكد دكتور دافيد هوجارث أن معلوماتها ستكون

مفيدة للغاية ، وعندما ابرقت القاهرة إلى لندن تستدعى جرترود، لم تضيع جرترود وقتا بل اسرعت إلى القـــاهرة ، ثم كتبت إلى زوجه ابيها لـكى توافيها بـكتبها وخرائطها التى كانت تعتقد أنها ستكون فى حاجة إليها فى عملها الجديد .

وفى القــاهرة التقت جرترود بـكل من هوجارث ولورنس ، وكان عملهــا فى البداية يقتصر على تزويد سجلات المخابرات البريطانية بالمعلومات عن القبائل العربية وشيوخها واعدادها ، وهو عمل كانت مؤهلة له ولا ينافسها فيه أحد .

رأى جرترود فى أمانى الشريف حسين وأطماع فرنسا :

ومنذ نشوب الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية ، صار المسئولون البريطانيون يفـكرون فى اسهل الوسائل لانزال الهزيمة بالدولة العثمانيـة ، وأدركت بريطانيـا أهمية الدور الذى يمكن أن يلعبه عرب المشرق العربى الاسيوى فى الصراع الدائر ، خاصة وقد سبق أن أبدى هؤلاء بعض مظاهر السخط على الحـكم التركى ، فـكان من الطبيعى أن تحاول بريطانيا النيل من الامبراطورية العثمانية مستخدمة رعاياها العرب ، وقد قدر البريطانيون الاهمية العسكرية لقيام ثورة ضد الاتراك فى أقطار المشرق العربى ، فابرمت بريطانيا الاتفاق مع الادريسى فى عسير فى أبريل (نيسان) سنة ١٩١٥ ، ومع ابن سعود فى نجد فى ديسمبر (كانون أول) من العام نفسه ، إلا ان أهم اتفاقات بريطانيا مع زعماء العرب كان اتفاقها مع الشريف حسين بن على أمير مكة الذى وقع عليه اختيارها لقيادة ثورة العرب ضد الدولة العثمانية لاسباب عسكرية وسياسية وخصوصا مواجهة الدعوة إلى الجهاد بخلـق زعامة دينـية تنافس الخليفة العثمانى وتضعف مركزه بين المسلمين .

وعلى الرغم من أن غاية ما كان يصبو إليه الشريف حسين هو ضمان استقلاله

الشام فى الحجاز فانه لم يلبث أن اتسعت آماله لتكوين دولة عربية تضم بلاد الشرق العربى الآسيوى[٧] خصوصا وأن القوميين العرب المتمركزين فى الشام فى ذلك الوقت كانوا هم أيضاً يبحثون عن زعامة دينية تقود ثورتهم ضد الترك حتى لاتوصم حركتهم بالمروق ، والخروج على طاعة خليفة المسلمين ، وذلك بعد أن ضجوا من عسف أحمد جمال باشا فى الشام ونصب المشانق التى راح ضحيتها الرعيل الأول من الشهداء العرب الذين اعدموا فى ساحة البرج ببيروت فى الحادى والعشرين من أغسطس (آب) ١٩١٥ ، إلا أن الزعماء الوطنيين العرب — وقد اجمعوا على الثورة ضد الترك بالاعتماد على مساعدة بريطانيا ووافقوا على تولى الشريف حسين زعامة هذه الثورة — قد وضعوا مخططا يتضمن المطالب التى أرادوا أن تكون أساس مفاوضات الشريف حسين مع بريطانيا ، وقد عرف هذا المخطط باسم بروتوكول دمشق ، وأهم ماجاء فيه تلك الحدود التى طالبوا بأن تعترف بريطانيا باستقلال الأقطار العربية الواقعة بداخلها والتى كانت تشمل الشام بحدودها الطبيعية والعراق بكل أقاليمه ، وشبه الجزيرة العربية .

وبدأت المباحثات بين الشريف حسين والمسئولين البريطانيين فى القاهرة وهى المعروفة بمراسلات الحسين مكماهون منذ الرابع عشر يوليو (تموز) ١٩١٥ ، إلا أن الحكومة البريطانية حاولت ألا ترتبط — فى الاعتراف باستقلال العرب — بالحدود التى نص عليها بروتوكول دمشق ، وطالب بها الشريف فى رسالته الأولى إلى مكماهون ولكن الشريف الح فى رسالته بتاريخ ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩١٥ على ضرورة تسليم بريطانيا بالحدود التى يطالب بها العرب .

وفى مواجهة مطالب الشريف ، وادعاءات فرنسا حليفة بريطانيا أبدت جرترود رأيها فى أطماع كل من الشريف وفرنسا فى التقرير الذى بعثت به فى ٢٠ ديسمبر (كانون أول) ١٩١٥ إلى لورد روبرت سسل فقد ذكرت :

(أنه قد أديرت المفاوضات مع الشريف بمهارة ، وطالما أنه فى استطاعتنا اجتذابه والإبقاء على صلته بنا فلا خوف من قيام حركة دينية كبرى ، فانه هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إثارة حرب دينية مقدسة ، أما الترك الذين يدعون إلى هذه الحرب بإيعاز من الألمان فإنهم لايقدرون على الإقناع بها هذا العام قدرتهم عليه فى العام الماضى .

والمشكلة هى هل نستطيع المحافظة على ارتباط الشريف بنا ؟ من المعلومات التى لدينا يبدو أنه قد صار يحتل مركزا مرموقا فى شبه الجزيرة ، ولكن قوته روحية وليست عسكرية ، وإذا تقدم الترك من الشام جنوبا بقوة كبيرة فإنهم يستطيعون الضغط عليه وهو لايقوى على مقاومة هذا الضغط ولاشك فى أنه من المحتمل أن ينهاوى أمام حليفة الدولة العثمانية . وفى الوقت نفسه فإننا نلقى ضغطا وصعوبات من جانب الفرنسيين وحكومة الهند ، والشريف على حق ـ كما اعتقد ـ فى رفض بحث المسألة العربية منفصله عن بقية الاقطار ، لأن الصحراء لاتكفى نفسها ، ولذلك فإن من يسيطر على الاسواق فى الاقاليم الزراعية يجب أن يسيطر على البدو وسكان الواحات ، وقد ظهر الشريف معقولا ، ومن الممكن أن نصل إلى اتفاق ، ولكن ليس على أساس التنازل عن كل سوريا ، وأن المطالب التى قدمها بيكو متأخرا تجعل سوريا الفرنسية تمتد من البحر المتوسط إلى دجلة ، ومن الحكمة أن نمد للفرنسيين حبل الأمل ، وعندما تحين لهم فرصة بحث إدارة سوريا بهذا الامتداد فمن المحتمل أن يتبينوا أنها عمل اكبر من استعدادهم القيام بأعبائه ، ولكن غزل الحبال الطويلة يحتاج إلى وقت طويل ولايتوفر هذا الوقت حالياً .

إن حركة عربية قوية إذا أقيمت على قدميها فقد تطرد الفرنسيين من شمال

أفريقيا بمثل السهولة التى تطردنا بها من مصر . واعتقد أنه يجب على الفرنسيين أن يقنعوا بالاسكندرونه وكليكية بالاضافة إلى لبنان وبيروت .

ويتمثل ضعف هـــذه الفـكرة فى أن العرب لايستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم ولايوجد أحد مقتنع بهذا اكثر منى ، وعندما يلجأ إلينا العرب طلبا للعون ــ وهذا ما سيفعلونه ــ فإن الفرنسيين لن ينظروا إلى ذلك بارتياح(٨) .

رحلة جرترود إلى الهنـد :

لقد كان المسئولون البريطانيون عن الشرق العربى فريقين : فريق الساســة والعسكريين المتمركزين فى القاهرة ويتبعون دار المندوب السامى البريطانى وأطلق عليهم اسم المدرسة المصرية أو مدرسة القاهرة ، وفيما بعد أطلق عليهم اسم المكتب العربى Arab Bureau وكان هذا الفريق يضم عدداً من الخبراء بالشئون العربية مثل ت.أ. لورنس، رونالد ستورز Ronald Storrs وجلبرت كلايتون Gilbert Clayton وجورج هوجارث G. Hogarth وجرترود بل أما الفريق الآخر فـكان مركزه الهند ولذلك كان يسمى بالمدرسة الهندية ، وتزعم هـــذا الفريق سيربرسى كوكس Percy Cox وارنولد ولسن Arnold wilson والكابتن شيكسبير Shakespear وعلى الرغم من اتفاق المدرستين على أهمية الأقطار العربية ومواردها بالنسبة لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى إلا أنه كان ثمة خلاف كبير بينهما ، فبينما كانت مدرسة الهند تهتم فى المقام الأول بالعراق وإيران وثروتهما النفطية وكذلك منطقة الخليج العربى، فإن مدرسة القاهرة كانت تهتم بقناة السويس وكل ما من شأنه حمايتها ، وعلى الأخص بلاد الشام، تنفيذاً للسياسة التى رسمها كتشنر منذ كان معتمداً بريطانياً فى مصر(٩) .

وإلى جانب ذلك فقد كانت مدرسة الهنـــد تعتقد أنه فى استطاعة الحلفاء عامة

وبريطانيا خاصة إحراز النصر فى الحرب العالمية دون الاستعانة بالعرب ودون الاتجاه إلى إثارتهم ضد الترك ، الأمر الذى دعت إليه مدرسة القاهرة ، فقد كانت مدرسة الهند تخشى أن يؤدى تحريض بريطانيا العرب على الثورة ضد الخلافة الإسلامية إلى إثارة مسلمى الهند ، كما كانت تخشى أن تصبح القومية العربية مصدر تهديد لبريطانيا ذاتها فتنقلب على المصالح البريطانية فى البلاد العربية ، بحيث يصبح من الصعب إخضاع العرب لنفوذ بريطانيا بعد الحرب . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تأمل أن تنجح بريطانيا ، إذا شجعت العرب على الثورة ضد الترك وساعدتهم فى هذا السبيل — فى الاحتفاظ بصداقة العرب بعد الحرب بحيث لا يكون ثمة مجال للخوف على مصالح بريطانيا فى المنطقة . ولذلك كان من رأى أعضاء مدرسة الهند ألا تلوح بريطانيا للعرب بأية وعود استقلالية وألا تشجعهم فى أمانيهم القومية كما كان من رأيها إقامة حكم بريطانى مباشر فى البلاد العربية فى غرب آسيا . أما مدرسة القاهرة فقد كانت تحبذ اصدار الوعود للعرب وإظهار العطف على أمانيهم القومية ، وكانت ترى منح العرب استقلالا محدوداً تحت سيطرة بريطانية مقنعة، وأن يعهد بتسلم مقدرات هذا الاستقلال المحدود إلى حكام من العرب الموالين لبريطانيا ضماناً لاستمرار النفوذ البريطانى ، ومن هنا كانت مدرسة الهند تعارض إشعال ثورة عربية ، تلك الثورة التى رشحت مدرسة القاهرة الشريف حسين لزعامتها ، بل كانت تقاوم الاعتماد على الهاشميين وتؤيد التحالف مع ابن سعود لضعف مركزه خارج شبه الجزيرة العربية .

ولذلك كانت المفاوضات البريطانية مع ابن سعود تجرى من أجل تحقيق هدف قريب وهو ضمان صداقة أمير نجد ، أو على الأقل وقوفه على الحياد أثناء العمليات الحربية فى العراق ، ولم تكن هذه المفاوضات تهدف إلى أبعد من ذلك طالما أن

مدرسة الهند — التي تولت هذه المفاوضات — لم تهتم كثيرا باقامة دولة عربية تحل محل الامبراطورية العثمانية .

وقد لفت الخلاف بين الهند ومصر حول السياسة البريطانية إزاء العرب نظر جرترود وهي في القاهرة ، ولم تكن مرتاحة لاستمرار هذا الخلاف ، لأن من شأنه كما قالت في رسالة إلى والدها في ٢٤ يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أن يؤدي إلى انعدام التعاون بين إدارتي المخابرات في البلدين « وكلما استمر هذا الوضع ازدادت الحالة سوءا وخطرا ، وهم (في الهند) لايعلمون بأحوال المناطق الغربية من شبه الجزيرة ونحن (في مصر) لانعلم عن المناطق الشرقية منها ، ولذلك فانني سأذهب إلى الهند ، ولا أدري إذا كانت هذه الرحلة سوف تأتي بفائدة ولكنها جديرة بالمحاولة على كل حال ، ولسوف أتعلم الكثير لأنهم (في الهند) سوف يسمحون لي بالبحث والتنقيب في سجلاتهم عن العرب حتى أرى ما يمكن إضافته منها إلى معلوماتنا ونحن في حاجة إلى أن ننشيء الشرق الأدنى مكتبا دائما للمخابرات هنا (في القاهرة) على أن يستمر في العمل بعد انتهاء الحرب ، وهذا المكتب لايستطيع العمل بدون معونة السلطات البريطانية في الهند ، وهذا هو الموضوع الرئيسي الذي سأتناوله بالبحث مع نائب الملك في الهند(١٠) وفي الثامن والعشرين من يناير (كانون ثان) ١٩١٦ أبحرت جرترود على ناقلة الجنود يوريبيديز Euripides فوصلت كراتشي في السابع من فبراير (شباط) ومنها إلى دلهي حيث التقت بلورد هاردنج Hardinge نائب الملك في الهند وبعد انتهاء مباحثاتها معه غادرت الهند في السابع والعشرين من الشهر نفسه .

جرترود في العراق :

وفي طريق عودتها من الهند زارت جرترود العراق ، فنزلت في البصرة ضيفة

على آل كوكس ، وكان سير برسى كوكس كبير الضباط السياسيين فى الخليج، وعلى الرغم من أنه سبق لجرترود مقابلته إلا أن هـذه الزيارة كانت فاتحة أقوى وامتن صداقاتها فى الفترة الأخيرة من حياتها . وفى البصرة عهد إليها بالاشتراك فى تحرير فهرس عن أماكن شبه الجزيرة العربية ، كان يجرى إعداده لحكومة الهند وقـد التقت فى هذه الأثناء بمستر دوبز Dobbs الذى كان وقتئذ ضابطا سياسيا بالعراق وبذلك التقت جرترود بثانى المندوبين الساميين اللذين عملت معهما فى العراق .

وفى أثناء وجـــودها بالعراق أوفد لورنس من القاهرة إلى العراق فى إبريل (نيسان) ١٩١٦ ، وكانت المهمة التى عهد بها إليه هى السعى لفك الحصار التركى للقوات البريطانية فى الكوت ولو برشوة القائد التركى خليل باشا(١١) .

وفى أثناء وجودها بالعراق أيضا بذلت جرترود بعض الجهود لاستمالة ابن الرشيد وكان لا يزال يؤيد الترك ، ولذلك التقت فى أوائل مايو (أيار) ببعض رجال ابن الرشيد الذى كانوا يعرفونها منذ رحلتها فى حائل قبل الحرب واستقت منهم بعض الأخبار ثم بعثت معهم ببعض الرسائل إلى أمير حائل وإلى بعض الشخصيات الأخرى التى تعرفها ، وكانت جرترود تعلق الآمال على كسب أمير حائل إلى جانب بريطانيا أو على الأقل الوقوف على الحياد ، وكان سير برسى كوكس يؤيد مساعى جرترود ولقد فشلت محاولة جرترود ولم يتزحزح ابن الرشيد عن موقفه ، ولذلك فقد اتهمته فى رسالتها إلى ذويها فى ١٥ يوليو (تموز) بالحمق الذى لا يتصوره عقل ، وعبرت عن أملها فى أن يثور عليه أهل شمر ويقيموا أميرا آخر مكانه (١٢) .

ولقد صارت مهمة جرترود فى العراق هى العمل كحلقة اتصـــال بين القاهرة والبصرة ، وانتهزت هذه الفرصة لجمع مزيد من المعلومات عن العراق وقبائله مستعينة بكثير من الشخصيات البريطانية من العاملين فى العراق مثل الكابتن ايدى Eadie

الذى كان يعرف عن القبائل فى العراق أكثر من أى شخص آخر فى العراق.

و« مستر ادموندز Edmonds (١٣) الذى كان وقتئذ ضابطاً سياسياً فى سوق الشيوخ ومنه استقت كثيراً من المعلومات عن البادية والحضر فى العراق. فكانت تركب للخيل مع مرافقيها من الضباط البريطانيين تجوب القرى وتذهب لزيارة أعيانها وتتناول معهم الطعام ، وفى المساء تستدعى اليها الأهالى للحصول منهم على المعلومات التى كانت تجرى وراءها ، وتحاول التقرب منهم بشتى الوسائل بأداء بعض الخدمات لهم،وفى هذه الاجتماعات تدار القهوة والسجائر على الحاضرين كل هذا دون أن يتطرق اليها التعب وهى تعمل فى الجو القائظ ، فقد عبرت ـ فى خطابها فى ١٦ يونيو عن سعادتها فى العراق ، وقد صورت فى هذا الخطاب سوء حالة الحملة البريطانية على العراق ، تلك الحملة التى أعادت إلى ذاكرتها الحملة على القرم فى منتصف القرن التاسع عشر (١٣أ).

وفى هذه الجولات زار جرترود الكثير من الجهات مثل النصيربة وسوق الشيوخ والقرنه ، وعلى أثر عودتها ون هذه الجولات إلى البصرة عينت جرترود مندوبة رسمية للقاهرة ، وبذلك صارت جزء من الحملة الهندية على العراق .

ولم تهدأ جرترود بل تابعت دراستها القبائى ، فامضت عيد رأس السنة (ديسمبر سنة ١٩١٦) فى قلعة صالح مع مسترسان جون فيلبى ، واستمرت خلال الشهور الأولى من العام الجديد (١٩١٧) تستقبل الزعماء العرب .

وقد تمكن البريطانيون من استعادة الكويت فى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٧ وعلى أثر ذلك عهدت الحكومة البريطانية إلى الجزال مود Maude قائد الحملة على العراق بالتقدم إلى بغداد التى سقطت فى يده فى الحادى عشر من مارس(آذار)، وذاع الجبرال مود فى التاسع عشر من الشهر نفسه بيانا باللغتين العربية والانجليزية

أعلن فيه أن القوات البريطانية لم تأت إلى العراق غازية بل محررة ، وإن بريطانيا والدول المتحالفة معها ترغب وتأمل فى أن ينهض الجنس العربى ليحتل مكانه بين شعوب الارض . ودعا العراقيين إلى المساهمة فى إدارة شئونهم المدنية بالتعاون مع ممثلى بريطانيا السياسيين الذين يرافقون القوات البريطانية (١٤).

وبعد أن سقطت بغداد فى ايدى القوات البريطانية انتقلت إليها جرترود — فوصلتها فى ١٥ أبريل (نيسان) ١٩١٧ ، حيث بدأت فى تكوين صداقات جديدة مع كثير من الشخصيات العربية الجديدة إلى جانب أصدقائها القدامى ، وظل للمكتب العربى بالقاهرة يراسل جرترود ويزودها بالمعلومات عن أحوال الحجاز والشام التى تمس المصالح البريطانية عن قرب ، وكانت هى الأخرى تكتب إليهم عن أحوال العراق ، فقد كانت جرترود تعتبر أنها جميعا فصول فى رواية واحدة .

واضيف إلى جرترود عمل آخر هو تحرير صحيفة محلية اسمها (العرب) كان يساعدها فى إصدارها كاتب لبنانى هو ملحم البستانى ، كما قامت بجولات فى كثير من مدن العراق وبخاصة فى مراكز الشيعة فى كربلاء والنجف والحلة والكوفه حيث التقت بمجتهدى الشيعة فى أواخر عام ١٩١٧ وأوائل عام ١٩١٨ ، حتى لقد أصبح الناس يعجبون لهذا الحدث الذى لم يسبق له مثيل : أمرأة أجنبية تجاس إلى مجتهدى الشيعة تحتسى معهم القهوة وتنصت إلى أحاديثهم فى اهتمام بالغ ، ولقد أطلق عليها الناس لقب الخاتون أى السيدة الشريفة .

ولقد اهتمت جرترود على وجه الخصوص بتوثيق صلاتها بكبار ملاك الأراضى وزعماء العشائر الذين كانوا الفئة الوحيدة التى لا تعانى من قسوة ظروف الحرب ، وكان لكل منهم نفوذ وسلطة فى منطقته ، وقد اهتمت السلطات البريطانية بكسب تأييدهم باعتبارهم قوة لها أهميتها فى تحقيق الأمن وخدمة المصالح البريطانية والحيلولة

دون تقديم المساعدات للترك ، فعمدت السلطات البريطانية إلى الاتفاق مع هؤلاء الشيوخ والزعماء وجعلهم مسئولين أمامها عن شئون عشائرهم ومناطقهم فيما يختص بالأمن وحماية المواصلات والأموال البريطانية وجمع الضرائب، فأغدقت عليهم الأموال وأعفتهم من الضرائب ، ومكنتهم من الانتفاع بالأراضي الأميرية ومنحتهم الاقطاعات الكبيرة مما كان له أثره في تكوين النظام الاقطاعي في العراق .

جرترود والتصريح الإنجليزي الفرنسي المشترك :

وعندما أحست بريطانيا وفرنسا بالسخط يجتاح الشرق العربي بعد تحريره من الترك لعدم وفاء الدولتين للعرب بالوعود التي بذلت لهم أثناء الحرب ، أسرعت الدولتان بإصدار التصريح الإنجليزي الفرنسي (٧ نوفمبر ١٩١٨) الذي وعد بتشجيع إقامة حكومات وإدارات وطنية في كل من الشام والعراق ، ولقد أعلن ارنولد ولسن كبير الحكام السياسيين بالنيابة معارضته للتصريح وللسياسة التي أملته التصريح ، ففي ١٦ نوفمبر (تشرين ثان ١٩١٨) بعث إلى وزير الهند معلنا أن التصريح « سوف يورطنا في مشاكل جسيمة كتلك التي أثارتها وعود مكماهون لشريف مكه » مؤكدا انفصال العراق عن بقية الأقطار العربية ، مطالبا بمعاملته معاملة مختلفة وفصل قضيته عن القضايا العربية في البلاد الأخرى(١٥) . إلا أن المسئولين البريطانيين في لندن أبلغوا ولسن أن الهدف من التصريح كان توضيح الموقف في سوريا على الرغم من إشارة التصريح إلى العراق .

ولقد كان ولسن وغيره من الاستعماريين البريطانيين يعتبرون احتلال العراق أوج النشاط البريطاني لأنه يؤمن الطريق إلى الهند ، كما يضمن حماية الهند من روسيا البلشفية التي تعاظم خطرها عن ذي قبل بعد أن باتت اطماعها تغذيها مبادىء

اجتماعية. ولذلك عارض ولسن الاقتراح الذى قدمه لورنس إلى حكومته بأن يوضع العراق الأدنى تحت حكم الأمير عبد الله والأعلى تحت حكم الأمير زيد وسورية تحت حكم الأمير فيصل على أن يظل الحسين ملكا على الحجاز ولا تكون له أية سلطة زمنية على الأقاليم الثلاثة خارج الحجاز . وعندما أبلغت الحكومة البريطانية ولسن باقتراح لورنس اعتبرها — فى ٢٠ نوفمبر (تشرين ثان) ١٩١٨ — غير عملية وأن وضع أبناء الشريف فى هذه المراكز ليس فى مصلحة بريطانيا أو سكان البلاد، وأن تقسيم العراق لا تبرره الأحوال السياسية والاقتصادية لأن الولايات العراقية الثلاث يجب أن تكون وحدة واحدة تحت السيطرة البريطانية الفعالة ، «ولذلك فإنى استحث حكومة صاحب الجلالة من أجل استثناء هذه البلاد (العراق) تماما وإلى الابد من أى تسوية مع الأشراف » .

إلا أن مس بل كانت تعتقد أن ارنولد ولسن قد جانبه الصواب فى اعتقاده بأن أهل البلاد لن يقبلوا أن يتولى عليهم حاكم عربى من الأشراف أو من خارج العراق عموما ، وكانت ترى أن أهل العراق لن يقبلوا أميرا محليا لأنهم لا يثقون فى أحد منهم ، ولكنهم سوف يؤيدون أى رئيس عربى خصوصا إذا كان يستند إلى تأييد مندوب سام بريطانى قوى(١٦) .

ورغم غموض التصريح وبعده عن تحقيق أمانى العرب إلا أن جرترود لم تكن راضية عنه من حيث أثره على الأهالى فى العراق وقد بعثت برأيها إلى المسئولين البريطانيين فى مذكرة بتاريخ فبراير ١٩١٩ تحت عنوان « تقرير للصير فى العراق» وقد ذكرت (جرترود) أن نشر التصريح الإنجليزى الفرنسى — مهما كان مغزاه السياسى فى أى مكان آخر — فإنه كان ضرورة يؤسف لها فى العراق ، « فإنه على

الرغم من أنه لم يفعل أكثر من تأكيد النوايا التي سبق إعلانها عند احتلال بغداد (تصريح مود) إلا أنه كان يختلف عنها في ناحية هامة، إذ أنه بينما صدر تصريح الجنرال (مود) ونتيجة الحرب لاتزال موضع شك مما جعله ضرورة عسكرية، فإن التصريح الإنجليزي الفرنسي صدر بعد انتصار الحلفاء، وقبل إصداره كان أهل العراق قد شهدوا النهاية الناجحة للحرب وسلموا بأن بلادهم ستبقى تحت السيطرة البريطانية المباشرة وكانوا سيرضون بالخضوع لحكم القوة، إلا أن التصريح فتح الباب أمام احتمالات أخرى وأتاح الفرصة للدسائس السياسية من جانب العناصر المتعصبة خصوصا وأن التصريح صدر بعد أن عاد إلى بغداد عدد من الأشخاص الخطرين على الهدوء في العراق حيث أخذوا في بث الدعاية ضد البريطانيين، ومما زاد من تأثير التصريح تلك الأنباء التي أذاعتها (رويتر) عن ذهاب الشريف فيصل إلى مؤتمر الصلح كمندوب عن الدولة العربية المستقلة (١٧).

وإلى جانب ذلك فقد كانت جرترود تعتقد أن تصريح ٧ نوفمبر لايتعارض مع وضع العراق تحت الحماية البريطانية، كما لا يتعارض مع الحماية وضع زعيم عربي على رأس الدولة في العراق — متخذة من قبل الحرب مثلا لذلك، وأشارت إلى أن الرأي العام في العراق لا يعترض على تعيين عربي على رأس الدولة، وأنه يوافق على وضع أحد أبناء شريف مكة في هذا المركز إلا في حالة وجود مرشح مصري أكفأ (١٨).

وفي السابع من مارس ١٩١٩ وصلت جرترود إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح وقد انضم إليها — بناء على استدعاء الحكومة البريطانية — كل من (ارنولد ولسن) نائب كبير الحكام السياسيين في العراق، (هو جارث) من المكتب العربي بالقاهرة علاوة على (لورنس) فكونوا جبهة من المشتغلين بمسائل الشرق العربي، للاتفاق

على رأى موحد تسترشد به الحكومة البريطانية . ثم عادت (جرترود) إلى بغداد فى ٢٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وتوافد الزوار على بيتها بالعشرات فكانت تعقـــد معهم جلسات يحضرها بعض رجال الإدارة بالعراق .

ولم تلبث (جرترود) أن صارت تقدر ارتباط المصالح البريطانية فى العراق بالمصالح الفرنسية فى الشام وأنه لا يمكن بحث التسوية العراقية منفصلة عن التسوية السورية ، ولذلك فإنها ـــ فى ٢٠ ديسمبر ١٩١٩ ـــ طالبت بأنه على الحكومة البريطانية أن تصل إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية على أسس الصلح مع تركيا وذلك بعد أن انسحبت الولايات المتحدة ـــ عليها لعنة الله (كما تقول جرترود) ونفضت يدها من مشاكل العالم القديم .

جرترود والثورة فى العراق :

ولم تلبث الثورة أن نشبت فى العراق منذ أواخر عام ١٩١٩ ، وتجمعت عـدة أسباب أدت إلى انفجار مرجل الغضب فى كافة أنحاء البـــلاد ، وبخاصة سياسة (أرنولد ولسن) التى اتسمت بالقمع والشدة لمواجهة بلاد تطالب بالحرية ، وقـــد عمت الثورة أنحاء العراق ، الذى شهد وحدة بين طوائفه المختلفة ، وحدة بين السنيين والشيعة ، وعقدت الاجتماعات السياسية فى المساجد حيث قرئت الأشعار الوطنية تطالب المحتلين بالخروج من البلاد .

وإزاء هذه الثورة العارمة التى اجتاحت العراق ضد الاستعمار البريطانى وكلفت الحكومة البريطانية الكثير من الأموال والأرواح ، علاوة على ضياع هيبة بريطانيا فى المنطقة وتزعزع مركزها ، ظهرت عدة آراء تقترح حل مشكلة العراق ، فهذا (لورنس) يقترح إقامة إدارة عربية تحت رئاسة أمير من الأسرة الهاشمية فى الحجاز ، على أن يقوم إلى جانبه (سير برسى كوكس) كمعتمد بريطانى يحيط به عدد من

المستشارين لإبداء النصح وتقديم العون إلى هـذه الإدارة فقد صار (لورنس) يعتقد أنه من الممكن السيطرة على العراق بواسطة الضباط العراقيين الساخطين على الحكم التركي ، وبذلك يمكن خدمة المصالح البريطانية بأقل التكاليف عن طريق (العرب الأصدقاء) الذين تساندهم بريطانيا عندما يتولون حكم البلاد المباشر بأنفسهم .

وقد كانت (جرترود) تؤيد رأى (لورنس) حتى لقد اقترحت — أثناء وجود فيصل فى بريطانيا بعد أن طرده الفرنسيون من سورية — أن أفضل اقتراح يمكن أن تتقدم به لحكومتها هو أن يقوم (سير برسى كوكس) بتتويج فيصل ملكا على العراق فى كنيسة (وستمنستر Westminister Abbey) ثم يعوران معاً إلى العراق (خطاب جرترود فى ١٦ أغسطس ١٩٢٠) .

ولا شك أن هذا الرأى الذى صارت تعتنقه (جرترود) هو أساس الخلاف بينها وبين (أرنولد ولسن) الذى كان يتبع الشدة فى قمع الحركة الوطنية فى العراق ويطالب بإقامة حكم بريطانى مباشر صريح لا حكما غير مباشر يختفى وراء واجهة عربية كما كان ينادى (لورنس) و (جرترود) وقد كان (ولسن) يقدر أهمية العراق الاستراتيجية ويرى أن البريطانيين — باحتلال العراق — قد تمكنوا من « دق أسفين فى العالم الإسلامى ، وبذلك منعنا تجمع المسلمين ضدنا فى الشرق الاوسط ، ويجب أن تكون سياستنا الاحتفاظ ببلاد العراق وعدم إدماجها سياسياً فى بقية أجزاء العالم العربى أو العالم الإسلامى .

إلا أن الحكومة البريطانية — إزاء ما تحملته من خسائر من جراء الثورة — أخذت بوجهة نظر (لورنس) و (جرترود) ولذلك قرر (ولسن) ترك العراق ،

ولو أنه لم يغادره إلا فى أكتوبر ١٩٢٠ عندما وصل (سير برسى كوكس) الذى أعفى من مهام منصبه فى طهران .

وإذ انتصرت وجهة نظر (جرترود) فقد شمرت عن ساعد الجد من أجل تيسير سبيل تحقيقها ، ولذلك قامت ـ يعاونها (سان جون فيلبي) الذى حضر إلى بغداد مع (سير برسى كوكس) ـــ بعمل قائمة بأسماء أعيان البلاد الذين كانت (جرترود) ضرورة التقاء (كوكس) بهم ، وقائمة أخرى بمن يتعين عليه أن يقيم معهم صداقات شخصية وأخذت على عاتقها توجيه الدعوات لهؤلاء ، وكانت النتائج ـ كما تقول (جرترود) ـ مرضية .

وفى كل خطوة يخطوها (كوكس) فى تنفيذ المخطط الجديد للحكومة البريطانية من أجل السيطرة على العراق كان يسترشد بآراء (جرترود) فقد صارت سكرتيرته الشرقية منذ ١٨ أكتوبر ١٩٢٠ ، ويتضح ذلك عندما واجهته مشكلة من يتولى رئاسة الحكومة الانتقالية التى كانت ستدير البلاد فى فترة الانتقال ، ورغم أن (طالب باشا النقيب) زعيم البصرة كان أبرز شخصية فى العراق فى ذلك الوقت ، كما كانت (جرترود) معجبة به لعدم اشتراكه فى الاضطرابات ، إلا أنه كان معروفاً بقوة الشكيمة ، ولم يكن من السهل إخضاعه لإرادة البريطانيين ، ولذلك اقترحت (جرترود) على (سير برسى كوكس) عرض منصب رئيس الحكومة العراقية المؤقتة على السيد عبد الرحمن الكيلانى نقيب بغداد ، رغم أنه كان معروفاً بعزوفه عن التورط فى الشئون العامة حفاظاً على سمعته الدينية (١٩) ، هذا إلى جانب شيخوخته واعتلال صحته ، وقد وافق نقيب بغداد على تولى المنصب ، ولما لم يكن من السهل تخطى (طالب النقيب) وإغفاله تماماً فقد استطاعت (جرترود) و (فيلبى) إقناعه بتولى منصب وزير الداخلية فى هذه الحكومة على أساس أنه سيكون الرجل الثانى ، وأنه إذا مرض الرئيس أو توفى فإن (طالب باشا) هو الذى سيحل محله (٢٠) .

ومما تجدر ملاحظته أنه عندما عرض منصب وزير الدفاع فى هذه الحكومة المؤقتة على جعفر العسكرى ، أسرع إلى (جرترود) يسألها النصح فيما إذا كان اشتراكه فى الحكومة المؤقتة التى تعتبر « خدعة بريطانية » سوف يقضى على سمعته الوطنية ، فأبلغته (جرترود) أن ثقة أولئك الذين حاربوا فى سورية قد تزعزعت بما اعتبروه تخلى بريطانيا عن (فيصل)[21] ولذلك فهى تعتقد أن العراق يجب أن يختار أميراً من الأسرة الهاشمية وأن الحكومة البريطانية لن تقف فى وجه هذا الاختيار ، وظلت (جرترود) تلح من أجل اختيار أحد أبناء الشريف حسين أميراً دائماً على العراق خلفاً للحكومة الانتقالية ، وقد اقتنعت الحكومة البريطانية بأن أفضل من يتولى عرش العراق فى ظل السيطرة البريطانية هو (الأمير فيصل) لمقامه الدينى ودوره ودور والده فى الثورة على الترك ومعاونة بريطانيا ، وصلته بكثير من العراقيين ممن عملوا معه فى سورية ، ورغبة بريطانيا فى إزالة ما علق بمشاعره من استياء ومرارة لتخليها عنه لفرنسا ، واعتبر المسئولون البريطانيون أن فشله فى الاحتفاظ بالعرش السورى سيجعله أكثر إدراكا لواقع الحال وأكثر روية فى معالجة الأمور .

ومن ناحية أخرى أخذت (جرترود) توجه بعض الصحف المحلية لتحقيق الأهداف التى كانت تسعى إليها ، فقد نظمت مثلا بعض الاجتماعات مع محرر صحيفة (العراق) - التى كانت فى نظرها معتدلة - بحيث كان يلتقى بها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً يستقى منها الأخبار ويتزود بالأفكار .

وأخيراً قرر (ونستون تشرشل) وزير المستعمرات البريطانى عقد مؤتمر فى القاهرة ، يحضره السياسيون المشتغلون بشئون الشرق العربى مثل (هربرت صموئيل) المندوب السامى فى فلسطين و(سير برسى كوكس) المندوب السامى فى العراق علاوة

على لورنس وغيره من المستشارين ، وكانت (جرترود) تنـوى أن تشغل نفسها - أثناء غياب (كوكس) في القاهرة - بالعمل على تشكيل الرأى العام في العراق وتوجيهه الوجهة التي تريدها ، ومن ذلك اجتماعها (بجعفر العسكرى) وطلبت منه إعداد الرأى العام لاحتمال تولية أحـد أبناء ملك الحجاز على عرش العراق ، وفي حديث مع (نورى السعيد) أشارت (جرترود) إلى أهمية تولى حاكم عربي على العراق ، وعندما تساءل عن كيفية التغلب على الصعوبات التي قـد تصادف (الأمير فيصل) أجابت بان الوسيلة الوحيدة هي عدم التردد بل السير قدماً في هذا السبيل. إلا أن (جرترود) أعلنت أنه ليس من الممكن تقرير شيء قبـل اجتماع القاهرة المرتقب ، ولـكنها أوصت (نورى السعيد) بأن يبذل غاية جهده من أجل وقف أي نشاط سياسى يقوم به حزب (العربية الفتاة) ، وتهدئة العناصر الوافدة إلى العراق من سورية ، أثناء غيابها مع (سـير برسى كوكس) في القاهرة ، بعد أن صمم (كوكس) على اصطحابها معه إلى القاهرة .

وقد كانت وجهة نظر كل من (كوكس) و (جرترود) تتفق مع وجهة نظر (تشرشل) ، إذ طالب (كوكس) بإسقاط الانتداب على العراق الذى كان قد تقرر في مؤتمر (سان ريمو) والعمل على إبرام معاهدة مع الدولة العربية بعد إقامتها واعتبرت (جرترود) أنها ستـكون خطوة رائعة « إذا جاءتنا الشجاعة الـكافية لاتخاذها » ، واعتبرت فـكرة إحلال معاهدة محل الانتداب - أى مزاولة سلطات ومهام الانتداب من خلال معاهدة - ضربة عبقرية Stroke of Genius لأنهـا توفق بين أماني الوطنيين في الاستقلال وبين مصالح بريطانيا لأن كلمة انتداب تعنى الخضـوع وهو أمر لم يعد يحتمله العراقيون ، أما معاهدة (بين الطرفين الساميين المتعاقدين) فيبدو فيهما كأن طرفاً قد وافق بحرية على بعض القيود على سيادته ، وبذلك يمكن أن تجد القبول دون أن توصم بالاستعمار .

وفى مذكرة (سرية للغاية) بعثت بها جرترود إلى حكومتها بتاريخ ٧ فبراير (شباط) ١٩٢١ أشارت إلى أن مؤتمراً على وشك الانعقاد فى لندن وباريس لإعادة النظر فى معاهدة سيفر وبأن ثمة اتجاهات فى الحكومة البريطانية لتقديم عرش العراق إلى أمير تركى ، من أجل تهدئة الوطنيين الترك ، وقد اعترضت جرترود على هذا الاتجاه ، على أساس أنه سيكون من الصعب إقامة انتداب بريطانى على العراق تحت حكم أمير تركى ، وفى الوقت نفسه سيكون من الصعب على تركيا الراجعة تولى الانتداب على العراق ، وأضافت جرترود أن الوطنيين فى العراق لا يريدون الترك ولكن نظراً لسخطهم على الوضع القائم فى العراق ، فإنهم يستخدمون شبح الترك لإخراج الإنجليز ثم يقومون بإخراج الترك ، وأشارت جرترود إلى أن المجموعة التى تفكر هذا التفكير ولو انها صغيرة العدد إلا أنها قوية الصوت ولسان حالها صحيفة الاستقلال (٢٢) .

ولذلك فقد كان من بين القرارات التى اتخذها مؤتمر القاهرة فى مارس ١٩٢١ ترشيح الأمير فيصل لعرش العراق المستقل الذى يرتبط ببريطانيا بمعاهدة ، ولو أن الحكومة البريطانية أرادت أن تكسب تولية فيصل صفة شرعية بتقرير إجراء استفتاء حتى تبدو توليته وقد نالت موافقة أغلبية الشعب العراقى .

* * *

إلا أن الطريق أمام (فيصل) لم يكن سهلا ممهداً . فقد كان غريبا عن البلاد لا يثق فيه الشيعة لسنيته ، بل أن عدداً كبيراً من السنيين لم يكونوا راضين عن علاقة أبيه بالإنجليز وثورته على خليفة المسلمين . هذا إلى جانب منافسة عدد غير قليل من المرشحين ، كان أخطرهم (طالب باشا النقيب) الذى كان يعتبر نفسه أحق من (فيصل) بعرش العراق « من ذا أحق منى ببلادى ؟ ألا يجوز أن يحكم العراق عراقى ؟ » وقد أحس (طالب) بأن بريطانيا — رغم تذرعها بأنها لن تولى فيصلا على العرش إلا

استنادا إلى موافقة الشعب ـ تتخذ كل الوسائل من أجل فرض فيصل ولذلك أخذ (طالب) يتصدى لهذه المحاولة ، فمارض — بصفته وزيراً للداخلية فى الحكومة المؤقتة — فى إصدار صحيفة تتولى الدعاية لفيصل مما حدا (بالسيربرسى كوكس) إلى أن يطلب من (جرترود) بدء العمل فى هـذه الصحيفة دون موافقة (طالب باشا) كما تولى (سير برسى كوكس) إرسال البرقيات يدعو فيها (الملك حسين) لإرسال ابنه ولم ترصل الدعوة بالوسائل العادية حتى لايوقفها (طالب باشا) .

وقد غضب (طالب باشا) وهو يرى هذا التدخل السافر لفرض (فيصل) وأظهر سخطه فى مأدبة كان قد أقامها لمستر (لاندون) Percival Landon مراسل (الديلى تلغراف) وألقى (طالب) فى المأدبة خطاباً أعلن فيه أن هناك بعض الوظفين المحيطين بالمندوب السامى متحيزون ويمارسون ضغطا وتدخلا فى الانتخابات (وكانت جرترود على رأس من يقصدهم (طالب باشا) وهدد (طـالب) بإثارة الأهلين والشيوخ وأنه سيلجأ إلى الإسلام وإلى الهند ومصر والاستانة وباريس ، وصارت (جرترود) ترى فى حديث (طالب) دعوة إلى الثوره لا تختلف كثيراً عن الدعوة إلى الجهاد[٢٣] .

وقد ترتب على ذلك أن دبر أمر اعتقاله ونقل إلى فاو ومنها إلى سيلان ، ثم رحل إلى أوروبا ولم يعد إلى العراق إلا عام ١٩٢٥ . وقد اغتبطت (جوترود) لهـذا الإجراء وأحست بأن عبئاً ثقيلا قد انزاح وأن العقبه الكبرى قد زالت من طريق فيصل ، خصوصاً وقد أعفى (سان جون فيلبي) مستشار الداخلية ونصير (طالب باشا) من منصبه ، كما استطاعت الحكومة البريطانية أن تثنى بقية المرشحين — وعلى رأسهم نقيب بغداد — عن منافسة (فيصل) .

وعند ما وصـل (فيصـل) إلى العراق ، وعلى الرغم من تأييد الحكومة المؤقتة

ومساندة البريطانيين ، فقد كان استقباله فاتراً ، وكان معظم الناس منصرفين عنه حتى أنه فى اليوم التالى لوصوله إلى بغداد مرت (جرترود) بالسراى التى كان ينزل بها لتترك له بطاقتها لكنه استدعاها وجلس إليها يبثها مخاوفه ، فطمأنته وأكدت له أن (سيربرسى كوكس) معه قلبا وقالبا .

ومما تجدر ملاحظته أن الكماليين فى تركيا بمجرد أن سمعوا بأن فى نية بريطانيا تنصيب (فيصل) على عرش العراق بدءوا فى بث دعاية قوية تأييداً للشيخ أحمد الإدريسى السنوسى كمنافس لفيصل على عرش العراق ، كما أن الحكومة الفرنسية — إلى جانب تعليماتها إلى قنصلها فى بغداد بألا يقيم اعتباراً لفيصل — رصدت مبلغاً من المال لمساعدة السنوسى فى الدعاية ضد فيصل وبريطانيا على السواء . وأخذ السيد أحمد السنوسى يرسل العديد من الخطابات يحض القبائل والأفراد على الثورة ضد الإنجليز وفيصل باسم الإسلام ، حتى لقد شعر فيصل باليأس وصار يفكر فى مغادرة البلاد إلى إنجلترا لولا أن (جرترود) ومعها (جعفر العسكرى) و (كورنواليس) مستشار فيصل أقنعوه بالثبات وعدم ترك البلاد حتى لا يقال إنه اختلف مع (سير برسى كوكس)(٢٤) .

وأخيراً نجح (فيصل) فى الاستفتاء بفضل موازرة السلطات البريطانية التى لجأت إلى كثير من الوسائل للتحايل من أجل توليته وتم تتويجه ملكا على العراق فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٩٢١

وحتى بعد أن توج فيصل ظل القلق يراوده عن مستقبله ، حتى لقد كتبت (جرترود) فى ٢٥ سبتمبر ١٩٢١ أنها عند ما طلبت من (فيصل) إحضار زوجته وأولاده إلى العراق عبر لها عن عدم اطمئنانه ، مما دعا (جرترود) إلى أن توحى إليه بعقد اجتماعات مع شخصيات معينة لتدعيم مركزه وتعهدت هى بأن تقدم له قائمة بأسماء الشخصيات التى يتعين عليه توثيق صلاته بهم .

وهكذا كان فيصل مدينا بالفضل (لجرترود) حتى أنها عندما اطمأنت إلى توليته وزوال العقبات التى كانت فى طريقه فكرت فى السفر إلى (وطنها) بريطانيا لقضـاء الصيف، وعندما أبلغت فيصلا بذلك طلب منها ألا تتكلم عن (وطنها) «فوطنك هنا، ولكن يمكنك أن تقولى انك ذاهبة لرؤية والدك».

رأى جرترود فى سياسة بلادها إزاء الصهيونية:

وإنصافاً لهذه المرأة لانستطيع أن نختتم هذه الدراسة دون أن نشير إلى موقف جرترود من السياسة التى اتبعها بعض ساسة بريطانيا إزاء الصهيونية، تلك السياسة التى تظهر بوضوح فى إصدار تصريح بلفور فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧. ويكفى فى هذا المقام أن نستشهد برسالة جرترود إلى زوجة أبيها فى ٢٥ يناير (كانون ثان) ١٩١٨ والتى ذكرت أنها «تكره تصريح بلفور الصهيونى بخصوص سوريا، وفى اعتقادى أنه لا يمكن تنفيذه، فان البلاد (فلسطين) غير ملائمة بالمرة للأهداف التى يتطلع اليهود إلى تحقيقها، فهى بلاد فقيرة لا تصلح لتطور كبير، وثلثا سكانها من العرب المسلمين الذين ينظرون إلى اليهود نظرة ملؤها الكراهية والحقد، وفى اعتقادى أنه مشروع (الوطن القومى اليهودى) مصطنع (غير طبيعى) لا صلة له بالحقائق، وأتمنى له الفشل الذى يستحقه والذى سوف يتحقق»[٢٥].

خاتمة المطاف:

وبعد أن أدت (جرترود) دورها بنجاح وانتهت مهمتها بدأ نجمها فى الأفول وخاصة بعد أن تولى (سير هنرى دوبز Dobbs) منصب المندوب السامى فى العراق، ولم تكن (جرترود) على وفاق معه، فعينت بأمر الملك فيصل مديرة للمتحف

الآثار إلى أن ماتت عام ١٩٢٦ ، وقد كتب لورنس إلى والدها عام ١٩٢٧ بأنه : « على يقين من أنها ماتت سعيدة راضية ، لأنها أنجزت المهمة السياسية التى انيطت بها على أحسن وجه وهى مهمة من أخطر المهام التى وكلت إلى امرأة ، لقد انتهى دورها التاريخى ، كما انتهى دورى من قبل . »

وليس أول على تقدير مواطنيها لها والخدمات التى أدتها لبلادها من تلك العبارة التى اختتم بها شين ليزلى Shane Leslie مقدمته للجزء الثانى من كتاب اليزابث بيرجوين والتى قال فيها أنه لو أرادت بريطانيا أن تخلد النساء اللائى عشن ومتن فى سبيل الإمبراطورية أثناء الحرب العالمية الأولى ببناء مقبرة فى كنيسة وستمنستر فانه لا يمكن اختيار جثمان أشرف من جثمان جرترود بل لتمثيل هؤلاء السيدات .

الهـــوامش

(1) Burgoyne Elizabeth: Gertrude Bell from her Personal Parers (1914—1926) pp.14—15.

(2) Foster: The Making of Modern Iraq, pp. 32—5.

(3) إيرلاند : العراق ، دراسة في تطوره السـياسي . ترجمة جعـفر خياط (١٩٤٩) ص ٤ — ٥ .

(4) Foster: ouv. Cit pp. 37—8.

(5) Wilson, Loyalties, Mosopotamia Vol — 1, pp. 6—9

(6) Idid. pp.10—11 : Appendix 1, p. 311.

(7) Young : The Independent Arab (1933) p.273.

(8) Burgoyne: Ouv. Cit. p.82.

(9) Graves: The Life of Sir PercyCox, p.206.

(10) Burgoyne: Ouv. Cit, pp.33—43.

(11) Garnett: Letters of T.E. Lawrence pp.202—3.

(12) Burgoyne: Ouv. Cit.pp. 38—43.

(13) Kurds, Turks and Arabs. مؤلف كتاب

(13A) Burgoyne : Ouv. Cit. p 42.

(14) Wilson : Ouv. Cit. Vol. I, p. 238.

الحسني : تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص ص٨٦ — ٨٨ .

(15) ايرلاند — خياط : المرجم السابق ذكره ص ص ٩٩ — ١٠٠

(16) Wingate Papers—School of Orienral—studies—University of Durham.

(17) Burgoyne: Ouv. Cit. pp· 105—9·
(18) Wingate Papers, Dnrham.
(19) Burgoyne: Ouv. Cit. p.174.
(20) Philby: Arabian Days p. 193.
(21) Burgoyne: Ouv. Cit. p. 193.
(22) Ibid pp. 204—5.
(23) » » 213—4·
(24) » » 243
(25) » » 75.

نصوص ووثائق

رسالة فى إصلاح الدولة العثمانية

فى القرن السابع عشر

الشيخ حسن كافى الأقحصارى

ورسالته « أصول الحكم فى نظام العالم »

دراسة وتحقيق

عمر ناقيتشقيتش

الشيخ حسن كافى الأقحصارى من علماء البوسنة[1] ومفكريها الذين تأثروا بالعلوم العربية الاسلامية ، ومن الذين قاموا بنشرها فى المناطق التى كانت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر تحت سلطة الإمبراطورية العثمانية . إنه ليس مجهولا تماماً للعالم الاسلامى ، وكذلك بالنسبة للعالم الأوروبى ، ولكنه بقى مغموراً إلى حد ما كما حدث مع الكثيرين من علماء بلاده .

---

١ — أن اراضى البوسنة والهرسك واسعة وتقع فى الشمال الغربى من شبه جزيرة البلقان وسط يوغوسلافيا الحالية ، وسميت باسم نهر يجرى فيها وتحدها الآن من الجانب الشمالى بنهر (صاقا) ومن الجانب الشرق بنهر (درينا) ومن الجانب الغربى بمنطقة (دالماتيا) ومن الجانب الشرقى الجنوبى (بالجبل الأسود) وإذا أطلق اسم البوسنة فقد يشمل على الهرسك أيضا . وأكثر اراضيها جبلية والسهول فيها قليلة وأنهارهــا كثيرة جدا تتفجر فى كل جهة من جهاتها عيون الماء العذب وزرعها بالامطار وفيها فواكه كثيرة متنوعة لذيذة وهواؤها حسن جدا للصحة صيفا وشتاء ولكن إذا حل الشتاء تغطت الأرض بغطاء من الثلوج ، وهى الآن أحدى الجمهوريات اليوغوسلافية ، وعاصمتها (سراييفو) ويسميها الأتراك فى الوثائق (بوسنه سراى أو سراى بوسنه) راجع الخانجى ص ٩ من الجوهر الأسنى .

حيـاة الاقحصاري :

ولد الشيخ حسن كافي في البوسنة سنة ٩٥١ هـ/١٥٤٤م في بلدة أقحصار - يعني الدار البيضاء - وأهل تلك البلاد يسمونها بـ (بروساتس)(١) وأجداده لم يكونوا أصلا من البوسنة بل جاءوا من ألبانيا من إحدى قرى الاسكندرية الرومية(٢) واستوطن جـد جده يعقوب قبل مجيء الأتراك إلى البوسنة قرية من قرى قضاء أقحصار (بروساتس) اسمها ذئب ، ولا يعرف سبب مجيئه إلى الوطن الجديد ، هل كان ذلك لميوله إلى المذهب الباتاريني المنحرف من المسيحية حيث أجبر على الفرار من الصليبيين والتجأ إلى البوسنة ، أوجاء كراعي أغنام يبحث عن المرعى .

ولما بلغ حسن كافي سن التعليم بدأ بدراسته حسب المادة والزمان والنهج

---

١ — ذكر الدكتور باشا غيلش في ترجمة « سياحت نامه‌سى » لاوليا جلبى ص١٤٧ أن البنادقه بنوا هذه القلعة الجميلة التي تشبه اللؤلؤ الأبيض وسموها بـ (بروساتس) ، وذكر إسم بروساتس أول مرة في التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٤٧٨ وسميت هذه القلعة بعد ذلك ببلغراد » وترجم اسمها إلى اللغة التركية واصبحت (اقحصار) يعنى الدار البيضاء . وقال أوليا جلبى أنه كان في القلعة ثمانون دارا للجيش ومسجد واحد . أما خارج القلعة فكانت عدة مساجد وأحسنها مسجد حيضر كهايا الذي بنى ١٠٢٥ هـ ١٦١٦ م ، وثمانية شوارع للسكنى ذات دور أرضى أو طابق واحد وبساتين من حولها . ويدخل الإنسان القامة عبر الجسر المتحرك الذي ينزل إثناء النهار ويرفع إثناء الليل . وكتب فوق مدخل القلعة عبارة تقول أن القلعة تشابه جنة المأوى . وتوجد في المدينة ثلاث تكايا وأشهرها تكية خلوتية بناها الشيخ حسن كافي وكذلك ثلاث كتاتيب كتب فوق الذي بناه الشيخ حسن تاريخ إنشائه « شيخ كافي » يعنى (١٠٢١ هـ ١٦١٢ م) وكذلك خان بناه الشيخ حسن أيضا . وفي المدينة حمام واحد وثمانون محلا للبيع والشراء فضلا عن (باذيستان) وفيها دار الحديث ، وليست هذه المدينة كبيرة بل إنها مدينة حدود حول القلعة » أما الجو فيها فانه لطيف وفي المدينة ماء عذب ادخل من خارج المدينة عن طريق الأنابيب الخشبية .

٢ — هكذا سمت مدينة (اشقدرة) في الوثائق التركية وحسن كافي يستعمل هذه الكلمة .

الذى كان متبعاً فى الدولة العثمانية حينذاك ، وأشار فى ترجمة حياته إلى أنه ارتحل إلى استانبول بعدما تيسر له «تحصيل مبانى العلوم» فى بلاده فى أوائل سلطنة السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان(١) وأخذ العلوم من عدة مشايخ ، واشتغل عند كثير منهم حتى انتسب إلى خدمة حاجى أفندى قره بيلان المشهور بـ معيد كمال باشا زاده(٢) فى بلده (جتلجة) المتوفى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة . ومن بين الذين أخذ العلوم عنهم كان العلامة فى التفسير والأصول قاضى العسكر بروم إيلى المعروف بالعجم منلى أحمد الأنصارى ، والعلامة بعشا كل الحديث والقرآن القاضى والملقب بـ(سراييفو) بالى بن يوسف الشهير بعلم الوزير الأكبر(٣) ، ثم آخر من تتلمذ عليه الأقحصارى هو قدوة مشايخ المدينة ومكة أستاذ سلطان الهند جلال الدين الأكبر والقاضى بعسكره الشيخ الأنور مير غضنفر بن جعفر الحسين المتقاعد بالمدينة المنورة .

ولما تم الشيخ حسن كافى الأقحصارى دراسته فى استانبول عاد إلى مسقط رأسه (بروسانس) عام ٩٨٢ هـ وبدأ بالتعليم .

---

(١) كان سلطانا من سنة ٩٧٤ — ٩٨٢ هـ .

(٢) وضعه الاقحصارى فى سلسلة العلماء الذين نقلت عن طريقهم العلوم الإسلامية من النبى المرسل إلى وقته هو .

وقد تحدث عنه بكل احترام وتعظيم وقال : « الثامن والعشرون (فى هذه السلسلة) العالم العامل والأستاذ الفاضل الكامل ، الشيخ الهادى شيخى وأستاذى ، الشيخ حاجى أفندى المعروف بقره بيلان فيما بين أقرانه ، المشهور بمعيد كمال باشا زاده فى زمانه ، حصل مبانى العلوم فى شبابه بقسطنطينية المحمية ، ثم صار معيدا لدرس الإمام كمال باشا زاده وأمينا لفتواه ثم اختار التقاعد للتدريس بمدرسة الوزير على باشا فى بلدة جتالجة بقرب قسطنطينية وهو أول مدرس بها ... » ص ٣٠ من المخطوطة المذكورة من نظام العلماء للاقحصارى .

(٣) ولد فى بلدة (سراييفو) وأخذ العلم من علماء بلاده ثم صار معلما للأولاد ولكن بواسطة الوزير الأعظم محمد باشا صوكوللى — وهو بوسنوى أيضاً ولد فى قرية صوكول قرب =

ولما عاش الأقحصارى فى جو متوتر للغاية وبصفته عالماً بارزاً مشهوراً وكاتباً ماهراً وصاحب رأى حاسم فإن السلطة العثمانية حاولت ضمه إلى قواها العاملة لحل مشاكل الدولة العثمانية العديدة . وفى الزمان الذى كان الأقحصارى فيه معلماً شاباً داعياً إلى تحقيق الفكرة الاسلامية فى مطلع حياته العلمية ظهرت فى البوسنة تعاليم الشيخ حمزة التى استدعت تدخل استانبول والمعلم الشاب أيضاً فى شئونها مع أستاذه بالى أفندى[1] . وعين الأقحصارى بعد ذلك قاضياً فى (برسالس) سنة (٩٩١هـ) غير أنه نقل من هذا المكان الهادىء نسبياً ، بسبب جرأته وحدة قلمه إلى ولاية (سرم)[2] سنة (٩٩٦ هـ) .

كان الأقحصارى يتردد على استانبول كلما سنحت له الفرصة منتظراً من المسئولين منصباً عالياً وكأن وظيفته التعليمية والقضائية لم تكن فى مستواه بل كانت دونه على حد اعتقاده .

= مدينة (فيشيغراد) على نهر درينا — دخل فى جملة المدرسين بمدارس استانبول وتقلب فى عدة وظائف وفى النهاية كان قاضيا فى البوسنه وتوفى عام (٩٩٠ — ١٥٨٢) واشترك بالى الهندى فى تصفية الطريقة الحمزوية عندما أرسل شيخ الإسلام سنة (٩٨٦) المنشورات إلى القضاة يأمرهم فيها برد هؤلاء الزنادقة إلى دائرة الدين باى وجه كان « ص ٤٢ من الجوهر الأسنى » للخانجى نقلا عن الشقائق النعمانية .

(١) ومؤسس هذه الطريقة يسمى حمزة وولد فى قرية من قرى مدينة (ازفورنيق) على نهر (درينا) فى البوسنة ويبدو أنه كان من أحفاد الشيخ حمزة (أورلوفيتش) الذى تبرع له السلطان بهدية قرية (أورلوفيتش) بما حولها من القرى المجاورة حيث بنى مسجدا وتكية ودارا للضيوف لا تزال موجودة على شكلها ونوعها كما كانت . وقتل مؤسس هذه الطريقة الشيخ حمزة عام (١٥٧٣ م) فى استانبول على أساس حكم شيخ الإسلام أبى سعود أفندى ، وقال ابن نوعى وشمس الدين سامى وعلى جواد أنه ظهرت منه أشياء مخالفة للشرع وعللوا ذلك باستغراقه فى الجذبة الالهية ، قالوا فحبس فى قلعة أنقرة فلما أصبح الغد وجدوه ميتا وذلك سنة (٩٦٤ هـ) ولم يذكروا ما ظهر منه ، الجوهر الأسنى ص ٦٨ .

(٢) المنطقة الواقعة بين نهرى (سافا) و (دانوب) فى يوغوسلافيا .

وبعد أن أدى فريضة الحج سنة ألف ، عاد إلى استانبول وعين من جديد قاضياً فى بعض بلاد جوار أقحصار . وعندما ظهرت الفتنة والفساد من قبل بعض العمال فى الأردل والبغدان(١) ترك الأقحصارى القضاء وفر إلى مسقط رأسه أقحصار وفى هذه الفترة من الأحداث المتوترة وصلت أعماله الفكرية السياسية إلى ذروتها حيث بدأ وضع رسالته « أصول الحكم فى نظام العالم » .

لقد خدم مجتمعه بإخلاص وصدق ولم يخلف أملاكا ولا بنين بل أنفق كل ما كان يملكه فى سبيل الأعمال الخيرية . وعندما اشتهر بحكام كبير ومفكر عظيم قدم إلى الوزير الأعظم إبراهيم باشا خوشهرلى وهو بوسنوى أيضاً أهم مؤلفاته ومن بينها ترجمة رسالته « أصول الحكم » باللغة التركية التى يتحدث فيها بصراحة واستقامة عن أخطاء نظام الحكم التركى آنذاك مشيراً عند ذلك إلى الطرق والأساليب التى يمكن بواسطتها أن يعود إلى تركيا مجدها القديم وعظمتها ثم عين ـ مكافأة له ـ قاضياً مدى الحياة فى مسقط رأسه (أقحصار) .

ويبدو أن الشيخ حسن بدأ ييأس من الحياة فاختفى وتراجع من الميادين السياسية وقضى بقية حياته كمحاضر وقاض يكتب مؤلفاته فى مجال اللغة والدين لكن كلما خيمت من جديد السحب المليئة بالخطر الحربى نراه يتحرك فيه شعوره الوطنى فيأخذ السيف فى إحدى يديه والقلم فى الأخرى ويقاتل ويجاهد ويعلم ويكتب حتى وافاه الأجل وهو فى مسقط رأسه ـ بروماليس (أقحصار) . وذلك فى الخامس والعشرين من شعبان أو فى السادس عشر من رمضان سنة ١٠٢٥/١٦١٦م عن أربعة وسبعين عاماً .

---

(١) ولاية فى رومانيا الحالية .

لقد اشترك الأقحصارى فى كثير من المعارك الدامية التى يتحدث هو بنفسه عن بعضها كما جاء فى كتابه « نظام العلماء » .

« ... وفى أواخر هذه السنة السلية (١٠٠٤ هـ) خرج سلطاننا المظفر والمنصور للغزوة المعروفة بغزوة (أكرا)[1] ومحاربة التابور ، الا وهو السلطان ... الغازى محمد خان ابن السلطان مراد خان ... فخرجنا للغزوة معه من أقحصار يوم السبت الرابع من محرم الحرام لسنة (١٠٠٥) ولحقنا بعسكره ... تحت القلعة بعد المحاصرة يوم السبت الثالث من صفر ... » وعرض فى هذه المناسبة كتابه المذكور « أصول الحكم » . وذكر فى تصنيفه المسمى بـ « أزهار الروضات فى شرح روضات الجنات » أن تسويده كان فى أواخر رجب لسنة ست وألف من الهجرة النبوية وتبييضه وتكميله فى غزوة (استروغون وفتحها[2] « مع تشتيت البال وكثرة الاشتغال بالمشاورة والرأى فى أسباب الفتح والظفر وتدبير أحوال العسكر . فى أوائل جمادى الأولى سنة (١٠١٤ هـ) وقد وقع الفراغ من تسوده هذا الشرح بعد الفتح والعود فى أوائل رجب المرجب من السنة المزبورة بقلعة (لوسيبك)[3] ثم من تبييضه وإكماله بعون الله تعالى وأفضاله بقلعة أقحصار ... فى أواخر شهر شوال لسنة (١٠١٥هـ) » .

ونجد مثل هذه الملاحظة فى كل من « نور اليقين » و « روضات الجنات » لهذا المؤلف حيث قال أنه كتب « روضات الجنات » فى بروسالس أثناء التدريس:

---

(١) تقع فى المجر وتسمى بـ « ارلاء » أيضاً ، فتحها السلطان محمد الثالث وسمى بفاتح أكرا .

(٢) مدينة فى المجر .

(٣) مدينة من مدن كرفاتيا فى يوغوسلافيا .

« بما خطر فى نفسى فى أثناء درسى ... مع كثرة الاشتغال بمخاطبة العوام وتشتت البال بمخاطبة غير الإســلام والابتلاء بالقضاء سيما فى أيام الفترة والوباء وإثارة الفتنة وأنواع البلاء » .

وإلى جانب ممارسة المهنة القضائية والتعليمية فى مختلف المناطق وتاليف الـكتب فى شتى الميادين اهتم الأقحصارى اهتماماً كبيراً بشعبه . وقــد اختار فى نهاية حياته مكاناً هادئاً لأداء واجب العلم وأسس فيه مدينة جديدة للتعليم وسماها « نوآباد »[1] وبنى فيها على نفقته الخاصة مسجداً ومكتباً لتعليم الأطفال وخاناً وحماماً ومدرســة ومحكمة وأقام شبكة المياه لتزويد هــذه المدينة بماء نقى صاف وأحيا شخصية (إيفاز دده)[2] التاريخية وأخيراً بنى لنفسه فى مبنى المدرسة ضريحاً له دفن فيــه هو وزوجته .

مؤلفات الأقحصارى :

يعد الشيخ حسن كافى من بين العلماء البوسنويين الذين كتبوا باللغات الشرقية الثلاث فبرزوا فيها ، وعملوا على تقدم بيئتهم ونجحوا فى رسالتهم . إن هــذا العالم والمربى حول مدينة (بروسالس) الصغيرة إلى مركز علمى ظل تأثيره ممتداً على ما حوله من المدن والقــرى حتى بعد وفاته ، وبصفته أنه كان عالماً من العلماء الذين يهتموا بالمنواحى العلمية الصرفة نجده لم يكن يحب كتابة الشعر غير أنه توجد بعض الأبيات هنا وهناك فى مؤلفاته . وبمقتضى هــذا التخصص تأثرت كتابته بالأسلوب العلمى وكانت تتسم بحصر مواد البحث بشــكل موجز ثم يتبعها بالدراسة التفصيلية .

---

(١) كلمة فارسة تعنى « مدينة جديدة » .

(٢) جاء مع السلطان محمــد الفاتح إلى بروسالس وبفضله اعتنق معظم سكان القــرى المجاورة لبروسالس الاســلام « بوسنه وهرسك ولايت سالنامه سى ، ١٨٨٧/١٣٠٥ إيفازدد ٥ ص ٧٦ .

لقد كتب الشيخ حسن كافي الأقحصاري كتباً عديدة تناولت المنطق والفقه والعقائد والبلاغة وكل ذلك باللغة العربية . وذكر بعض هذه المؤلفات في نهاية تأليفه المسمى « بنظام العلماء إلى خاتم الأنبياء » حسب تواريخ تأليفها ، ونظـراً إلى أنه ألف هذا الكتاب سنة (١٠٠٨ هـ) وتوفى (١٠٢٥) فلا شك أنه كان لديه الوقت الكافي ليكتب بعض التآليف الأخرى ومما يؤكد ذلك بعض تصنيفاته الموجودة في المكتبات الشرقية في البوسنة وخارجها . وذكر الأقحصاري في نهاية كتابه « نظام العلماء » المؤلفات التالية :

١ ــ رسالة لفظ جلي ،
٢ ــ مختصر الكافي من المنطق
٣ ــ شرح المختصر إلى آخر تصورات
٤ ــ حديقة الصلاة
٥ ــ سمت الوصول إلى علم الأصول
٦ ــ شرح سمت الوصول إلى علم الأصول
٧ ــ أصول الحكم في نظام العالم
٨ ــ تمحيص التلخيص
٩ ــ روضات الجنات في أصول الاعتقادات
١٠ ــ نظام العلماء إلى خاتم الأنبياء

أما مؤلفاته الأخرى المذكورة في بعض المراجع أو التي وجدت فهي :

١١ ــ شرح مختصر القدوري ــ أربعة مجلدات .
١٢ ــ أزهار الروضات في شرح روضات الجنات
١٣ ــ المنيرة

١٤ — نور اليقين فى أصول الدين ،

١٥ — شرح تحصيل التلخيص ،

١٦ — رسالة فى بعض مسائل الفقه .

١٧ — شرح كافية ابن الحاجب ،

١٨ — تاريخ غزوة أكرا ،

١٩ — شرح مقدمة الصلاة للفنارى ،

وقال محمد طاهر بروسلى(١) كان حسن كافى الأقحصارى البوستوى يقول « الشعر باللغات الثلاث العربية والتركية والفارسية لغير الله اما بقى من شعره قليل جداً » .

مشكلات عصره :

واجهت الأمبراطورية العثمانية فى الفترة التى عاش فيها الأقحصارى المرحلة الأولى لاندثار نظامها الاقطاعى المسمى بـ « نظام تيمار » الذى أسسته وقامت عليه قوة الدولة العثمانية وطاقتها ، وبهذا دخلت الدولة مرحلة التأخر وبدأت بالتدهور والانحطاط . وفى نهاية القرن السادس عشر انتهت فتوحات العثمانيين ونقص دخل الغنائم الحربية التى كانت مصدراً أساسياً لغنى الطبقة الحاكمة فى الدولة .

وكانت هذه الغنائم الحربية تغطى جميع النقص الاقتصادى وتخفف من المشاكل التى كانت تقوم بين الحكومة المركزية ومختلف الولاة فى المناطق ، أما الآن فإنها بقيت بدون تلك الغنائم وظهرت المشاكل المختلفة فى أوضح أشكالها .

وباندثار النظام الاقتصادى العثمانى ، ومع التطور الكبير الذى ظهر بنشأة المدن

---

(١) عثمانلى مؤلفلرى ص ٢٧٧ .

الصناعيه التجارية ، دخلت الدولة فى مرحلة جديدة من الإنحطاط وعجزت الطبقة الحاكمة عن استخدام القانون الذى كان سارى المفعول بين السيد والمسود . وبانتقال الطرق التجارية العظمى من البحر المتوسط إلى المحيط الاطلنطى بعد اكتشاف أمريكا ، ثم باتجاه الطرق البحرية صوب الهند تقهقرت الدولة العثمانية أمام التنافس التجارى الدولى وبدأت تجارتها تكسد .

وبسبب التطور السريع فى صناعة الدول الغربية فى القرن السادس عشر وبداية السابع عشر بدأت تلك الصناعات تحتل الأسواق التركية وتقضى على المنتجات المحلية التركية .

وأدى اندثار النظام الاقتصادى التركى العثمانى « نظام تيمار » إلى هبوط الإنتاج اليدوى الحرفى فى المدن والقرى ، إذ أن تطور القوى الانتاجية الصناعية سبب ضعفاً كبيراً فى انتاج الحرف الصغيرة .

ونلاحظ أن تفوق الانتاج الصناعى فى الغرب تزايد بنسبة زاد معها ضعف الانتاج الحرفى فى تركيا ، حتى أصبح ذلك الخطر يشمل جميع أصناف المنتجات الحرفية .

وبدأت الدولة تدخل مرحلة صعبة جديدة بسبب ضرورة الدفع بالذهب للبضائع المستوردة من البلاد الغربية الصناعية . وفى نفس الوقت ضعفت صناعة التعدين، ولم يكن دخل المناجم كافياً لسد حاجات الدولة ومصروفاتها، وأدى هذا إلى اغلاق كثير من مناجم المعادن النفيسة.

أزمة داخلية :

وإلى جانب الأزمة الاقتصادية فى الدولة العثمانية فى القرنين المذكورين ظهرت عوامل داخلية أدت إلى سرعة انحطاط الأمبراطورية ، منها ضعف القوة الداخلية ونظام الضبط والربط حيث بدأ السلاطين والأمراء والولاة يعيشون فى ترف على حساب الغير

كما بدأتجمع رأس المال في أيدي بعض الناس مما أدى إلى زيادة الأزمة المالية للحكومة وكانت الدولة تنجح أحياناً في التغلب على بعض الصعوبات في تلك الفترة لسد حاجات الجيش والعناصر غير المنتمية بمشقة كبيرة ومناورات مختلفة مثل اغراق السوق بالنقد مع ضعف الرصيد الذهبي وتداول هذاالنقد الضعيف أسهم في ظهور ثورات واسعة النطاق.

ونجد في أواخر القرن السادس عشر أن قوى السلاطين التي كانت غير محدودة في السابق بدأت تتعلق بارادة حراسها الانكشاريين، حتى قاربت على الزوال، وكل محاولة من قبل السلاطين لأخذ زمام القياده من جديد كانت تؤدي إلى اراقة الدماء والتمرد، وفي النهاية إلى قتل السلاطين أو عزلهم عن الحكم.

الخطر من الخارج

لاشك أن القوى الأوربية القائمة في ذلك الزمن أسهمت في اضعاف الامبراطورية العثمانية كما أسهمت في ذلك الاختراعات الجديده المختلفة في الغرب، وخاصة في الفن الحربي الذي أدى إلى انتاج الأسلحة الحديثة. وكانت الدولة العثمانية منعزلة تمام الانعزال عن كل اختراع وتقدم، فتراجعت أمام التفوق الأوربي.

وفي الوقت الذي ضعفت فية القوى العثمانية قويت على حدودها الشمالية دول كبيره مثل النمسا وروسيا.

وفي أوائل القرن السابع عشر كانت القوات العثمانية لاتثير الخوف أوالفزع عند الدول الأوربية، بل أن تركيا اعترفت بالنمسا كقوه مساوية لها، وألغت الاتاوه التي كانت النمسا تدفعها اليها إلى عام الف وستمائة وستة.

وهذا برهان واضح على أن قواها قد انخفضت وضعفت، وهذا الاتفاق يعني

انتهاء سلسلة طويلة من الغزوات التركية فى الغرب . نعم ، نحن لا نستطيع انكار محاولة جديدة للعثمانيين بغية التفوق وعودة نفوذهم السياسى والعسكرى القديم مثل ما حدث أثناء محاصرة (فيينا) عام ألف وستمائة وثلاثة وثمانين غير أن هذه المحاولة انتهت بانهزام كامل للقوات العثمانية .

هذا إلى ماساد الدولة من عناصر الرشوة والفساد والبغى والأمراض وعدم طاعة الجيش للمسئولين والأمراء ، وقد تحدث الشيخ حسن كافى فى رسالته «اصول الحكم فى نظام العالم» عن هذه الأمور .

رسالة أصول الحكم فى نظام العالم :

فلما اتضحت علامات اضمحلال السلطة العثمانية فى آخر القرن السادس عشر الميلادى وابتداء القرن السابع عشر حاول كثير من العلماء والمفكرين أن يبينوا فى كتبهم ورسالاتهم أسباب الاضمحلال وعلاماته .

وقد كتب بعض العلماء والمفكرين من المسلمين قبل ذلك كتبا عن السياسة والإدارة مثل الفيلسوف أبى نصر الفارابى فى «السياسة المدنية» وابن تيمية ورسالته «السياسية الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» والامام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى فى كتابه «التبر المسبوك فى نصيحة الملوك» . والعالم الجليل الذى كتب كتاباً مفيداً من هذا الباب هو تاج الدين عبد الوهاب السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ بعنوان «معيد النعم ومبيد النقم» ، وكتب أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى المالكى كتاباً بشأن هذا الموضوع وسماه «سراج الملوك» كما صنف نظام الملك (قتل ٤٨٥/١٠٩٢م) وهو وزير ملكشاه كتاباً سماه «سياستنامه» وكتب فى هذا الموضوع أيضاً «كوجى

بك » مستشار السلطان مراد الرابع والسلطان ابراهيم الأول عدة رسائل وأشار فيها الى ضعف السلطة التركية في زمانه .

ومن بين الذين كتبوا فى هذا الموضوع كان الشيخ حسن كافى الاقحصارى البوسنوى الذى كتب رسالة سماها «أصول الحكم في نظام العالم» وكتبها أولا باللغة العربية ثم ترجمها بناء على رغبة المسئولين إلى اللغة التركيـة . ودرس الاقحصارى تلك المسائل والقضايا بما تستحقه من جد .

عرض الاقحصارى فى هذه الرسالة نظرياته وآراءه فى نظام المجتمع والدولة، وذلك يتعلق فى الدرجة الأولى بالدولة العثمانية، لـكنه لا يهدف بها خلق نظام اجتماعى جديد، أو بحثاً فى فلسفة الدولة مثل ماقام به مثلا ابن خلدون فى مقدمته، بل حاول أن يحـلل مشاكل الوضع الذى كان سائداً آنذاك فى البوسنة والدولة العثمانية وأن يشير إلى العوامل التى يمكن أن تحفظ مجـد العثمانيين وقوتهم، وبالأحرى يشير إلى الأخطاء التى تقــود لامحالة إلى انحطاط المجتمع والدولة .

وفى هذا التحليل تنديد بتصرفات أجهزة الدولة وممثـلى السـلطة كالأمراء والباشوات وقواد الجيش، بل يمكننا القول أنه كان يقصد بنقده هذا أعلى جهاز إدارى فى الدولة بما فى ذلك السلطان نفسه أو ولى الأمر أياً كان لقبـه .

ومع ذلك فهو يعرض فكرته على أنها يمكن أن تطبق كذلك على الأماكن التى يتوطنها المسلمون، بل وعلى المناطق التى يعيش فيها غير المسـلمين.

ونحن نجد فى هذه الرسالة شيئاً من التناقض . فالمؤلف يتحدث عن سير المجتمع فى طريق الانحطاط بسبب الفساد وفقدان العدالة والظلم والطغيان واهمال التنظيم وعدم مراقبة الجيش، وبسبب الالتفات إلى المتعة واللهو والرغبة فى النساء واستخدام الرشوة

وما أشبه ذلك . على حين أنه فى الوقت نفسه ينسب إلى كبار المسئولين صفات الايمان والعدالة والتنظيم والتواضع والبساطة فى الحياة والتدبير فى العسكر وأعمال الخير وقيام النظام واعادة السلام والأمن والتقدم . الخ.

وقد ظهر التناقض فى أن كل شيء بدا على مايرام عند الحكام بينما نرى المجتمع يسير بخطوات سريعة نحو التدهور .

ويمكن أن يفسر هذا المسلك من المؤلف على ضوء منهجه وفى ظروف الحياة فى عصره .

كان الشيخ حسن كافى منهجه الذى يعتمد على أساسين :

الأول . العمل على العودة بالاسلام فكرياً وسياسياً إلى عصره الأول .

والثانى . الجرأة فى الحق وهى ضرورية لتحقيق الأساس الأول .

ولما لم تكن لديه تلك الجرأة ليقول ما يقصد بصراحة وليوجه نقده إلى الجهات العليا ـ خوفا من الدسائس فى القصر السلطانى، وعند الأمراء وخوفا من أن يصله «الخيط الحريرى» المهدى من قبل السلطان لكل ساخط أو ثائر أو متمرد أو حق مصلح، ولكل من يعارض ارادته، وبسبب عمليات الاغتيال المختلفة نجده يدافع عن السلطان وبعض الوزراء والأمراء الذين كانت سيوفهم وخناجرهم تلوح فوق رؤوس فرسان البوسنة .

وليس هذا فقط بل كان يمدحهم ويرفع من قدرهم ومكانتهم فى مقدمات تأليفاته أو خاتماتها، مقدما لهم نياشين المجد والنصر والعدل والحكمة والتنظيم، والأعمال الخيرية و... الخ .

لقد كان الشيخ حسن يرى أن الجرأة لابد أن تكتسى بشيء من أسلوب سياسى

ومهارة تعلو دسائس الحاقدين ،ولا بد أن يستعمل شيء من الحيلة لتنفيذ فكرته ، وأن هذا الأسلوب وهذه المعاملة لابد منها لتحقيق الأساس الأول .

أما المسائل التي ناقشها الاقحصاري في هذه الرسالة فاننا نجدها في بعض المصادر العربية . وأول ما ناقشه الاقحصاري في الفصل الأول من رسالته كانت مسألة العدالة عندما قال: « الأصل الأول في سبب نظام السلطنة وامتدادها ، العمدة فيه العدالة وحسن السياسة ». وناقش مسألة تفويض الامور إلى أهلها ومسألة أداء الامانة، واستعمال الأصلح . وتجد هذا عند ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية » الذي تحدث أولا عن استعمال الأصلح في الولايات وأداء الأمانات(١) .

ومسألة العدل نجدها أيضاً في كتاب «سراج الملوك» للطرطوشي (٢)

ومسألة تفويض الأمور إلى الأصلح نجدها عند السبكي(٣) كما ناقش الاقحصاري مسألة اختيار وزير عادل مصلح ونجدها عند الطرطوشي أيضاً(٤) . وجعل الشيخ

---

(١) السياسة الشرعية ص ١٧ .

(٢) في الباب الحادي عشر في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها وعند ذلك يقول : « فأول الخصال وأحقها بالرعية العدل الذي هو قوام الملك ودوام الدولة » ص٥١ — ٥٤ ، كما تحدث عن العدل في مناسبات شتى مثل : قالوا ظفر الملك بعدوه على حسب عدله في رعيه » (ص ٧١ وفي ص : ١١٨ و ١١٤ ـ ١١) .

(٣) في كتابه المذكور « معيد النعم ومبيد النقم » الذي يحتوي علي ما يحفظ للإنسان في حياته النعمة والذي لا يحقق إلا بأن يقوم كل امرىء بما يجب عليه ويؤدي حق العمل الذي خص نفسه به وبناء على ذلك قسم الناس إلى مائة واثنى عشر صنفا (أو ثلاثة عشر) حسب مهنهم في الحياة .

(٤) « سراج الملوك » ص ٧٠ ، ١٤١ .

حسن كافى الاقحصارى الأصل الثانى من رسالته خاصاً بالمشاورة والاستخارة فى الرأى والتدبير، وكذلك فعـل ابن تيمية فى الفصل السـابع من رسـالته المذكورة «الرسالة الشرعية » كما تحدث الطرشوشى عن أهمية المشاورة فى صفحات من كتابه المذكور (١).

وقسم الاقحصارى الناس حسب عملهم إلى أربعة أصناف ، ونجد ابن تيميـة صنفهم إلى أولى الأمر والعلماء وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس(٢) ، وفى مكان آخر أن الناس أربعة أصـناف(٣) . كما نجد نوعا من تقسيم النـاس حسب أعمالهم لدى الطرشوشى أيضاً(٤).

تناولت رسالة الاقحصارى مسألة تبجيل العلماء وتحدث عنها ابن تيمية(٥) . أيضاً وناقش الاقحصارى بوادر انحطاط الدولة كما ناقشها الطرطوشى(٦) وبحث الاقحصارى عن استعمال آلات الحرب والقتال وتدبير العسكر وتحريضهم كما تحدث عن هذه المسألة المهمة الطرطوشى (٧) . وبالرغم من ذلك فإن الاقحصارى لم يقلد القدماء فى هذه الرسالة ، بل كان له منهجه الخاص . وذلك أنه وإن لم يغب عن باله مرة واحدة الشريعة ، لـكنه لم يتـكلم عنها كما جرى عنـــد ابن تيمية والسبكى والطرطوشى ، بل أخـــذها كحقيقة ثابتة لابد من تطبيقها . وربط المواد التاريخية فى رسالته بالحقائق الواقعية التاريخية التى حدثت فى عصره وكان أكثر من الآخرين معالجة للوقائع المباشرة .

---

(١) « سراج الملوك » ص ٥٣ كما خصص الباب السابع والعشرين للمشاورة والنصيحة.

(٢) « السياسة الشرعية » ص ١٦٢ .

(٣) نفس الـكتاب ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٤) « سراج الملوك » ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(٥) السياسة الشرعية لابن تيميه ص ٥٠ — ٥١ ، ١٦٩ .

(٦) سراج الملوك للطرطوشى ص ٥١ — ٥٥ .

(٧) نفس المرجع ص ١٧٣ .

المخطوط :

اعتمدنا فى تحقيق نص رسالة « أصول الحكم فى نظام العالم » على المخطوطة رقم : ١٩٢٨ ومخطوطة رقم : ٢٢٧٠ بمكتبة الغازى خسروبك بسراييفو، وسنرمز إلى المخطوطة الأول بالحرف «ا» فى حين سنرمز إلى المخطوطة الثانية بالحرف «ب»

ومخطوطة رقم ١٩٢٨ مكتوبة بخط نسخى على ٢٥ صحفة كتبة جنق زاده مصطفى بك بن فيض الله بن اسماعيل فى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال لسنة تسع وثمانين ومائة وألف . وهى مخطوطة رديئة تحتوى على أخطاء كثيرة .

ومخطوطة رقم ٢٢٧٠ مكتوبة بخط عثمانى جميل واضح ومتن الرسالة مكتوبة باللغة العربية بالحروف الكبيرة وشرح الرسالة مكتوب باللغة التركية بالحروف الصغيرة ولا يعرف كاتباها ولا تاريخها إذ ليس هناك إشارة ما إلى ذلك . وهذه المخطوطة فى ظننا أقدم عهدا بكثير من المخطوطة السابقة وتمتاز بالدقة البالغة . وقد اعتمدنا عليها اعتمادا كبيرا إلى جانب مخطوطة جنق زاده مصطفى المذكورة .

أصول الحكم فى نظام العالم

حمدا لك (اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)[1] وصلاة على رسولك محمد سيد الأنبياء ، وعلى آله وأصحابه أولى الأبصار والآراء ، ما دامت الأرض ودارت السماء .

وبعد . فان الفقير إلى الله البار ، كافى الاقحصارى [2] ، أعانه الله فيما استمانة [3] وصانه عما شانه ، يقول :

لما شاهدت سنة أربع وألف [4] فى نظام العالم خللا ، وانتظام أحوال بنى آدم زللا ، خصوصا فى دار الاسلام [5] أصلحها الله وسلمها إلى يوم القيام . قليلا بعد قضاء السنة والفرض ، (وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض)[6] فألهمنى بلطفه شيئا من الحكم [7] وافهمنى من فضله مالم أكن أعلم ، القى على قلبى قوله (أن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [7] وشرح صدرى التأمل فى أحوال الناس وأسباب تغير هم ، فلما تأملت بعونه اللطيف ، فيما كان منذ عشر سنين ونيف انكشف لى فى ذلك وجوه وأسباب ، والله أعلم بالصواب ،

---

(١) سورة عمران آية : ٢٦ .

(٢) حسن بن طورخان بن داود بن يعقوب الاقحصارى الذئبى .

(٣) فى نسخة « ا » — استغاثة .

(٤) ثار أمراء الاردل والافلاق ضد الأتراك وبدأ البغى والفسادوخرج السلطان محمد بن مراد بن سليم بن سليمان للغزوة المعروفة بغزوة « أكرا » .

(٥) يقصد المؤلف الدولة العثمانية التركية .

٦) سورة الانعام ، آية ٧٩

(٧) فى « ب » الحكمة .

(٨) سورة الرعد آية : ١١ .

الوجه الأول :

الأهمال فى العدالة (والضبط بحسن السياسة) [1] وسببه عدم تفويض الأمور إلى أهاليها [2] .

الثانى : المسامحة فى المشاورة (والرأى)[3] والتدبير وسببه العجب (والكبر)[4] فى الكبراء واستنكافهم عن مصاحبة العلماء والحكماء .

الثالث : المساهلة فى تدبير العسكر و استعمال آلات الحرب عند محاربة الاعداء وسببه عدم خوف العسكر من الأمراء ، ثم سبب جميع الأسباب ، وغاية ما فى البال طمع الارتشاء ورغبة النساء ، فاستخرت الله تعالى باكيا ، وعن نكبات الدهر شاكيا ، فاخارلى أن أكتب مختصرا مفيدا فى هذا الباب يشتمل على كلمات من جوامع الكلم ، فى تجديد قواعد النظام ، وكتابا سديدا يتضمن خلاصة أقوال أولى الألباب من المعارف والحكم فى تأييد بنيان الانتظام ، فاستصفيته من كتب قدماء العلماء وكبراء الحكماء ، خصوصا من أنوار التنزيل وروضة العلماء [5] ، جعله الله العلى الأعلى عناية للامراء ، وهداية للوزراء ، وأسوة للحكماء ونصرة للفقراء ، ورتبته على مقدمة وأربعة أصول وخاتمة . وسميته بأصول الحكم فى نظام العالم [6] ، ثم

---

(١) سقطت من نسخة «ب» .
(٢) فى نسخة «ب» إلى أهلها .
(٣) سقطت من نسخة « ا »
(٤) سقطت من نسخة «ب»
(٥) « . . . . ويسمى أنوار التنزيل وروضة الاخبار للزمخشرى «أصول الحكم فى نظام العالم باللغة التركية ص٥ للاقحصارى وفى « كشف الظنون» لحاجى خليفة «المجلد الأول ص١٨٦ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل « فى التفسير للقاضى الإمام العلامة ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر البيضاوى الشافعى » .
وفى ص٩٢٢ «روضة العلماء للشيخ أبى على حسين بن يحيى البخارى الزندويستى . . . سميته روضة العلماء وكان اسمه الأول روضة المذكورين» .
(٦) فى نسخة «ب» سميته بأصول الحكم فى نظام العالم ورتبته . . . »

خدمت به لحضرة الوزير المشير الصالح ، والأمير الكبير السامح خلاصة الوزراء ، سلالة الكبراء ، المأمور بحراسة حدود دار الاسلام بالسيف والقلم المنصور برياسة الولاة الاعلام من أرباب الطبل والعلم ، رئيس العساكر المنصورة السلطانيه حافظ الدوله القاهرة العثمانية سمى الوزير التقى الحافظ أحمد باشا (١) حفظه الله عما لا يشاء ، ويسره لكل ما يشاء (٢) ، صنه اللهم عن ريب المنون ، أعطه عمرا ينتهى فيه السنون (٣) ، والله المستعان وعليه التكلان .

المقدمة

فى سبب نظام العالم : وهوانه تعالى لما قدر بقاء العالم ببقاء نوع الانسان إلى وقت معلوم ، وبقاؤه بالتناسل ، وهو بالمعاشر والتعامل ، احتيج إلى أسلوب يتضبط به أمر الانسان على وجه أحسن فى جميع الازمان . فبالهام من الله وتوفيق (٤) رتب ودماء العلماء وحكماء القدماء بنى آدم على أربعة أصناف ، صنف السيف وصنف القلم ، وصنف الحرث والزراعة وصنف الحرفة والتجارة ، وجعلوا التصرف فى الجميع (٥) ملكا وإمارة .

أما الصنف الأول فهم الملوك والسلاطين ونوابهم وساير العسكر ، فالواجب عليهم ضبط جميع الاصناف والمحافظة بالعدالة (٦) وحسن السياسة بتدبير العلماء والحكماء ،

---

(١) هو بوسنوى أيضا .

(٢) فى النص « ... ويسره كل ما يشاء ... »

(٣) لم يذكر الاقحصارى فى شرح رسالته « أصول الحكم فى نظام العالم » باللغة التركية كلمات مدح الوزير أحمد باشا إذ أنه قدم شرح الرسالة إلى السلطان وكبار المسئولين الآخرين عن طريق الوزير الأعظم إبراهيم باشا نوشهرلى .

(٤) فى نسخة « ب » — وتوفيقه .

(٥) فى نسخة « ب » ... والكل .

(٦) فى نسخة « ب » ... بالعدل .

وللقاتلة والمحاربه لدفع الاعـــداء ، والعمل بسائر ما لا بد منـــه للامراء ، كما سيجيء أن شاء الله تعالى .

وأما الصنف الثانى فالعلماء والحكماء ، وسائر اصحاب الدعاء ، من الصلحاء والضعفاء ، فعليهم محافظة أوامر الله ونواهيه بالكتابة (١) والرواية وتبليغ أحكام الشريعة إلى جميع الاصناف ، والرأى والتدبير والمشاورة وتعليم الدين والديانة ، وترغيب الخلق على العبادة وحسن المعاشرة والدعاء بالخير لصلاح الجميع عمـــوما ولصلاح السلطان خصوصا . وأما الصنف الثالث فأهل الحرث والغرس المعروف فى فى زماننا بالرعايا ، فعليهم السعى والجد فى أسباب المعاش بالحرث والغرس والدواب والانعام ، لكفاية جميع الاصناف . فهذا أفضل الأعمال بعد العلم والجهاد .

وأما الصنف الرابع فأرباب الصنايع وأصحاب التجـارات ، فعليهم السعى فيما لابد منه للاصناف من الأمور الصناعية وأحوال التجارة ومـا يناسبهم مما ينتفع به الخلق وأما المكلف الخارج عن الأصناف فعند الحكماء الاسلامية لا يترك على حالة بل يجبر على أن يكون من أحدها وعند بعض الفلاسفة قيل : يقتل لأنه يكون كلا على الناس ، فثبات كل صنف على عمله المخصوص له يوجب نظاما فى الملك واهمـاله يوجب خلافه . فعلم من هذا أنه لا ينبغى أن يكلف أو يجـبر صنف على عمل صنف آخر لأنه يوجب اختلالا وتشوشا كما وقع فى هذا العصر لجبر الرعايا وأهل الصنايع على المحاربة باهمال العسكر فيها (حيث أهمل أهل العسكر فى دفع الاعداء ثم اجبروا الرعايا وأهل الصنايع على المحاربة فتعطل أمر الزرع والحرث فتشوش أمر المعـاش على الكل وظهر القحط والغلاء وتوجه الغموعم البلاء ولعمرى أن هذا خلل عظيم فى الملك أصلح الله بمنـه منه (٢) . وهذا من سنة احدى وألف إلى هذا الآن . ومادام

(١) فى نسخة «ب» . . . الكتاب .

(٢) كتبت هذه العبارة على هامش المخطوطة باللغة العربية أما باللغة التركية فذكرت فى مكانها

محافظة السلطان على الترتيب القديم بموجب الشرع القويم يزداد الملك نظاما ، وأحوال بنى آدم ، والسلطنة قوة ، وإذا وقع الاهمال فى رعاية هذا الاسلوب ، وحماية ذلك السمت المرغوب ، يسرى الفساد فى الملك والضعف إلى الامارة فى الجوانب الاربعة ، وربما يوجب الانتقال إلى الغير . اللهم احفظ الممالك الاسلامية من الاختلال ، وأمن الدولة العثمانية عن موجبات الانتقال آمن ياذا الجلال والجمال .

الاصل الأول

فى سبب نظام السلطة وامتدادها .

العمدة فيه العدالة وحسن السياسة . قال الله تعالى (ان الله يأمر بالعـــدل والاحسان)(١) ، يندرج فيه جميع أمور الخير الرعية والسلطان.

قال النبي عليه السلام : زين الله السماء بالثلاث بالشمس والقمر والكواكب، وزين الأرض بالثلاث : بالعلماء والمطر وسلطان عادل ، وقال علية السلام العدل من الدين وقوة السلطان . قيل : من حسنت سياسته دامت رياسته . قيل لاتتم الرياسة إلا بحسن السياسة ، يقال : ثبات الملك بالعدل .

ارد شير بابك : إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة ، وعنه : لاسلطان إلا برجال ولا رجال إلا بأموال ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل وحسن السياسة ، قيل : لايكون العمران إلا حيث يعدل السلطان .

قيل : دولة الملوك فى العدل ، قيل : خير الملوك من احسن فى فعله ونيته وعدل فى جنده ورعيته . سأل يزد جرد حكيما باصلاح الملك ، قال : الرفق بالرعية وأخذ الحق منهم بغير عنف والتودد إليهم بالعدل وأمن السبل وانصاف المظلوم . عبد الله بن طاهر سأل بعض الزهاد كم تبقى هذه الدولة فينا ؟ قال مادام بساط العدل فى

(٢) سورة النحل، آية : ٩٠

هذا الايوان ، (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) ،قيل من طالت غفلته زالت دولته (٢) .

قيل : الغافل من الملوك (من) (٣) اجتمع فيه خصلتان الانهماك فى اللذات واضاعة الفرص . بعض الحكماء : لاسائس مثل العقل ولا حارس مثل العدل ولا سيف مثل الحق ولا عون مثل الصدق قيل : العدل حصن وثيق فى رأس جبل أنيق ، لايحطمه السيل (ولا يهدمه منجنيق) (٣) ، قيل : الملك العادل مكنون بعون الله وعروس بعين الله . قيل لما مات النوشروان طافوا بتابوته فى جميع مملكته وينادى منادى « من له حق علينا فليأت » فلم يوجد أحد له عليه درهم فى ولايته . فيا عجبا من هذه القصة العجيبة ، فان فيها لعبرة عظيمة (٢) للملوك الاسلام وعبرة كبيرة لامرائه لو كانوا يتفكرون :

ثم لابد للسلطان من أن يفوض كل أمر إلى أهله كما أشار إليه قوله تعالى إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها (٣) وإلا فسدت قلوب المستحقين عليه فيرتب الخلل كما وقع فى هذا الزمان ، فان ألف ألف من العلماء والفصحاء للملك قليل وعدو واحد كثير : ابن رومى :

« فما بكثير ألف خل وصاحب   وإن عدوا واحدا لكثير »

قال عليه السلام : من ولى واحدا وفى رعيته أولى منه فقد خان رسوله وجماعة

---

(١) سورة الرعد، آية : ١١
(٢) فى النص « . . . من طال غفلته زال دولته »
(٣) سقطت من نسخة « ب »
(١) سقطت من نسخة « ب »
(٢) فى نص نسخة « ب »... لغيرة عظيمة .
(٣) سيرة النساء، آية ٥٨

للسلمين . قيل : إذا ساد اللئام باد الكرام . إذا ارتفع الوضيع اتضع الرفيع ، إذا ملك الاراذل هلك الافاضل ، دولة الاشرار محنة الابرار ، ومن أجل الغنائم دولة الاكارم قيل لبرز جمهر : كيف اضطربت أمور آل ساسان وفيهم مثلك ؟ قال : استعانوا بأصاغر العمال على أكابر الأعمال ، فآل أمرهم إلى ما آل . وفى الجواب تنبيه عظيم فى هذا الزمان إلى آل عثمان أبد الله تعالى دولتهم (وايقظهم) [٤] إلى انقضاء الزمان وانقراض الدوران :

ثم لابد للسلطان من أن يختار وزيراً عالما مصلحاً ، فإن الوزير إذا صلح صلح الملك وإذا فسد فسد ، اللهم اصلح . قال النبي عليه الصلاة والسلام إذا أراد الله بأمير خيرا جعل له وزير صدق ، أن نسى ذكره وأن ذكره أعانه ، وإذا أراد غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره . وإن ذكر لم يعنيه . قيل لا تسأل عن السلطان من هو ، وانظر إلى الوزير من هو . كان لاسكندر وزير قد [١] وزير له مدة طويلة ولم ينبهه على عيب فقال له يوما : « لاحاجة لى فى خدمتك فإنى إنسان ، والإنسان لايخلوا من الخطأ والنسيان ، فإن لم تقف منى [٢] على خطأ فأنت جاهل ، وإن وقفت وسترت فأنت خائن . يقـــال : الأمين من الوزراء من يصحب الملوك بالصدق فى المناصحة ، والخائن من يصحبهم بالمداراة والمداهنة .

ثم يجب أن يبجل العلماء والصلحـاء وأهل الدعاء ويكرمهم (ويعظمهم) [٣] ويجلب قلوبهم بإحسانه وأنعـــامه ويستعين بدعائهم ومشاورتهم ورأيهم وتدبيرهم ،

---

(٤) سقطت من نسخة «ب»
(١) سقطت من نسخة «ب»
(٢) سقطت من نسخة «ب»
(٣) سقطت من نسخة «ب»

ويعتمد على أقوالهم فوق مايعتمد على غيرهم (٤) إذ لايقع منهم خيانة ولاحيلة ولم تسمع قط فإنهم ورثة الأنبياء وسبب صلاح الدنيا والعقبى . يقال إنما تقوم الدنيا بأربعة بعلم العلماء ، وعدل الأمراء ، وعبادة الصلحاء ، والأسخياء . قال النبى عام النظر فى وجوه العلماء عبادة وقال عليه السلام : يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة ، فلا يفضل أحدهما على الآخر . قيل : خير الأمراء من يجالس العلماء وشر العلماء من يجالس الأمراء . قيل : خير الملوك من تمكن فى قلوب رعيته محبته كما تقرر هيبته بخمسة أشياء : إكرام شريفها ورحمة ضعيفها وإعانة لهيفها وكف عدوان عاديها (وتأمين سبل رائحها وغاديها) (١)

ولابد للملك أن يكون مبسوط اليد فإن الخلق لايتبعه إلا لغرض دنيوى ولايكون إنعامه وإحسانه مخصوصاً بطائفة لأن الإمامة موقوفة على العسكر والعلماء والحكماء والبلغاء والفقراء وأهل الحرفة .

قيل : الإنسان عبد (٢) الإحسان بعض الحكماء : العجيب ممن يشترى العبيد كيف لايشترى الأحرار بفعاله ؟ الشافعى رحمه الله (نظم) :

أحسن إلى الأحرار تملك رقابهم وخير تجارات الكرام اكتسابها (٣)

على رضى الله عنه : أحسن الكنوز محبة القلوب . قيل : من حفظ ماله ضيع رجاله . قيل لاسكندر : لم لاتكثر الأموال كما كان تفعل الملوك ؟ .

فقال « كنوزى هم أصحابى » أكنز الأموال فيهم لافى البيوت . قيل : من

---

(١) فى نسخة «ب» — «...على قول غيرهم» .
(٢) سقطت من نسخة « ب »
(٣) فى الأصل: « ... عبيد الاحسان»
(٤) وزن هذا البيت غير مستقيم تماما .

ليس له إحسان ليس له إخوان . أبو الطيب (نظم) :

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم

ولقد أحسن من قال (نظم)

حسن الفعال من الصلصال [1] مقصود والمرأ بالفعل مذموم ومحمود

فإنه يرفع [2] الإنسان أربعة العلم والحلم والإحسان والجود

البستى :

إذا لم يكن ملك ذاهبة فدعه فدولته ذاهبة

وله (نظم) :

من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للإنسان فتان

من كان للخير مناعاً فليس له على الحقيقة إخوان وخلان

من رقى درجات الهمم ، عظم فى عيون الأمم ، من كبرت همته كثرت قيمته .
بعض الحكماء : الملك المخلق كالجبل للأرض .

فلابد من أن يكون وقوراً حليما وصبورا أميناً لا مستعجلا فى عقوبة رجل إذا سمع فى حقه شيئاً والا لايأمن منه أحد فيفسد قلوب الرعية عليه . وإذا جلس مقام أبيه لأن الحب والبغض يتوارثان فإنهم لايكادون يخلون بينه وبين مكروه ولايقدم أحداث القوم عليهم لئلا يفسد قلوبهم عليه . بل للملك أن لايجالس الأحداث مطلقا

---

(١) يريد بصلصال الانسان باعتبار اصله .
(٢) فى الأصل : « . . . فانه قد يرفع »

قيل : مجالسة الأحداث مفسدة الدين .

فصل ، قيل : علامة أدبار دولة الملوك (١) ان يصحب الأحداث ومن لاعبرة له بالعواقب ، وأن يقصد أهل مودته بالأذى وأن ينتقص خراجه عن قدر مؤنه ملكه وأن يكون تقريبة وتبعيده تاهوى لا الرأى والاستهانة بناصح العلماء . قيل : علامة أدبار الإمارة : كثرة الطاعون وقلة العمارة . يقال ثلاثة تجر الهلك إلى الملك :

— أن يتعاص على عقل الملك اللذات والشهوات .

— وتحاسد الوزراء المقتفى لتحالف الآراء .

— ونكول الجنود عن الجلاد مع ترك المناصحة فى الجهاد . وأظهر العلامات : ترك العمل بأحكام الشريعة وعدم المبالاة بتنفيذها وأقربها : غلبة الظلم وشيوعه من العسكر وعدم المبالاة بدفعه ، فإذا وقع شىء من هذه العلامات من الملك أو ظهر فى ملكه يجب على الوزراء والعلماء أخباره (فى الحال) (٢) وعلى السلطان دفعه وتداركه بلا إهمال وإلا بعد التوجه والهجوم كاما يمكن دفع الهجوم (٣) .

ابن عباس رضى الله (رفعة) (١) قال النبى عليه عليه السلام أن من اشراط الساعة : اضاعة الصلاة واتباع الشهوات وكون الامراء خونة والوزراء فسقة فوثب سلمان رضى الله وقال بابى وأمى إن هذا لكائن ؟ قال نعم ياسلمان عندها قلب المؤمن يذوب كما يذوب الملح فى الماء ولا يستطيع أن يغير . قال أو يكون ذلك ؟

---

(١) فى نسخة «ب» الملك

(٢) سقطت من نسخة «ب»

(٣) العبارة مضطربة — غير واضحة تماما ولعلها « . . . والا فبعد . . . قلما . . . . الهموم » .

(١) سقطت من نسخة «ب»

قال نعم ياسلمان أن اذل الناس يومئذ للؤمن يمشى بين أظهرهم بالمخافة أن تكلم اكلوه وأن سكت مات بغيظه ، اللهم أدفع عن الدولة القاهرة العثمانية هذه العلامات بحرمة حبيبك محمد سيد السادات ، آمين ياقاضى الحاجات .

الاصل الثانى : للشاورة والاستخارة فى الرأى والتدبير (٢).

قال الله تعالى (وشاورهم فى الامر) (٣) ولا يخفى أنه عليه السلام كان اعلمهم بجميع الامور وإنما قال هذا ليكون سنة وطريقة لامته . فينبغى السلطان ونوابه أن لا يستبد (٤) برأية بل يستشير كثيرا من العلماء والعقلاء وأهل التجربة من أركان الدولة تحرزا عن الخطأ . قال النبي علم (٥) للستشير معان . عمر رضى الله عنه : ما تشاور قوم الا هدوا إلى أرشد أمرهم . سليمان عليه السلام . يابنى لا تقطع أمرا حتى تؤامر مرشد فاذا فعلت فلا تحزن . قيل : من بدأ بالاستخارة وثنى بالاستشارة لحقيق أن لايضل رأية (٦) . يقال : من اجتهد رأيه واستخار ربه واستشار صديقه قضى الله فى أمره ما أحب . الحسن : الناس ثلاثة : رجل ونصف رجل ولارجل فأما الرجل فذ والرأى والشورة وأما نصف الرجل فالذى له رأى ولا يشاور وأما الذى ليس برجل فمن لا رأى له ولا يشاور . قال عليه السلام لاصواب مع ترك الشورة . قيل لا رأى لمن تفرد برأيه . يقال اعقل الرجال لا يستغنى عن

---

(١) في نسخة«ب»...فىالمشاورة والاستخارة والرأى والتدبير .

(٢) سورة آل عمران آية:١٥٩

٣) فى نسخة «ا» — ...أنلا يتشمر .

(٤) عليه السلام.

(٥) فى نسخة «ب» زيادة — اللهم انى أستخيرك بحلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب،اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاقدرلى ويسره لى ثم بارك لى فيه وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدرلى الخير حيث كان ثم أرضنى به.

مشاورة أولى الالباب وأفره الدواب عن السوط ، وأورع النساء عن الزوج . على رضى الله عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد الارجانى (نظم) :

شاور إذا نابتك نائبه يوما وأن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنى ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة

كان عمر رضى الله عنه إذا نزل به الامر المعضل دعى الفتيان واستشارهم وقال : هم أحد قلوبا . قيل رأى الشيخ كالزند الذى انثلم . ورأى الشاب كالزند الصحيح يورى بايسر اقتداح . الحكماء : اجعل سرك إلى واحد ومشورتك إلى الف . فيلسوف الهند : بالرأى ينال ما ينال بالقوة والجنود . قيل : الرأى السديد (١) ، أحمى من الأيد الشديد . قال المنصور لولده : خذ عنى اثنين لا تقل من غير تفكر ، ولا تعمل من غير تد بير (٢) قيل : الفكر المعقول امضى من الباتر المصقول . فضل بن سهل : الرأى يسد ثلم السيف والسيف لا يسد ثلم الرأى . الحكماء : حازم فى الحرب خير من الف فارس ، فان الفارس يقتل عشر أو عشرين ، والحازم قد يقتل جيشا كله بحزمه وتدبيره . قال النبى عليه السلام « : الحرب خدعة » . قيل إذا لم تغلب فاحتل . الحكماء : كن بحيلتك أوثق منك بنجدتك ، وبحذرك افرج منك بشدتك . قيل المكر ابلغ من النجدة .

قيل (نظم) :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى (٣)

لقمان : يابنى شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ماقام عليه بالغلاء

---

(١) فى نسخة «ا» — الرأى الشديد.
(٢) فى نسخة «ا» — « » من غير تدبير.
(٣) مطلع قصيدة ديوان المتنبى .

وأنت تأخذه بالمجان . الاسكندر : لاتستحقر الرأى الجزيل من الرجل الحقير فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها (أنظر إلى ماقال ولا تنظر إلى من قال)(١)

فصل قيل يفسد التدبير ثلاثة أشياء :

— أحدها كثرة الشركاء فيه لانتشار التـدبير (وبطلانه) (٢) .

— والثانى تحاسد الشركاء لدخول الهوى والغرض .

— والثالث أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر فيـه دون من باشره فإنه يحقد للمباشر الحاضر (٣) .

على رضى الله عنه لاتدخلن بخيلا (البتة) مشورتك (٤)، يعدل بك عن الفضل ويعد لك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشر ، فإن الجبن والبخل والحرص يجمعهـا سوء الظن بالله . فدل ماذكر من محاسن العبـارات وأحاسن الاعتبارات ، (على) (٥) أن الرأى والمشورة من أهم المهمات ، وأتم المختارات ، وقد أهمـلا فى هذه الأيام ، وأسقطا عن محل الاهتمام ، فلذلك توجـه الخلل إلى الأمور ، ووقع الزلل والفتـور ، صرف الله قلوب الأمراء والوزراء ، إلى أنجح آراء العلماء والعقلاء ، وألف برحمته بين قلوبهم وجعلهم مصيبين فى جميع خطواتهم آمين يا أرحم الراحمين . (بحرمة محمد وآله) (٦) .

---

(١) سقطت من نسخة «ا» .
(٢) سقطت من نسخة «ب»
(٣) فى نسخة «ب» — . . . للحاضر المباشر .
(٤) سقطت من نسخة « ا »
(٥) سقطت من نسخة « ا »
(٦) سقطت من نسخة « ا »

الأصل الثالث : وجوب استعمال آلات الحـــرب والقتـال وتدبير العسكر وتحريضهم .

قال الله تعالى (يا يها الذين آموا خذوا حذركم) ، (١) أى تيقظوا واستعدوا وقال الله (وليأخذوا حذرهم واسلحتهم) ،(٢) والحذر كل مايتحصن به الغازى كالدرع ونحوه ويشمل الحزم . والسلاح معروف فاحذر كل منهما فرض لازم فلا يجوز تركهما عند المحاربة ، وقدشاع فى هذا الزمان تركهما عند الزحف خصوصاً فى ديارنا(٣) وذلك لعدم مبالاة أمراء العسكر باستعراض جنودهم بأنفسهم ولإهمالهم فى ذلك . وقد وجب على الأمير أن يستعرض جنده بنفســـه فينظر فى درعهم وعددهم ولا يعتمد فى ذلك على أحد غيره كما كان هذا عادة للملوك السالفة .

استعرض اسكندر جنده فقدم إليه رجل على فرس أعرج فأمر باسقاطه فضحك الرجل فاستعظم ضحكه فى هذا المقام وقال (له)(٤)،ما أضحكك وقد أسقطتك قال أتعجب منك ، قال كيف ؟ قال تحتك آلات الحرب وتحتى آلات الثبـــات ثم استقبلتنى ؟ فأجاب بقوله وأثبته .

استعرض عمرو بن ليث عسكره فمر به رجل على فرس أعجف فقال عمرو لعن الله هؤلاء ، يأخذون المال ويسمنون أكفال نسائهم . فقال الرجل ، أيها الأمير لو نظرت إلى كفل امرأتى لرأيته أهزل من كفل دابتى ، فضحك وأمر له بمال وقال خذه وسمن به كفل دابتك وكفل امرأتك . وبالجملة إن استعراض الجنود وتتبع

---

(٢) سورة النساء آية ٧١

(٣) سورة النساء آية ١٠٢

(٤) «فى البوسنه» شرح أصول الحكم «للاقحصارى ص ٣٦

(٥) سقطت من نسخة «ب»

حذرهم وأسلحتهم واتخاذها ثم استعمالها هى العمدة فى المحاربة والمقاتلة . فلا بد من الاهتمام فى هذا الأمر خصوصاً فى هذا العصر . ولعل ما شاهدناه فى هــذا التاريخ من العجز عن المقاومة مع الـكفار ليس إلا لإهمال هـــذا الأمر الخطير والغرض الـكبير . وقد جربنا فى ديارنا(١) من خمسين سنة إن أعداءنا من أهل الحرب كلما اخترعوا نوعاً من الأسلحة واستعملوه غلبو علينا ثم إذا اتخذنا مثله واستعملناه غلبنا عليهم بعون الله (العلام)(٢) لقوة الإسلام . أما فى هـــذا الزمان فأعداء بالغوا فى استعمال بعض الأسلحة الحدثة كالبنادق ونحوها ، وأهمل عسكرنا فى اتخاذ مثلها واستعمالها(٣) بل أهملاً فى استعمال الأسلحة القديمة أيضاً ، فوقعوا فيما وقعوا هداهم الله إلى الخير ونصرهم .

لقمن العدة ليوم الشدة ، وعنه : من لم يركب الأهوال لم ينل الآمال .

ثم يجب التحريض على القتال . قال تعالى (حرض المؤمنين على القتال)(٤) وكذا يجب عليهم على الصبر والثبات عند القتال ، قال تعالى (فان يـكن منـكم مائة صابرة يغلبو مائتين وإن يكن منـكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) (٥) أى بالنصرة والمعونة . قال عليه السلام « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافيــة فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . على رضى الله عنه: الصبر مطية الظفر . قيل : كالمغناطيس كما يجذب الحديد يجذب الصبر الظفر . قيل : بالصبر على لبس الحديد ، تتنعم فى الثوب الجديد . قيل لبعض بنى المهلب : بما نلتم ما نلتم ؟

---

(١) « على حدود كرفاتيا » ، شرح أصول الحـكم للاقتصارى ، ص٣٨
(٢) سقطت من نسخة [ا]
(٣) فى نسخة [ب] (فى اتخاذها واستعمالها) .
(٤) سورة الانفال ، اية : ٦٥
(٥) سورة الانفال ، آية : ٦٦

قالوا بصبر ساعة. قيل: الصبر درج يفضي بمن عرج إلى الفرج . قيل : الصبر مفتاح الفرج. عظائم الترك قالوا : ينبغى للقائد فى الحرب أن يكون فيه أخلاق من البهائم ، شجاعة الديك وقلب الأسد وحملة الخنزير وزوغان الثعلب وصبر الكلب على الجراحة وحراسة الكركى وحذر الغراب وغارة الذئب . قيل : السلامة فى الإقدام والموت فى الإحجام : قيل : الشجاعة صبر ساعة . أفرآسياب الشجاع محب حق إلى عدوه والجبان مبغض حق إلى أمه . هذا مشاهدة فى حدود الروم خصوصاً فى ديارنا(١) فإن بعض أهل الحرب من الكفار إذا شاهدوا الشجاعة من بعض غزاتنا أحبوه ومدحوه وقد يكون أهدوا إليه هدية وإذا أحسوا الجبن من بعض أبغضوه وذموه وقد يكون أرسلو إليه بعض زى النساء (٢) .

قيل : لا تصغر أمر من حاربت فإنك إذا ظفرت لم تحمد وإن عجزت لم تحذر ، ثم ينبغى لأمير العسكر أن يوصى(٣) بعضهم ببعض . بعض العرب : مالقينا كتيبة(٤) وفيها على رضى الله عنه إلا أوصى بعضنا ببعض . كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد رض(٥) حين أخرجه إلى أهل الردة ، اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك(٦) فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة ، أوصى الرشيد عبد الملك بن صالح أمير سريته فقال أنت تاجر الله لعباده فكن

---

(١) « حدود كرفاتيا » ، شرح أصول الحكم للاقحصارى ، ص : ٤١

(٢) فى نسخة «ب» (شيئا من حلى النساء)

(٣) فى النص . . . أوصى . . .

(٤) سقطت من نسخة [ا] – (تي) وكتبت [كبة]

(٥) رضى الله عنه .

(٦) فى نسخة [ب] زيادة – ... وتراك .

كالمضارب الكيس إن وجد ربحاً اتجر وإلا إستحفظ رأس المال ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة .

ثم السلطان لو اضطر إلى المحاربة بالضرورة(١) لا يتقدم بنفسه بل يكون تحت رايته فتحصنا بمدده وعدده ويغير لباسه ساعة فساعة. وإذا جلس مكان العدو بالقهر لا يتركهم أمراء لأن التعصب لا يخرج من قلوبهم . قد شاهدناه فى هذا التاريخ(٢) من أمراء ولاية بغدان وقره إفلاق واردل(٣) فإنهم خذلهم الله قد أظهروا التعصب من مائة سنة ونيف(٤) ثم لما أحسوا الغفلة اغتنموا الفرصة وفعلوا ما فعلوا ولعمرى (لو)(٥) وقع الإهمال فى أمرهم بعد لعادوا لما اعتادوا ، فلابد من التدارك . (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٦).

الأصل الرابع : فى أسباب الظفر والعون من الله تعالى وموجبات الهزيمة أعاذنا الله .

العمدة فيها الصلاح والتقوى فى العسكر . قال تعالى (إن الله مع المتقين)(٧) ، وقال (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(٨) . وقال (استعينوا بالصبر والصلاة(٩) ولا شك فى أن الظفر مع العون ولا عون إلا مع قوم كان الله معهم .

---

(١) سقطت من نسخة [ا]
(٢) فى نسخة [ب] زيادة ـ ... سنة ثلاث وألف .
(٣) الولايات فى رمانيا الحالية .
(٤) فى نسخة [ب] ـ ... من خمسين سنة .
(٥) فى نسخة [ب] ـ ... إن وقع .
(٦) سورة البقرة ، آية ٢٥٠
(٧) سورة البقرة اية ١٩٤
(٨) سورة النحل ، اية : ١٢٨
(٩) سورة البقرة ، اية : ١٥٣

فأهم ما يجب على السلطان والوزراء أن(١) يأمروا عسكرهم بالتقوى، والصلاح والصبر والصلاة ويمنعوهم من الفسق والعصيان والميول إلى البدع والشهوات. وذلك ميسر بحسن السياسة والضبط ويسهل بالالتفات إلى أخيارهم والإعراض عن أشرارهم :

ثم سبب دعاء الصلحاء من العلماء والمشايخ والضعفاء والفقراء وهمتهم فإن همة الرجال تقطع الجبال . قال عليه السلام : لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر وقال عليه السلام : أنتم منصورون بضعفائكم فلا بد من المراجعة والالتفات إلى هذه الطائفة بالإنعام والإحسان والاكرام لتنجذب قلوبهم وتنشرح صدورهم إلى الدعوات الصالحات وحسن النيات فان فيها نفعاً عظيماً للخواص والعوام. ويجب الاحتراز عما يوجب إيذائهم والاستخفاف بهم لئلا تنكسر قلوبهم ولا تنقبض صدورهم فان فيه ضرراً لجميع الأنام : وفى هذا العصر لا يشاهد ولا يرى فيما بين أكثر الورى إلا الاعراض والاستنكاف (والايذاء)(٢) والاستخفاء ، خصوصاً من الطائفة الخاصة ، أصلحهم الله .

ثم سبب همة السلطان وعزيمته على ضبط العسكر بالجود والاحسان والانعام عند الغاية ، ثم الوفاء لعهده ، والتهديد بالقهر والعقاب(٣) عند الهرب عن المحاربة : وقد شاع الهرب عن الزحف فى حدود الروم خصوصاً فى ديارنا(٤) ولا بد من التقيد والاهتمام ، إلا أن يكون الهرب للرأى (وللصلحة)(٥) كما قيل :

---

(١) سقطت من نسخة [ا] و [ب]
(٢) سقطت من نسخة [ب]
(٣) فى نسخة [ا] ـ ... السياسه .
(٤) حدود البوسنه ، شرح أصول الحكم للاقحصارى ص : ٤٨
(٥) سقطت من نسخة [ب]

الحرب فى وقته خير من الصبر فى غير وقته . سأل عمرو بن العاص معاوية رضى الله عنهما أرى لك فى بعض الأوقات إقداما وأحكم بشجاعتك وأرى فى بعضها إحجاما وأحكم بجبنك فقال معاوية رضى الله عنه شعر :

شجاع إذا ما مكنتنى فرصة إذا لم يكن لى فرصة فجبان .

ثم السبب عزيمة الجند على المحاربة لاعزاز دين الله واعلاء كلمته لا لأخذ المال ونيل الجاه . قال عليه السلام : ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله والناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء .

ثم السبب طاعة العسكر وانقيادهم لأولى الأمر مع اتفاقهم وتألفهم بالتودد والمؤاخاة وامتناعهم عن التفرقة والمعاداة . هذا المعنى من أهم الأمور — . وقد فقد فى هذا العصر حيث كثر الخلاف والشقاق ، وشاع بينهم العناد والنفاق ، فلا بد من تدارك الاتفاق . فبعدمراعاة هذه الأسباب لابد منحسن الاعتقاد والتوكل على الله الملك الوهاب ، والاعتماد والتوسل إلى معجزات رسوله الهادى إلى سبيل الصواب .

وأما ما يوجب الانهزام والانكسار ، وما يورث تسلط الكفار ، فهو الأهمال فى العمل بما تلونا من الاخبار ، والأصل فيه العصيان والبغى فى العسكر فإن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لايعرفنى . وقال عليه السلام لاظفر مع البغى ويدل [على هذا(١)] نظر العقل فإن الفحشاء والمنكر والبغى خيانة فى الدين والخائن خائف والخائف لايخلو من الانهزام . وقد بدأ البغى فى ديار الروم بين عساكر المسلمين منذ ثلاث سنين ، فإن كثيرا منهم طغوا فى البلاد ، واكثروا فيها الفساد ، بهتك أعراض المسلمين ونهب أموالهم ، والتعرض لنسوانهم وأولادهم ، واغارة أرزاق الرعايا ، وايذاء الفقراء والضعفاء ، خصوصا

---

(١) فى نسخة [ب] — ... عليه

الطائفة الخاصة فسلط الله الاعداء على حدود الروم ، فبالغوا في الهجوم ، وأخذوا قلاعا كثيرة ، وأظهروا جهة كبيرة وفعلوا مافعلوا ، وما وقع هذا في عسكر الإسلام إلا الأهمال الضبط والسياسة والتقصير في أداء وظائفهم وذخائرهم ، ولعمرى أن أكثر ما وقع من الاختلال ما وقع (١) لا بسبب الطمع في المال ، من غير تمييز الحلال والحرام ، نبه الله قلوب الأمراء والوزراء عن هذه الأحوال أنه القادر الكبير المتعالى .

ثم السبب عدم ترقب الفرصة ثم الغرور واستصغار العدو فلابد من التوبة والرجوع إلى الله المتعالى عن موجبات الضلال(٢) والتوقى عن الأهمال في تدبير المال . اللهم يامحول الأحوال حول حالنا إلى أحسن الحال . الخاتمة في الصلح والعهد .

قال تعالى (الصلح خير(٣)) ، قيل : الحرب صعبة والصلح أمن ومسرة . كيخسرو : أعظم الخطايا محاربة من يطلب الصلح . أردشيربابك : لا أستعمل السيف لمن عصى حيثما يكفى العصا وما أتصدى للعدو بالصول والنصل إذا كان يؤثر فيه قول الفصل . قيل : الصلح بقاء الآجال وحرم الأموال . قال الله تعالى (أن العهد كان مسئولا(٤)) ، وفى الحديث : خمس بخمس ما نقض العهد قوم الا سلط الله عليهم عدوهم وما حكموا بغير ماأنزل الله الا فشا فيهم الفقر وما ظهر فيهم الفاشة الا فشافيهم الموت وما طففوا الكيال الا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة الا حبس عنهم القطر . وهذا آخر الكتاب والله أعلم بالصواب وفى هذا القدر لمن تأمل كفاية والكلام ليس له نهاية .

---

(١) سقطت من نسخة [ب]

(٢) فى نسخة [ب] ... عن موجبات الغفلة والضلال .

(٣) سورة النساء اية : ١٢٨

(٤) سورة الاسراء اية : ٣٤

يا عالما بجميع الحال فى الطلب ... نرجو النجاة من الاحزان والكرب
اعط الخلاص من الأوزار قاطبة ... وأرحم عبيدك خلصنا من التعب

ربنا أغفر لنا ذنوبنا وأسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وأنصرنا على القوم الكافرين[1] . اللهم أنصر جيوش المسلمين وانصر عساكر الموحدين واكتب السلامة على الحجاج [والغزاة والمجاهدين[2]] وصل على رسولك محمد وآله وصحبه أجمعين . (والحمد لله رب العالمين[3]) .

[وقد وقع الجمع والاتمام بعون الله الملك العلام فى ذى الحجة الحرام لسنة أربع والف من هجره النبى عليه السلام[4]] .

(١) سورة آل عمران ، اية : ١٤٧
(٢) سقطت من نسخة [أ]
(٣) سورة الفاتحه ، اية : ٢ .
(٤) وقد جاءت فى ختام الترجمة التركية الموجودة على هامش المتن العربى فى نسخة . ب .

نقد الكتب

عرض كتاب

Modern History of the Arab Countries

تأليف : V. Lutsky

إن كتاب « التاريخ الحـــديث الدول العربية » عمـــل على من تأليف فلاديمير لوتسكى (الذى عاش فى الفترة من ١٩٠٦ حتى ١٩٦٢) والذى يعد من أشهر المؤرخين السوفيت المتخصصين فى تاريخ الدول العربية .

ويعد هذا الـكتاب أول محاولة فى المؤلفات السوفيتية والروسية لـكتابة تاريخ عام للدول العربية مجتمعة . ولا يعنى ذلك أنه لا توجد كتابات عن العـالم العربى ؛ فهناك كثير منها ، ولـكن عن دول عربية بعينها .

يتناول الـكتاب التطورات السياسية والدبلوماسية الرئيسيـة فى التاريخ العربى منذ الفتح التركى حتى هدنة موردس Mudros عام ١٩١٨ التى وضعت حداً للحكم التركى فى المشرق العربى . ويتعرض المؤلف للتسلل الأجنبى فى الدول العربية وسيطرة الأوربيين عليها . كما تعنى صفحات كثيرة من الـكتاب بالتطورات الداخلية للدول العربية وإصلاحاتهـا وظهور فـكرة القومية وحركات التحرر الوطنى . كما يعـــالج الـكتاب حملة نابليون وفترة حكم محمد على والحروب التى أثارهـــا وثورة عرابى فى مصر عام ١٨٨٢ . وقيام الدولة المهدية فى السودان (١٨٨١ — ١٨٩٨) ونضـــال البدو الجزائريين ضد السيطرة الفرنسية بقيادة الأمير عبد القادر . وكذلك الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية ثم الثورة العربية التى نشبت خلال الحرب العالمية الأولى .

وقد وضع الكتاب أساساً باللغة الروسية ثم طبعت له الترجمة الإنجليزية — التي بين أيدينا — في موسكو عام ١٩٦٩ . ويحتوى الكتاب على سبعة وعشرين فصلا بالإضافة إلى مقدمة وثلاثة فهارس هي : فهرس بالإعلام — فهرس بالأسماء الجغرافية — فهرس بالموضوعات . ويقع الكتاب في ٤٢٢ صفحة من القطع المتوسط .

* * *

ومن الناحية المنهجية لم يثبت الكتاب المصادر التي اعتمد عليها ، سوى ما ورد في بعض حواشيه هنا وهناك لبعض الكتب وبصفة خاصة مؤلفات كل من ماركس وانجلز ولينين وبعض المؤلفات التاريخية الكلاسيكية لكل من : Cromer, Young, Elgood, Palgrave, Rothstein. كما ورد في متن الكتاب إشارات لكتابات قلة من المؤلفين العرب هم على سبيل التحديد الجبرتي وجورج أنطونيوس ومحمد صبري .

وربما يؤخذ هذا التصور من حيث قلة الاستعانة بالمصادر العربية لمثل هذه الدراسة العلمية . ولكن نظرة فاحصة للكتاب ومادته التاريخية تثبت عكس ذلك . ومرد ذلك — في اعتقادي — إلى أن المؤلف لم يقدر له أن يتولى نشر كتابه بنفسه أو الإشراف على ترجمته إلى الإنجليزية عند طبعه ؛ حيث تم ذلك بعد وفاته . يضاف إلى ذلك أن معظم فصول هذا الكتاب عبارة عن محاضرات ألقاها مؤلفه على طلبة جامعة موسكو ومعهد الدراسات الإفريقية والشرقية وغيرها ، أو هي مقالات وبحوث نشرت في المجلات العلمية المتخصصة . ثم جمعت هذه المحاضرات والبحوث ووضعت في كتاب — هو الذي بين أيدينا — وربما كان ذلك من وراء عدم إثبات المصادر بالطريقة التقليدية سواء في حواشي البحث أو في ثبت مستقل في نهايته

وقد يرجع ذلك أيضاً إلى أن المؤلف لم يكن ليعنى وقتها بطبعها .

وعلى أية حال يبدو واضحاً أن المؤلف استفاد فى بحثه هذا بالعديد من المصادر العربية وغير العربية — يتضح ذلك من الدقة فى كتابة المصطلحات التاريخية والأسماء العربية والتركية وغيرها . وهى دقة يحسد عليها مؤلف أجنبي ، وإن كانت هنـــاك بعض الأخطاء إلا أنها ضئيلة جداً تـــكاد ولا تظهر فى الـكتاب من ناحية ، ومن ناحية أخرى لا يمكن مقارنتها بغيرها من الأخطاء التى ترد فى الـكتب الأجنبيـــة الأخرى التى تناولت تاريخ العالم العربى فى نفس الفترة وخاصة من جانب الـكتابات والمؤلفات الغربية .

والـكتاب فى جملته جديد فى منهجه ووجهات النظر التى يطرحها . ربما يرجع ذلك إلى وعى المؤلف بالأحداث التاريخية ومقدرته على تحليلها ونقدها وردها إلى منابعها الحقيقية التى خرجت منهـا . وينبغى أن نشير إلى تلك الدراسة القيمـة عن المجتمع العثمانى : ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى القرون ١٦ ، ١٧ ، ١٨ والتى كانت من وراء قدرة المؤلف على تفهم طبيعة التاريخ الحديث للعالم العربى .

ولسوف أشير إلى مصر وتاريخها كمثال لوجهة النظر الجديدة تلك . وهى التى يمكننى أن أتعرض لها بشىء من الثقة .

***

فالتفسير والنظرة التى نظر بها الـكتاب إلى كل من أعضاء أسرة محمد على إبتداء منه هو ذاته حتى اسماعيل ؛ نظرة تقدمية ترى أنهم ساعدا وعجلوا بقيام بورجوازية مصرية على النمط الغربى مما يُدفع بحركة التطور خطوة إلى الأمام . فى نفس الوقت الذى لم تتغاض مطلقاً عن إبراز أخطائهم العامة فى حق مصر وشعبها ومنها :

أن المؤلف بعد أن يورد دراسة إقتصادية رقمية لديون مصر لكل من الدول الأجنبية وبنوك أوروبا من ناحية ، والشعب المصرى من ناحية أخرى، يبين مدى ما تمتعت به الأولى من حماية وضمانات وأرباح طائلة ، فى نفس الوقت الذى يوضح مدى الغبن الذى عوملت به ديون المصريين أنفسهم ، فمن مزايا محدودة جداً إلى مماطلة ثم إلى مصادرة فى نهاية الأمر . وهى نظرة ذات دلالة باعتبارها كانت إيذاناً بوضع مصر تحت السيطرة الأوروبية ثم الإنجليزية فى النهاية إلى درجة يعد الاحتلال العسكرى معها نتيجة حتمية .

وكرد فعل لذلك كان لزاما على المصريين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد السيطرة الأجنبية أولا وقبل كل شئ بعد أن أدركوا أن غضبهم على خديويهم أمر لا يفيد فى قليل أو كثير لإدراكهم مدى خضوعه لدائنيه الأجانب من حكومات وبنوك وغيرها وهو الأمر الذى دعا حكومات تلك الدول صاحبة « الامتيازات » فى مصر إلى التوحد فى تصديها لحركة المصريين ، كما دفعها إلى أن تسلم لانجلترا فى النهاية — برغم ما كان بينها جميعاً من تنافس — « بالوصاية » على مصالحها فى مصر وهو إذا لم يعد إعترافها جميعا بوضع إنجلترا فى مصر كأمر واقع فهو على الأرجح يعد من قبيل «التعامل مع الحاكم الأقوى» فى مصر ، إن لم يكن حاكمها الوحيد .

ومن التفسيرات الموضوعية التى يوردها الكتاب ، تحليله لموقف اسماعيل من الحركة الوطنية بل محاولته تشجيع قيام حركة وطنية مناوئة للسيطرة الأجنبيه عندما أحس بوطأتها . ومن ثم تصدى تلك القوى له وعزله فى النهاية دون إذاعة خبر العزل على الشعب — الذى كان قد ساند خديويه فى هذا الموقف لتوحد رغبتهما معاً — إلا بعد رحيله عن مصر وإقامة حاكم جديد معروف « بجهله » — وهو ابنه توفيق — مما ساعد فى تنفيذ مخططات تلك القوى الأجنبية . وبالرغم من ذلك

وبالرغم من ذلك قام الشعب — أو على الأصح — الفئات التي علمت بخبر العزل بالتعبير عن غضبها تجاه قرار العزل في شكل مظاهرات . وهو ما يفسر قلة حجم هذه المظاهرات كيفاً وكماً .

وكذلك من التفسيرات الطريفة طبيعة الخلاف الذي شب بين جناحي الحزب الوطني — أو بمعنى أدق — الحزبين الوطنيين اللذين تكون كل منهما في عام واحد هو عام ١٨٨١ ، أحدهما بزعامة شريف وسلطان ، والآخر بزعامة عرابي ورفاقه . وهو خلاف بين ما يمكن تسميتهم « بالمعتدلين » و « المتطرفين » في الاتجاه الوطني والحرص على المصالح الوطنية . بعد أن نجحا مؤقتاً أمام مقاومة حكومة رياض « الرجعية » والتي بدت مصرية في ظاهرها وإن كانت أجنبية في جوهرها . وبعد أن نجحا معاً في إسقاطها كان لزاماً أن يفترقا بفعل التناقضات القائمة بينهما من حيث تمثيل كل منهما الطبقة التي ينبع منها ويعبر عن مصالحها .

وإذا كان المتطرفون قد وقعوا أولا في خطأ فادح بقصر مطالبهم على مصالح ذاتية دون تعديها لمطالب كل الجماهير ، فإنه كان خطأ مزدوجاً حين سمحوا لأنفسهم بالتعاون مع « المعتدلين » ما أتاح الفرصة للقوى « الرجعية » الممثلة في الخديو توفيق — الذي كان يمثل المصالح الأجنبية أكثر من تمثيله الشعب الذي يحكمه — بأن تأخذ زمام المبادرة في كثير من الأحيان , وهو ما أجهض حركتهم حتى بعد أن أتيحت لهم فرصة الحكم والالتحام بالجماهير بل والتعبير الكامل عن مطالبها وذلك بعد مقابلة سبتمبر ١٨٨١ الشهيرة التي لم تكن لتوافق عليها القوى الأجنبية ومصالحها من ورائها .

وقد تمثلت القطيعة بين الحزبين عندما رفض الجناح « المعقول » بزعامة شريف تولي الحكم مستنداً على حماية أجنبية قائمة بعد أن بدا له سنداً آخر ممثلا في أعضاء مجلس النواب « ممثلي الشعب » أو على الأدق ممثلي مصالحهم . الأمر الذي يفسر

سلسلة الأخطاء المتلاحقة التي وقع فيها هذا الجناح المتدل ، والذى عاد من جديد إلى مهادنة «المتطرفين» فى مواجهة السيطرة الأجنبية وتهديده لسيادتها واستقلالها. وإن كانت قمة القطيعة بدت جلية عندما حاول المتطرفون - أثناء تقلدهم السلطة - التلويح بإصلاحات شعبية ، زراعية فى المحـــل الأول مما أزعج « المتدلين » على مصالحهم فباتوا يناوئونهم إن لم يكن يستعينوا عليهم بالخديو وحتى بالأجانب حيث التقت مصالحهم جميعاً أمام ذلك الخطر الجـــديد . مما يؤكد تفويتهم الفرصة على المصريين عند محاولتهم التخلص من السيطرة الأجنبية ومنحها للاجانب ممثلين فى انجلترا لأحكام قبضتهم على مصر ومواردها .

وقد حاول الخديو - ممثلا لهذه المصالح ومسنودا منها - أن يضرب «المتطرفين» - أثناء تقلدهم السلطة - بغرض تقويض حركتهم مما كان سبباً فى خلاف حاد وقع بينه وبينهم إلى أن يوغل فى تطرفه تجاه الآخر. وليس صحيحاً أن مسألة «الميزانية» كانت هى السبب الرئيسى فى الأزمة القائمة وقتذاك . بل إنها كانت واجهة لذلك الخلاف الذى دفع المتطرفين إلى التمسك بعزل الخديو أولا وقبل كل شىء .

وأمام قوة « المتطرفين » المتعاظمة - بالتفاف الجماهير حولها - ارتمى الخديو ورجاله فى أحضان الأجانب مما سمح بالاحتلال فى النهاية . وإذا كان من خطأ جسيم آخر وقع فيه « المتطرفون » - بعد هزيمة التل الكبير - فذلك أنهم وقعوا تحت تأثير « المتدلين » ونصائحهم بالتسليم فى نفس الوقت الذى وضح فيه تماماً مدى التعاون المطلق بين « المتدلين » والقوى « الرجعية » المدعمة بالأجانب .

ويتحدث المؤلف عن طبيعة الحركة الوطنية التى برزت بعد حقبة من وجود الاحتلال فيرى أنها كانت ذات سمات « رجعية » عندما نادت بإحياء الإسلام - أو ماعرف بحركة « التجديد » - ممثلة فى محمد عبده ومدرسته ، عن طريق ينفى

الاصلاحات الاقتصادية والثقافية كما أنها قبلت مبدأ « الكفاح السياسى » سلوبا لمواجهة السيطرة الأجنبية .

وقد أخذت تلك الحركة الوطنية شكلا آخر على يد مصطفى كامل : الذى كان كان تعاونه مع جماعة الكتاب الفرنسيين الاستعماريين أمراً له مغزاه ولم يكن مجرد صدفة عارضة . ذلك لأنه يمثل فكرة مصطفى كامل القائمة على استخدام التناقض القائم بين مصالح المستعمرين الأجانب كوسيلة للحصول لمصر على بعض المكاسب . وان كان ذلك يعد استمراراً الخطأ الذى وقع فيه الجيل السابق من حيث تغاضيه عن قوة المصريين الذاتية ومدى مايمكن أن تحققه لمصلحة مصر والمصريين . بالإضافة إلى وقوعه فى نفس خطئهم المتمثل فى استخدام « التهيج السياسى » أسلوبا « للكفاح » . وقد استمر ذلك قائماً حتى حادثة دنشواى فى يونيو ١٩٠٦ عندما أجبر الاحتلاليون على التنازل ـ بعض الشىء ـ للمصريين ، ولكن دون أن يغير الوطنيون شيئاً من أساليب عملهم ، ربما لاعتقادهم أن « الكفاح السياسى » قد حقق لهم بعد ما كانوا ينشدون .

كل ذلك فى نفس الوقت الذى قدرت فيه بريطانيا ضرورة إنتهاج سياسة جديدة مع الوطنيين بمحاولة خلق حزب من المصريين « أصحاب المصالح الحقيقية » ـ كما كانوا يسمون ـ بالإضافة إلى محاولة كسب ود الخديو باعطائه قدراً يسيراً من الحرية كمحاولة لانتزاع كل منهما من براثن الوطنيين أولا ثم دفعهم لمساعدتها وتأييد سياستها ثانياً .

وما كتب عن مصر بهذه النظرة الواعية كتب عن سائر البلدان العربية الأخرى التى تناولها المؤلف بالدراسة ، ولعل مرجع ذلك هو أن المؤلف كتب كتابه ـ بحوث ـ من وجهة النظر المادية كما صرح بذلك واضع مقدمة الكتاب ، وهى

وجهة النظر التى تجعل للمجتمع بكل طبقاته — مدفوعاً بعوامل اقتصادية — الكلمة العليا فى تشكيل مواقفه وفرض نفسه على الأحداث أولا وأخيراً .

وهذا المنهج الذى عولج به هذا الكتاب جديد ولاشك ، ربما نحس أننا فى حاجة إلى استخدامه عند كتابة تاريخنا بأنفسنا حتى — على الأقل — نخلق توازنا مع ذلك المنهج الذى ظل لفترات طويلة يكاد يكون المنهاج الوحيد لكل من ساهم فى كتابة المجتمع العربى الحديث ونعنى به المنهج المثالى الذى يركز على الشخصيات وأدوارها فى صنع التاريخ .

إعداد

عبد الخالق محمد لاشين